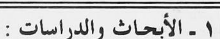
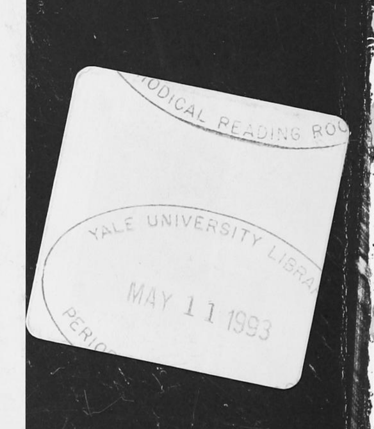
al-Mu'arrikh al-Misri









يصدرها قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة القاهرة
العدد التاسع يوليو ١٩٩٢



جامعـــة القـــاهرة

كليـــة الآداب

يصدرها قسم التاريخ

المؤرخ المصرى

العدد التاسع

يوليو ١٩٩٢

دراســات وبحــوث فى التاريخ والحضارة

قـــواعد النشـــــر

* ترحب المؤرخ المصرى بنشر الأبحاث والدراســات الأصــيلة ذات المستوى الأكاديمى الجاد بعد التحكيم ، فضلا عن مراجعات وعرض الكتب الجديدة .

* تقبــل المؤرخ المصرى للنشر الأبحاث التاريخية والحضـارية المكتوبة باللغتين العربية والانجليزية على ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن ٣٠ صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة على ورق حجم كوارتو بما فى ذلك الهــوامش والجــداول وقائمة المراجــع .

* المؤرخ المصرى لا تنشر بحوثا سبق أن نشرت أو معروضة للنشر فى مكان آخر ، وتقوم رئاسة التحرير باخطار المؤلفين بإجازة بحوثهم للنشر بعد عرضها على هيئة التحكيم .

* تحتفظ المؤرخ المصرى لنفســها بحق قبول أو رفض الأبحاث المقدمة للنشر دون إبداء الأسباب ، كما لا تلتزم بإعادة الأبحاث أيا كان قرار هيئة التحكيم .

* النشر فى المؤرخ المصرى متاح لأعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية والعربية والأجنبيــة وســائر المهتمــين بالدراســات التاريخيــة .

* الآراء الواردة بالمؤرخ المصرى تعبر عن وجهة نظر أصحابها .



المؤرخ المصري

دراسات وبحوث فى التاريخ والحضارة

العدد التاسع يوليو ١٩٩٢

المراسلات :

ترسل البحوث والمقالات باسم السيد الاستاذ الدكتور / **سيد أحمد الناصرى** رئيس التحرير على العنوان التالى :

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة (قسم التاريخ)

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحيـــة العـــدد

بكل فخر وسرور يصدر قسم التاريخ بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة العدد التاسع من مجلة المؤرخ المصرى • وبالرغم من الظروف المؤسفة المتسببة عن سلسلة الزلازل التى شهدتها القاهرة خلال شهر أكتوبر عام ١٩٩٢ فقد حرصنا على أن تصدر المجلة ـ حتى وان كانت متأخرة عن موعدها • ونحن ننتهز الفرصة لنشكر القراء من مصر ومن العالم العربى الذين أرسلوا يتساءلون عن سبب تأخر العـــدد التاسع عن موعده ولا نخيب رجاءهم إذ نقدم فى هذا العدد سلسلة من المقالات العلمية المتنوعة التى شملت كافة تخصصات التـــاريخ والآثار ، كما يشارك فى كتابة هذه المقالات أساتذة من مصر ودولة الامارات والكويت واليمن ، وبذلك نكون قد حققنا هدفنا فى ربط مؤرخى العالم العربى بعضهم ببعض على صفحات هذا العدد •

اننا نتابع التطوير والتحديث الذى تحرص عليه هيئة تحرير المجلة لتساير أحدث وأشهر الحوليات والدوريات التاريخية الأجنبية بالاضافة الى الحرص على أن يؤرخ العرب لأنفسهم ويعرضوا وجهات نظرهم فى أحداث تاريخهم بدلا من الاعتماد على التاريخ الذى يكتبه الأجانب والذى قد يعرض وجهات نظر لا تخلو من التحامل والتحيز •

والله نســـأل الهــداية والرشاد •

رئيس التحـــرير

البحـــوث والدراســـات

حملات المسلمين البرية على أرض الروم بآسيا الصغرى
فى عهد الوليد بن عبد الملك
(٨٦ ــ ٩٦ هـ / ٧٠٥ ــ ٧١٤ م)

دكتـــورة
صفاء حافظ عبد الفتـــاح
كلية الآداب ببنهـــا

اهتم الوليد بن عبد الملك منذ أن تولى خلافة بنى أمية فى سنة (٨٦ هـ / ٧٠٥ م) بمتابعة حركة الفتوحات الاسلامية فى آســـيا الصغرى على الجبهة البيزنطية ، فتوالت حملاته البرية عليها حتى أن المصادر[١] فى ذكرها للحوادث خلال سنوات حكم الوليد التى استمرت عشر سنوات لا تخلو من اشارة لحملة أو عدة حملات فى كل سنة .

والمتأمل فى هذه الحملات البرية المتوالية التى أرسلها الوليد يدرك تمام الادراك أنها لم تكن مجرد حملات حربية الهدف منها الاكتفاء بالاستيلاء على عدة مواقع حصينة فى آسيا الصغرى ، أو أنها كانت مجرد حملات الهدف منها بث الخوف والرعب فى الجانب البيزنطى ، أو تأمين حدود الدولة الأموية على تلك الجبهة ، ولكن يبدو أن هذه الحملات كانت جزءا من خطة أهم وأكبر من ذلك ، هدفها الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، لتحقيق الحلم الذى طالما

---

(١) انظر ، خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق سهيل زكار ، وزارة الثقافة ، القسم الأول ، ص ٣٩٧ ــ ٤١٨ ، الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٤ م ، ج ٦ ص ٤٢٦ ــ ٤٩٢ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ١٩٨٣ م ، ج ٤ ، ص ١٠٦ ــ ١٣٥ ؛ النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، تحقيق محمد البجاوى ، هيئـــة الكتاب ، القاهرة ١٩٧٦ م ، ج ٢١ ، ص ٣١١ ــ ٣١٣ ، ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، مؤسسة الأعلمى ، بيروت ١٩٧١ م ج ٣ ، ص ٧٠ ــ ٧١ .

راود المسلمين عامة والخلفاء الأمويين خاصة ، باعتباره ضرورة سياسية وحربية لمصلحة الدولة[٢] .

كانت الظروف الداخلية والخارجية فى الدولة الأموية مهيأة لكى يقدم الوليد بن عبد الملك على فتح القسطنطينية ، فقد كانت السنوات العشر التى اعتلى فيها عرش الخلافة الأموية (٨٦ — ٩٦ هـ / ٧٠٥ — ٧١٤ م) من أكثر السنوات ازدهارا فى تاريخ الدولة الأموية ، ففى الداخل نعمت الدولة بالرخاء والازدهار وانتشار السلام فى ربوعها ، وفى الواقع كان هذا الازدهار والسلام ثمرة جهود جبارة بذلها أبوه الخليفة عبد الملك بن مروان[٣] على مدى عشرين عاما ، هى مدة خلافته (٦٥ — ٨٦ هـ / ٦٨٥ — ٧٠٥ م) ، التى قضاها فى توطيد الأركان الداخلية لدولته ، وتثبيت دعائمها ، فعمل على القضاء على الفتن والثورات التى هددت وحدة الدولة ، فقضى على فتنة عمرو بن سعيد ابن العاص الأموى الملقب بالأشدق فى سنة (٧٠ هـ / ٦٨٩ م)[٤] ،

---

(٢) ابراهيم أحمد العدوى : الأمويون والبيزنطيون ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٣ م ، ص ٢١٢ ، وسالم عبد العزيز فرج : العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الاموية ، هيئة الكتاب ، الاسكندرية ١٩٨١ م ، ص ١١٦ .

(٣) ولد عبد الملك بن مروان بالمدينة المنورة فى سنة (٢٦ هـ / ٦٤٦ م) ، وكان أحد علماء المدينة وفقهائها ، عرف بحمامة المسجد لمداومته على قراءة القرآن بمسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وتولى الخلافة بعهد من أبيه مروان بن الحكم ومن نسله كان الخلفاء الأمويون المروانيون ، وكان عاقلا ، نابها ، مهابا ، قوى العزيمة ، ثابت النفس عند الشدائد . انظر ، ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، دار صادر ، بيروت ، ص ١٢٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، جـ ٩ ، ص ٦٧ — ٧٦ ، السيوطى : تاريخ الخلفا ، دار التراث ، بيروت ١٩٦٩ م ، ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

(٤) عمرو بن سعيد لقب بالأشدق لفصاحته ، ساند مروان بن الحكم حتى تولى الخلافة فبايعه مروان بولاية العهد بعد خالد بن يزيد بن معاوية ، فلما تولى عبد الملك الخلافة بعد أبيه رفض عمرو بن سعيد مبايعته ،

وتصدى لحركة عبد الله بن الزبير فقضى عليها فى سنة (٧٣ هـ / ٦٩٢ م)[٥] ، وقضى على الخوارج وفرق شملهم[٦] ، ونجح فى القضاء على فتنة عبد الرحمن بن الأشعث وقتله فى سنة (٨٤ هـ / ٧٠٤ م)[٧] .

=

ولكنه عاد وبايعه بعد تدخل الامويين بينهما ، ثم استولى على دمشق فى غيبة عبد الملك عنها ، فاستدرجه عبد الملك للصلح ثم غدر به وقتله بنفسه ، انظر ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت ، جـ ٥ ، ص ٢٢٧ — ٢٣٨ ، ابن حجر ، الاصابة فى تمييز الصحابة ، دار الفكر ، بيروت ١٩٨٠ م ، جـ ٤ ، ص ٣٣٧ — ٣٣٨ ، جـ ٥ ، ص ٢٩٤ ، الدينورى : الاخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦٠ م ، ص ٢٨٠ — ٢٨١ .

(٥) خرج عبد الله بن الزبير على الأمويين فى عهد يزيد بن معاوية ، وبويع بالخلافة فى مكة فى سنة (٦٢ هـ / ٦٨١ م) ودخلت الحجاز والعراق ومصر واليمن فى طاعته ، فلما تولى عبد الملك بن مروان الخلافة سار بنفسه للعراق واستولى عليها وقتل مصعب بن الزبير ، وأرسل للحجاز جيشا بقيادة الحجاج بن يوسف حاصر ابن الزبير فى مكة ، حتى قضى عليه وقتله فى سنة (٧٣ هـ / ٦٩٢ م) . انظر ، خليفة ابن خياط ، المصدر السابق ، ص ٣٤٢ ، ابن قتيبة : الامامة والسياسة ، تحقيق طه الزينى ، مؤسسة الحلبى ، القاهرة ، جـ ٢ ، ص ٢٢ — ٢٥ ، الدينورى ، المصدر السابق : ص ٢٠١ — ٢٠٤ ، ابن طباطبا : المصدر السابق ، ص ١٢٣ .

(٦) الخوارج فرقة خرجت على على بن أبى طالب عند قبوله التحكم ، ثم تعصبوا وأصبحت لهم آراء دينية متطرفة ، وقاموا بكثير من الثورات فى عهد الدولة الأموية ، واستطاعت جيوش الدولة فى عهد عبد الملك بن مروان تفريق شملهم وقتل زعمائهم ، انظر ، الشهرستانى : الملل والنحل ، تحقيق عبد العزيز الوكيل ، مؤسسة الحلبى ، القاهرة ، جـ ١ ، ص ١١٤ — ١٢٢ ، خليفة بن خياط : المصدر السابق ، ص ٣٤٧ — ٣٥٦ ، المسعودى : مروج الذهب ، دار الفكر ، بيروت ، جـ ٣ ، ص ص ١٤٦ — ١٤٧ ، الدينورى : المصدر السابق ، ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

(٧) عندما امتنع رتبيل ملك كابل عن دفع الجزية أرسل الحجاج له جيشا أحسن أعداده حتى سمى بجيش الطواويس بقيادة عبد الرحمن

=

وعندما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة كانت الدولة الأموية قد استكملت كذلك كامل تنظيماتها الاقتصادية والادارية ، ففى عهد أبيه عبد الملك بن مروان كان قد تم تعريب النقود بسكها بالسكة العربية الاسلامية ، واحلالها بالتدريج محل الدينار الذهبى البيزنطى ، والدرهم الفضى الفارسى المتعامل بهما فى الدولة ، وقد نتج عن هذا العمل الذى تم فى السنوات (٧٣ — ٧٧ هـ / ٦٩٢ — ٦٩٦ م) تحرير اقتصاد الدولة الأموية من السيطرة البيزنطية[٨] .

وقام عبد الملك بن مروان كذلك بتعريب الادارة ، وذلك باحلال اللغة العربية محل اللغات المتعامل بها فى دواوين الدولة ، فبدأ بتعريب ديوان الشام فأحل اللغة العربية محل اللغة اليونانية لغة الدولة البيزنطية فى سنة (٨١ هـ / ٧٠٠ م) ثم تلى ذلك بتعريب ديوان فارس والعراق ، فأحل اللغة العربية محل اللغة الفارسية[٩] .

=

ابن الأشعث ، ولكن ابن الأشعث أبطأ فى مهاجمة رتبيل مما كان سببا فى سوء العلاقة بينه وبين الحجاج ، فعاد ابن الاشعث العراق وأعلن الثورة على الحجاج وخلع عبد الملك بن مروان ، وتقابل مع الحجاج فى معركة دير الجماجم بظاهر الكوفة فى سنة (٨٤ هـ / ٧٠٤ م) انهزم فيها ابن الأشعث وهرب ثم قتل فيما بعد وتفرق شمله . انظر ابن قتيبة ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦ — ٤٤ ، الطبرى ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٦٦ — ٣٨٣ ، ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٤ — ٧٧ — ٨٢ .

(٨) لتفصيل موضوع تعريب العملة ، انظر ، البلاذرى : فتوح البلدان ، نشر صلاح الدين المنجد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٦ م ، ص ٥٧١ — ٥٧٨ ، البيهقى : المحاسن والمساوىء ، دار احياء العلوم ، بيروت ١٩٨٨ م ، ص ٥٢٢ — ٥٢٦ ، المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، القاهرة ١٩٤٠ ، ص ٥١ ، عبد الرحمن فهمى : موسوعة النقود العربية وعلم النميات ، القاهرة ، ١٩٦٥ م ، ج ١ ، ص ٣٨ — ٥٣ .

(٩) انظر ، البلاذرى : المصدر السابق ، ص ٢٣٠ — ٣٦٨ — ٣٦٩ ، المقريزى : المواعظ والاعتبار ، دار صادر ، بيروت ، ج ١ ، ص ٩٨ .

وسار الوليد بن عبد الملك على خطى سياسة أبيه ، فقام بتعريب الديوان فى مصر فأحل اللغة العربية محل القبطية واليونانية فى سنة (٨٧ هـ / ٧٠٥ م)[١٠] . وكان هذا العمل الذى عرف بحركة « التعريب » خطوة هامة قضت على ازدواج لغة الادارة ، مما نتج عنه استقرارها وضبط أمورها ، وكان للوليد أيضا اهتمام عظيم بالاصلاحات الاجتماعية ، والنواحى العمرانية[١١] .

أما عن الأوضاع الخارجية ، فقد نشطت الفتوحات الاسلامية فى عهد الوليد حتى وصلت الـدولة الى أقصى اتساع لها ، ففى الجبهة الشمالية الشرقية تم فتح بلاد ما وراء النهر[١٢] ، وفى الجهة الجنوبية الشرقية امتدت الفتوحات الى بلاد السند حتى وصلت الى الملتان فى جنوب البنجاب[١٣] وفى الجهة الغربية ، اكتملت فتوحات المغرب وعبرت

(١٠) الكندى : الولاة والقضاة ، تصحيح رفن كست ، مطبعـة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨ م ، ص ٥٩ ؛ المقريزى : المصـدر نفسه ، ج ١ ، ص ٩٨ .

(١١) قام الوليد بايواء مرضى الجذام والانفاق عليهم ، واعـطى كل ضرير قائدا وكل مقعد خادما ، وقام ببناء المسجد الاموى بدمشـق ، وتوسعة مسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) واعادة بنائه ، انظر ، خليفة بن خياط : المصدر السابق ، ص ٣٩٧ ، ابن طباطبا : المصـدر السابق ، ص ١٢٧ ، المسعودى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٦٦ ، السيوطى : المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

(١٢) البلاذرى : المصدر السابق ، ص ص ٥١٦ — ٥١٩ ، خليفة ابن خياط : المصدر السابق ، ٣٩٧ — ٤١٠ ، اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، دار بيروت للطباعة ١٩٨٠ م ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ — ٢٨٧ .

(١٣) البلاذرى : المصدر السابق ، ص ٥٣٤ — ٥٣٩ ، اليعقوبى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ — ٢٨٩ ، انظر :

Lan — Poole : Medieval India under Muhammedan rule, Vol, I, London 1951, pp. 3 — 5.

الجيوش الى بلاد الأندلس واستولت عليها[١٤] ، وأصبح الجزء الغربى من البحر المتوسط تحت السيطرة الاسلامية بعد مهاجمة الأسطول الاسلامى لجزره ومنها صقلية (سردانية) وكريت (اقريطش) وجزر البليار (ميورقة ومنورقه ويابسه)[١٥] .

أما الجبهة الشمالية ، فكانت تمثل الحدود المشتركة مع الدولة البيزنطية التى لم تنس للمسلمين أبدا حرمانها من أهم وأغنى أقاليمها فى الشرق حيث استولى المسلمون على الشام[١٦] ومصر[١٧] وأجبروها على الانسحاب الى آسيا الصغرى خلال حركة الفتوحات الأولى فى عهد الخلفاء الراشدين ، ومنذ ذلك الحين كانت تلك الجبهة أكثر جبهات الدولة الاسلامية اشتعالا بالحروب ، فالبيزنطيون (الروم) لم ييأسوا من استعادة الأقاليم التى فقدوها ، والمسلمون يرغبون فى تتويج فتوحاتهم باستيلاء على القسطنطينية والقضاء على الدولة البيزنطية كما استولوا من قبل على المدائن عاصمة الفرس وقضوا على الدولة الفارسية .

كانت الحدود التى تفصل بين البيزنطيين فى آسيا الصغرى

---

(١٤) البلاذرى : المصدر السابق ، ص ٢٧٢ — ٢٧٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب ، تحقيق ج. س كولان ، أ. ليفى بروفنسال ، بيروت ١٩٤٨ م ، ج ١ ، ص ٢٤ — ٢٩ ، ابن قتيبة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٨ — ٦٩ .

(١٥) البلاذرى : المصدر السابق ، ص ٢٧٩ ، ابن قتيبة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٧ — ٥٨ ، أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، الاسكندرية ١٩٦٨ م ، ص ٨ — ١١ .

Bréhier : Vie et Mort de Byzans Paris 1949, p. 71.

(١٦) عن فتوح الشام . انظر ، البلاذرى : المصدر السابق ، ص ١٢٨ — ١٨٠ .

(١٧) عن فتوح مصر ، انظر ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، تحقيق محمد صبيح ، مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر ، القاهرة ١٩٦٨ م ، ص ٤٧ — ٦٢ .

والمسلمين فى شمال الشام والجزيرة حدودا طبيعية تألفت من سلسلتى جبال طوروس ، وجبال طوروس الداخلة « أنتى طورس » (Anti — Tours) التى سميت أيضا جبل الأمانوس (Ammanus) [١٨] ، وسماها المسلمون جبل اللكام[١٩] ، وكانت هذه السلاسل الجبلية الشاهقة تمتد بطول الحدود من البحر الأبيض حتى بحر قزوين وتتخللها عدة طرق أو مسالك عرفت بالدروب[٢٠] ، وكان يوجد على طول هذه الحدود خط من الحصون والقلاع والمدن التى سميت بالثغور ، ويقول ابن منظور[٢١] فى معنى الثغور : ومفردها ثغر أو ثغرة ، وهى كل فرجة فى جبل أو بطن واد أو طريق مسلوك ، والثغر الموضع الذى يكون حدا فاصلا بين بلاد المسلمين والكفار وهو موضع المخافة من أطراف البلاد .

وانقسمت هذه الثغور الى منطقتين : احداهما تحمى الجزيرة ،

---

(١٨) كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، نقله للعربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، مطبعة الرابطة ، بغداد ١٩٥٤ م ، ص ١٦٠ ، فتحى عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ص ١٣٢ ، ١٦٢ .

(١٩) عن جبل اللكام ، انظر ، البلاذرى : المصدر السابق ، ص ١٨٩ ، ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ليدن ، بريل ١٨٨٩ م ، ص ١٧٣ ، قدامة بن جعفر : نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، ليدن ، بريل ١٨٨٩ م ، ص ٢٣٢ ، ابن حوقل : صورة الارض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٧٩ م ص ١٥٤ — ١٥٧ .

(٢٠) الدروب ، ومفرده درب ، والدرب هو الطريق الذى يسلك . انظر ، ياقوت : معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٩ م ج ٢ ، ص ٤٤٧ ، مادة (درب) وسلك المسلمون من هذه الدروب دربين أولهما : درب الحدث فى الشمال الشرقى ، ودرب الابواب القيليقية شمال طرسوس ، انظر ، لسترنج : المرجع السابق ، ص ١٦٥ — ١٦٦ .

(٢١) ابن منظور : لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة ، ج ١ ، ص ٤٨٦ ، وانظر أيضا عن تعريف الثغور ، ياقوت : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٩ .

وتسمى الثغور الحزرية ، وهى الشمالية الشرقية ، وثغورها هى ملطية وزبطرة وحصن منصور و (بهنسى) والحدث ومرعش والهارونية والكنيسة وعين زربة ، والثانية تحمى الشام وتسمى الثغور الشامية وهى الجنوبية الغربية بالقرب من الساحل الشمالى خليج اسكندرية (الأسكندرونة) ومدنها المصيصة وأذنه وطرسوس[٢٢] ، ومع أن جبل اللكام كان يفصل بين المنطقتين[٢٣] ، الا أن الحدود فى شمال الجزيرة وشمال الشام كانت وحدة تتمم بعضها البعض من حيث ارتبـــاط حصونهما وتعرضهما لاغارات البيزنطيين[٢٤] .

وقد اهتم المسلمون منذ بداية أمرهم بتحصين هذه الثغور وشحنها بالمقاتلة الذين أقاموا بها للجهاد وغزو الروم[٢٥] ، وكان من أثر ذلك أن أصبح هناك نظام لحرب الروم عرف بالصوائف والشواتى ، فكانت الصوائف ومفردها صائفة تخرج للغزو مرتين : الحملة الأولى وتعرف بالربيعية وتبدأ فى أواسط آيار (مايو) عندما تكون الخيول قد سمنت لمدة ثلاثين يوما تتابع فيها الرعى فى الأراضى البيزنطية وبعدها يرتاح المسلمون شهرا ليتابعوا الغزو بعد ذلك لمدة شهر آخر ، وبهذا يكون المجموع ستين يوما ، أما حملات الشواتى ، ومفردها شاتية فهى أقصر مدة ونطاقا وعملها محدود لبرودة الجو ، وتكون حملة واحدة تبدأ من

---

(٢٢) عن منطقتى الثغور ، انظر ، ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص ٩٧ ، ٩٩ — ١٠٠ ، قدامة بن جعفر ، المصدر السابق ، ص ٢٥٣ — ٢٥٤ ، ابن رستة : الاعلاق النفيسة ، ليدن ، بريل ١٨٩١ م ، ص ١٠٦ — ١٠٧ ، ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

(٢٣) الاصطخرى ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحينى ، وزارة الثقافة ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٤٣ ، ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

(٢٤) انظر ، فتحى عثمان : المرجع السابق ، ص ١٤٢ .

(٢٥) البلاذرى : المصدر السابق ، ص ١٥٢ — ١٧٢ .

أواخر شباط (فبراير) الى أوائل آزار (مارس)[٣٦] وقد ساعدت حملات الصوائف والشواتى المسلمين على حماية ثغورهم والدفاع عن حدودهم ، وأتاحت لهم ميدانا تدربوا فيه على الحرب مع البيزنطيين .

ومن ناحية آخرى كان للروم نظام للدفاع عن حدودهم يعرف بنظام الثغور Themes أو لبنود أو الأجناد ، كما أطلقت عليه المصادر العربية[٣٧] ، وتولى كل ثغر Theme قائد عسكرى (استراتيجوس Strategos) جمع فى يديه السلطة العسكرية بالاضافة للادارة المدنية ، وتحت يده جيش من الجند الذين منحوا القطائع لزراعتها لترغيبهم فى الاستقرار والدفاع عنها ، وقسمت منطقة آسيا الصغرى المتاخمة لحدود الدولة الاسلامية الى أربع مناطق ثغرية Themes كان لكل منها منطقة تحميها ، فثغر الأرمنياق Armeniaci وثغر الأناتوليك Anatolici يحميان الحدود الممتدة من قليقية فى الشرق الى شواطىء بحر ايجه فى الغرب وثغر الأبسيق Opsikion قرب بحر مرمرة كانت مهمته حماية القسطنطينية ، والثغر الرابع كبيريوت Cibyrraeot فى الشاطىء

---

(٢٦) ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص ٢٥٩ ، البلاذرى : المصدر السابق ، ص ١٩٤ — ١٩٥ ، ياقوت : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٨٠ .

(٢٧) يقول ياقوت عن تسمية الأجناد أن : الاجناد جمع جند ، والتجنيد التجمع ، وجندت جندا أى جمعت جمعا ، أما اسم البنود فربما جاء من الرايات والبنود التى اتخذتها الفيالق فى الاقاليم شعارا لها ، انظر : ياقوت : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣٠ ، ابراهيم أحمد العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥١ م ، ص ١٥٥ . وكانت المصادر العربية على دراية كبيرة بنظام الثغور البيزنطى وتقسيماته ومواقع هذه الثغور واعداد الجند ، انظر ، ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص ١٠٥ — ١١١ ، قدامة بن جعفر : المصدر السابق ، ٢٥٥ — ٢٥٩ ، المسعودى : التنبيه والاشراف ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ١٩٨١ م ، ص ١٦٦ — ١٦٩ ، ياقوت : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٩٨ — ٩٩ .

الجنوبى لآسيا الصغرى والجزر المجاورة ، كان يحمى حدود الدولة البيزنطية ضد الأسطول الاسلامى[٢٨] • وقد أصبح هـذا النظام الثغرى العمود الفقرى الذى ترتكز عليه الدولة البيزنطية فى الدفاع عن حدودها[٢٩] •

ومن المؤكد أن نظام الثغور البيزنطى كان عقبة فى طريق الزحف البرى لجيوش الوليد بن عبد الملك فى آسيا الصغرى ، الا أن هذه العقبة لم تصمد طويلا أمام المسلمين بسبب تدهور الأحوال الداخلية فى الدولة البيزنطية والتى كانت تسير من سىء لأسوأ فى الفترة التى عاصرت حكم الوليد بن عبد الملك ؛ فقد اعتلى عرش الدولة البيزنطية الامبراطور جستنيان الثانى المرة الثانية[٣٠] (٨٦ — ٩٣ هـ / ٧٠٥ — ٧١١ م) بعد هروبه من منفاه فى خرسون Cherson فى شبه جزيرة القرم الذى قضى فيه ما يقرب من عشر سنوات على أثر القبض عليه وجدع أنفه فى سنة (٧٦ هـ / ٦٩٥ م)[٣١] •

---

(٢٨) عن نظام الثغور البيزنطى ، انظر :

Vasiliev : History of the Byzantine Empire, 324 — 1453, Madison 1961. pp, 226 — 228; Bury, AHistory of the Later Roman Empire, London, 1889, 11, pp. 248 — 249.

(٢٩) السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٠ م ، ص ١٠٦ — ١٠٩ ، ١٤٣ ، فتحى عثمان : المرجع السابق ، ص ١٠٤ — ١١٣ ، حسنين ربيع : تاريخ الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٨٣ م ، ص ٧٤ — ٧٧ •

(٣٠) حكم جستنيان الثانى الدولة البيزنطية فى الفترة الاولى ما بين سنتى (٦٥ — ٧٦ هـ / ٦٨٥ — ٦٩٥ م) واستغرقت هذه الفترة العشر سنوات الأولى من حكم عبد الملك بن مروان الذى كانت خلافته فى الفترة (٦٥ — ٨٦ هـ / ٦٨٥ — ٧٠٥ م) • انظر : حسنين ربيع : المرجع السابق ، ص ٩٤ •

(٣١) Ostrogorsky : History of the Byzantine state, Tr. Hussey, Oxford, 1968. pp. 139 — 140; Bury : op, cit; pp. 329 — 330, Foord : the Byzantine Empire, London 1911, p. 149.

ولما كان جستنيان الثانى يتصف بالاندفاع والاستبداد ويفتقر للحرص وبعد النظر ، فقد قضى معظم الفترة الثانية من حكمه فى الانتقام من أعدائه ومعاقبة كل من أساء اليه ، فى الوقت الذى أهمل أحوال الدولة ، وهجمات العرب المتوالية على حدودها ، وظل كذلك حتى انتهى أمره بالقتل لينتهى بنهايته حكم أسرة هرقل فى سنة (٩٣ هـ / ٧١١ م)[٣٢] .

وأعقب مقتل جستنيان الثانى فترة من الفوضى وانتشار الفتن وتعاقب الأباطرة على الحكم ، حيث واكبت تلك الفترة الباقية من حكم الوليد حكم اثنين من الأباطرة ، الامبراطور الأول : فيليب (٩٣ — ٩٥ هـ / ٧١١ — ٧١٣ م) والثانى : الامبراطور أنسطسيوس الثانى (٩٥ — ٩٧ هـ / ٧١٣ — ٧١٥ م)[٣٣] .

وهكذا وجد الوليد بن عبد الملك الظروف جميعها مهيأة للبدء فى انجاز مشروعه الضخم وهو فتح القسطنطينية ، وبدراسة وتحليل الأعمال التى قام بها الوليد فى هذا المجال يتبين لنا أنه وضع لفتح القسطنطينية خطة محكمة لم تكن من وحى الارتجال وانما كانت ثمرة تفكير متأنى ، إذ قسم الوليد خطته على مرحلتين : كانت المرحلة الأولى هى الاستيلاء على الطريق البرى المؤدى الى القسطنطينية عبر آسيا الصغرى عن طريق إنفاذ حملات الصوائف والشواتى المتلاحقة التى تركز ضرباتها على هذا الطريق فقط دون تشتيت الجهد فى جهات أخرى من آسيا الصغرى .

---

(٣٢) Ostrogorsky, op. cit; pp. 116, 142 — 143; Bury, op. cit, pp. 361 — 366.

أسد رستم : الروم ، دار المكشوف ، جـ ١ ، ص ٢٧٢ .

(٣٣) Bury : op. cit, pp. 369 — 370.

وسام عبد العزيز فرج : المرجع السابق ، ص ٦٨ — ٧١ ، حسنين ربيع : المرجع السابق ، ص ١٠١ .

أما المرحلة الثانية : فتأتى بعد الانتهاء من المرحلة الأولى وهى خروج حملة برية كبرى تسير عبر الطريق الذى تم الاستيلاء عليه لمهاجمة القسطنطينية بمساعدة الأسطول الاسلامى •

ولم يتوان الوليد عن تكريس الجهود وتجميعها فى سبيل انجاح المرحلة الأولى من خطته فاهتم بحشد الجند للغزو وفرض بصورة خاصة على أهل المدينة المنورة المشاركة فى هذا الغزو ، حيث خرج من أهلها ٢٠٠٠ شخص لغزو الروم[٣٤] وليس من الصعب استقراء غرض الوليد من الاهتمام بمشاركة رجال المدينة من أبناء المهاجرين والأنصار وما فى ذلك من احياء لسنة قديمة حيث كان أهل المدينة يخرجون للمشاركة فى الفتح والجهاد وما فى ذلك من إضفاء طابع الجهاد المقدس على هذه الحرب •

وقد استدعى لتخطيط الخروج العديد من حملات الصوائف والشواتى المتلاحقة وجود عدد من القواد ، لذلك اهتم الوليد بحشد عدد من الأمراء الأمويين لقيادة هذه الحملات ، لما فى ذلك من اضفاء الأهمية على هذه الحملات من ناحية ، ولضمان الولاء والاخلاص والحماس لدى القواد من ناحية أخرى ، وفى الحقيقة كان قيام امراء البيت الأموى بقيادة الحملات الموجهة ضد البيزنطيين تقليدا بدأه الخليفة معاوية بن أبى سفيان (٤١ — ٦٠ هـ / ٦٦١ — ٦٨٠ م) عندما أخرج ابنه يزيد على رأس الحملة التى وجهها لفتح القسطنطينية فى سنة (٤٩ هـ / ٦٦٨ م)[٣٥] •

---

(٣٤) اليعقوبى : المرجع السابق ، ج ٢ ص ٢٨٤ ، ويذكر الطبرى أن عدد المشاركين من أهل المدينة فى الغزو كان ١٥٠٠ رجل ، انظر ، الطبرى : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٤٣٤ .

(٣٥) كان فى هذه الحملة عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وأبو أيوب الانصارى ، انظر ، ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ .

وتابع عبد الملك بن مروان هذا التقليد ، فأخرج ابنه الوليد لغزو الصائفة ، فى سنة (٧٧ هـ / ٦٩٦ م) وفى سنة (٧٩ هـ / ٦٩٨ م)[٣٦] ، كما أخرج ابنه عبد الله لغزو الصائفة فى سنة (٨٤ هـ / ٧٠٣ م)[٣٧] .

وسار الوليد على نفس السياسة ، فوضع على رأس قائمة القواد أخاه مسلمة بن عبد الملك[٣٨] ويشير اليعقوبى[٣٩] الى أن اختيار الوليد لمسلمة تم بعد مبايعة الوليد مباشرة فيقول أنه بعد أن ألقى الخطبة التى نعى فيها عبد الملك للناس « نزل فعقد لمسلمة أخيه على غزاة الروم فنفذ فى عدد كبير » وفى هذا ما يوضح اهتمامه بحرب الروم من ناحية واقتناعه بمقدرة وكفاءة مسلمة بن عبد الملك من ناحية أخرى وقد أثبتت الأيام بعد نظر الوليد ، فكان مسلمة من أعظم قواد المسلمين شجاعة وحنكة فى حروب الروم ، حتى سمى بناب بنى أمية[٤٠] ، وسمى أيضا بالجرادة

---

(٣٦) انظر خليفة بن خياط : المصدر السابق ، القسم الثانى ، ص ٣٥٥ ، ٣٥٩ .

(٣٧) البلاذرى : المصدر السابق ، ص ١٩٥ ، الطبرى : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٨٥ .

(٣٨) كان مسلمة بن عبد الملك من أعظم رجالات بنى أمية علما وأدبا ، وكان كريما يجزل العطاء للادباء ، متدينا ذا قوة وبأس حتى قيل عنه أنه كان أولى بالخلافة من سائر اخوته ، تولى أرمينيا وأذربيجان لاخيه الوليد ، وتولى العراق لاخيه يزيد ، وتوفى فى سنة (١٢١ هـ / ٧٣٨ م) . انظر ، الزبيرى : نسب قريش ، صححه ا. ليفى بروفنسال ، دار المعارف ، القاهرة ، ص ١٦٥ ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص ٨٩ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ، دار صادر ، بيروت ، ج ٥ ، ص ٢٢٠ ، ج ٦ ، ص ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٣٦٩ — ٣٧٠ .

(٣٩) اليعقوبى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ .

(٤٠) انظر ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية (عصر بنى أمية) ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٢ م ص ١٩٢ .

الصفراء[٤١] . وقد أتاح له الوليد باختياره قائدا لمعظم الحملات البرية على الروم فى عهده ميدانا واسعا تدرب فيه ، وصقلت موهبته حتى أضحى من أكثر القواد خبرة بحروب الروم وخفاياها ، فاختاره الخليفة سليمان بن عبد الملك لقيادة حملته الكبرى للاستيلاء على القسطنطينية فى سنة (٨٩ هـ / ٧١٦ م)[٤٢] .

وكانت الشخصية التالية التى اختارها الوليد لتتقاسم القيادة مع مسلمة هو ابنه العباس بن الوليد ، والعباس أكبر أبناء الوليد وبه يكنى[٤٣] ، وكان العباس شجاعا حتى لقب بفارس بنى مروان ، وكانت أم العباس أم ولد رومية[٤٤] ، وربما كان العباس يتقن لسان قومها مما أفاده فى حروب الروم ، وقد عمل العباس بن الوليد مع مسلمة بن عبد الملك فى تفاهم كامل مما نتج عنه تحقيق النصر فى كثير من المعارك التى خاضاها معا ، وقد عرف عنهما هذا التفاهم فنجد أن الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥ هـ / ٧٢٠ — ٧٢٤ م)

---

(٤١) الزبيرى : المصدر السابق ، ص ١٦٥ ، ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٣٦٩ ، ويبدو أن هذه التسمية جاءت من اصراره وصبره فى الحروب على ابادة أعدائه .

(٤٢) عن هذه الحملة ، انظر ، الطبرى : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٥٣٠ — ٥٣١ ، ٥٥٣ ، ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٤٦ — ١٤٧ ، ١٥٤ ، ابراهيم العدوى : الامويون والبيزنطيون ، ص ٢١٦ — ٢٢٣ .

(٤٣) الزبيرى : المصدر السابق ، ص ١٦٥ .

(٤٤) الزركلى : الاعلام ، ج ٣ ، ص ٢٦٨ . وانظر :

The Encycolopaedia of Islam new edition, London, 1960, (Art Al Abbas. B. AL—Walid) pp 12—13.

وتوفى العباس فى سنة (١٣٢ هـ / ٧٥٠ م) حيث كان الخليفة مروان بن محمد قد قبض عليه وسجنه ، انظر :

Ency, Ibid, p. 13.

فيما بعد ينتدبهما معا للقضاء على فتنة يزيد بن المهلب فى العراق فى سنة (١٠٢ هـ / ٧٢٠ م)[٤٥] .

كذلك أشرك الوليد عددا من أبنائه[٤٦] فى القيادة كان منهم عمر ومروان وعبد العزيز وبشر[٤٧] وتشير بعض المصادر لمشاركة هشام ابن عبد الملك فى القيادة أيضا[٤٨] ، ولم يشارك فى تلك الفتوحات من غير الأمويين الا قائدين هما الوليد بن هشام المعيطى ويزيد بن أبى كبشة[٤٩] .

وكان على الوليد بن عبد الملك فى بداية تلك المرحلة مواجهة مشكلة حربية استراتيجية ورثها عن أبيه عبد الملك بن مروان وهى مشكلة الجراجمة ، وينتسب الجراجمة الى بلدتهم الجرجومة التى تقع فى جبل اللكام[٥٠] ، وأطلق عليهم المسلمون أيضا المردة لكثرة عصيانهم

---

(٤٥) تولى يزيد بن المهلب خرسان فى (سنة ٩٧ هـ / ٧١٥ م) فى عهد سليمان بن عبد الملك ولما فتح طبرستان استولى على أموالها فسجنه الخليفة عمر بن عبد العزيز ، ولكنه استطاع الهرب من سجنه وأعلن الثورة فى عهد يزيد بن عبد الملك فحاربته جيوش الامويين وانتصرت عليه ، انظر ، ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٤٧ ، ١٧٦ ، ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٦، ص ٢٦٨ — ٣٠٩ .

(٤٦) عن أبناء الوليد ، انظر ، الزبيرى : المصدر السابق ، ص ١٦٥ ، ابن حزم : المصدر السابق ، ص ٨٩ .

(٤٧) خليفة بن خياط : المصدر السابق ، ص ٤١٨ ، الطبرى : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٤٤٥ ، ٤٦٨ ، ٤٩٥ .

(٤٨) الطبرى : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٤٢٩ ، ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٠٧ .

(٤٩) الطبرى : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٤٨٣ ، ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٣١ ، ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧١ .

(٥٠) تذكر المصادر : أن الجرجومة مدينة على جبل اللكام عند معدن الزاج فيما بين بياس وبوقا . انظر ، البلاذرى : المصدر السابق ، ص ١٨٩ ، ياقوت : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

وتمردهم ، وكانوا يدينون بالمسيحية ، وقد لعب هؤلاء الجراجمة دورا هاما فى الحروب التى دارت بين المسلمين والبيزنطيين فى شمال الشام فكانوا يستغلون موقع بلدتهم فى أعالى الجبال ويوقعون بجيوش المسلمين أثناء خروجها لغزو الروم ، وحاول المسلمون مهادنة هؤلاء الجراجمة بمصالحتهم واعفائهم من دفع الجزية ولكن دون جدوى فكانوا كما يقول البلاذرى[٥١] : « يستقيمون للولاة مرة ويعوجون أخرى فيكاتبون الروم ويمالئونهم » واستطاعوا تكوين « ستارا حديديا » حمى أراضى البيزنطيين فى آسيا الصغرى وعرقل الهجوم الاسلامى عليها[٥٢] .

وحاول عبد الملك بن مروان حل مشكلة الجراجمة فعمل على عقد معاهدة مع الامبراطور البيزنطى جستنيان الثانى فى سنة (٧٠ هـ / ٦٨٩ م) تعهد فيها بدفع أتاوة كبيرة للامبراطور البيزنطى[٥٣] فى مقابل أن يقوم الامبراطور بارغام الجراجمة أو المردة على الانتقال والاستقرار فى الاقاليم الداخلية للدولة البيزنطية ، وبذلك استطاع عبد الملك بن مروان أن يتخلص من هذا الحائط النحاسى أو الحديدى مما سهل أمام جيشه مهاجمة الروم فى آسيا الصغرى فى الفترة الاخيرة من خلافته[٥٤] .

---

(٥١) البلاذرى : المصدر السابق ، ص ١٨٩ .

(٥٢) . Bury; op. cit, p. 317;

انظر ، حسنين ربيع : المرجع السابق ، ص ٩٦ .

(٥٣) يذكر الطبرى أن هذه الاتاوة كانت « فى كل جمعة ألف دينار » . انظر ، الطبرى : المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ١٥٠ .

(٥٤) Bury; op. cit,. pp. 317—321

عن هذه المعاهدة انظر ، أسد رستم : المرجع السابق ، جـ١ ص ٢٦٤ — ٢٦٥ ، ابراهيم العدوى : الامويون والبيزنطيون ، ص ١١٦ — ١٢٠ ، وسام عبد العزيز فرج : المرجع السابق ، ص ٤٢ — ٤٥ ، حسنين ربيع ، المرجع السابق ، ص ٩٤ — ٩٦ .

ويبدو أن القضاء على خطر الجراجمة لم يكن نهائيا فتشير المصادر الى أن هذا الخطر عاد للظهور مرة أخرى فى أواخر عهد عبد الملك مما جعل الوليد يهتم بالقضاء على ذيول تلك المشكلة قبل أن يبدأ فى ارسال حملاته البرية فيذكر اليعقوبى[٥٥] أن أول عمل أقدم عليه الوليد بن عبد الملك بعد مبابعته بالخلافة هو عقدة لمسلمة على غزو الروم « فنفذ فى عدد كبير فوجد جراجمة انطاكية[٥٦] قد خالفوا ، فقتل منهم مقتلة عظيمة » .

ولما كانت انطاكية هى مكان المخافة لمهاجمة الجراجمة الدائمة لها والتعرض لجيوش المسلمين عندها فقد أحضر قوما من الزط[٥٧] ممن أرسلهم محمد بن القاسم الثقفى أثناء غزوه لبلاد السند الى الحجاج بن يوسف عامل الوليد على العراق وأسكنهم أنطاكية ليكونوا عونا للمسلمين فى القضاء على خطر الجراجمة[٥٨] ، كما عمل على تسكين جماعة من الجند واستقرارهم بانطاكية فمنحهم « أرض سلوقية عند الساحل ، وصير الفلثر ، وهو الجريب بدينار ومدى قمح فعمروها وجرى ذلك لهم وبنى حصن سلوقية »[٥٩] ، ولم يتوان الوليد عن

---

(٥٥) اليعقوبى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ .

(٥٦) انطاكية : مدينة حصينة بينها وبين حلب يوم وليلة ، وبينها وبين البحر فرسخين وبينها وبين القسطنطينية ثمانية أيام بالبر . انظر ، ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٨٣ ، ياقوت : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٦ — ٢٧٠ .

(٥٧) الزط : جبل أسود من السند تنسب اليهم الثياب الزطية وقيل الزط أعراب جت بالهندية وهم جيل من الهند ، انظر ، ابن منظور : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٨٢٠ .

(٥٨) البلاذرى : المصدر السابق ، ص ١٩٢ .

(٥٩) البلاذرى : نفسه ، ص ١٧٥ . والجريب هو وحدة قياس مساحة الارض الزراعية فى العهد الاسلامى وقد ثبت أن مقداره بالنسبة الى الفدان المصرى هى ١ : ٣٫٠٧ تقريبا اى أن كل فدان مصرى يساوى ثلاثة أجربة وكسر قليل هو $\frac{٧}{١٠٠}$ من الجريب . انظر ضياء الدين الريس : الخراج ، ص ٢٨٢ ، ٣٠٠ .

ارسال الجيوش لمهاجمة الجراجمة طوال عهده فيشير البلاذرى[٦٠] الى اشتباك آخر بين جيوش المسلمين وبين الجراجمة فى سنة (٨٩ هـ / ٧٠٧ م) انتهى بانتصار المسلمين وتفريق شمل الجراجمة[٦١] .

ويشير البلاذرى[٦٢] الى خطوة أخرى أقدم عليها الوليد لتأمين الطريق بين ثغرى أنطاكية والمصيصة[٦٣] التى تقع على بداية الطريق البرى المؤدى للقسطنطينية ، فقد كانت الطريق بين أنطاكية والمصيصة « مسبعة يعترض الناس فيها الاسد » فوجه الوليد الى هذه الطريق أربعة آلاف جاموسة للقضاء على خطر السباع بها .

كان هدف الحملات البرية التى أرسلها الوليد هو الاستيلاء على الطريق البرى الواصل الى القسطنطينية عبر آسيا الصغرى — كما ذكرنا — ولم يكن الاستيلاء على هذا الطريق بالأمر السهل ، حيث يبلغ طوله من نقطة بدايته من طرسوس[٦٤] فى شمال الشام وحتى نهايته على خليج البسفور الذى تقع عليه القسطنطينية نيفا وأربعمائة وخمسين ميلا ، وكان هذا الطريق هو الطريق الذى يسلكه عمال

---

(٦٠) البلاذرى : المصدر السابق ، ص ١٩٠ — ١٩١ .

(٦١) Chêira : La Lutte entre Arabes et Byzantins. Alexandrie, 1947, p. 173—174 .

(٦٢) البلاذرى : المصدر السابق ، ص ١٩٨ .

(٦٣) المصيصة : مدينة على شاطىء نهر جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرطوس ، فتحها عبد الله بن عبد الملك فى سنة (٨٤ هـ / ٧٠٣ م) وبنى حصنها وشحنه بالجند . انظر ، البلازرى : المصدر السابق ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٦٧ — ١٦٨ ، ياقوت : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٤٤ — ١٤٥ .

(٦٤) طرسوس : من أجل الثغور الشامية وهى تشرف على المدخل الجنوبى لدرب الأبواب القيليقية المسمى بدرب السلامة ، يقصدها المرابطون من جميع انحاء الدولة الاسلامية لأهميتها . انظر ، ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٦٨ ، الاصطخرى : المصدر السابق ، ص ٤٧ ، ياقوت : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٨ — ٢٩ .

البريد ، ويمر منه وفود قيصر والخليفة ، كم أنه الطريق الذى تسير فيه الحملات سواء من بلاد المسلمين أو بلاد الروم[٦٥] وقد عنى ابن خرداذبة[٦٦] بوصف هذا الطريق ووصف محطاته ، والمـدن الواقعة عليه .

وكان المسلمون يسيطرون على بداية هذا الطريق بسيطرتهم على طرسوس التى تشرف على المدخل الجنوبى لدرب الأبواب القيليقية (Cilica) المؤدى الى بلاد الروم[٦٧] وكان القسم الجنـوبى من هذا الدرب يعرف بدرب السلامة[٦٨] .

وكانت الخطة التى وضعت للاستيلاء على بقية هذا الطـريق هى الاستيلاء على الاستحكامات الحربية من المدن والحصون المطلة عليه بالاستيلاء أولا على أقرب موقع لبلاد المسلمين ثم اتخاذه نقطة انطلاق للاستيلاء على الموقع الذى يليه فاذا تقاربت عدة حصـون صغيرة ، كان الجيش ينقسم الى مجموعتين أو أكثر لكل منها قائد للاستيلاء عليها فى آن واحد .

كانت المدينة الأولى التى استهل المسلمون حملاتهم للاستيلاء عليها هى طوانة (Tayana) وكانت تقع فى النهاية الشمالية لدرب الأبواب القيليقية وهى بهذا تعد مفتاح الطريق القسطنطينية[٦٩] وكانت

---

(٦٥) لسترنج : المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

(٦٦) ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص ٩٩ — ١٣٠ ، وحاول لسترنج تحقيق المواقع التى ذكرها ابن خرداذبة . انظر ، لسترنج : المرجع السابق ، ص ١٦٦ — ١٦٧ .

(٦٧) لسترنج ، المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

(٦٨) ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص ١١٠ .

(٦٩) عن موقع طوانة — انظر ، ياقوت : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٤٥ ، لسترنج : المرجع السابق ، ص ١٧١ ، فتحى عثمان : المرجع السابق ، ص ٢٥١ .

من أهم وأحصن مدن اقليم قبادوقية (Cappadocia) [٧٠] .

ووصلت الجيوش الاسلامية الى أسوار طوانة بقيادة كل من مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد[٧١] فى سنة (٨٦ هـ / ٧٠٥ م) فى عدد كبير من الجند لمحاصرتها ، واستماتت البيزنطيون فى الدفاع عنها ، وأصر المسلمون على مواصلة الحصار فتذكر المصادر[٧٢] أن المسلمين خرجوا الى طوانة فى الصائفة واستمروا فى حصارهم لها حتى شتوا بها وكان الحصار شديدا فعمل كل من المسلمين والبيزنطيين على ارسال الامدادات لجيوشهما فيذكر ابن الأثير[٧٣] أن الوليد أمر بتجنيد عدد من أهل الشام وجهزهم وأعظم جهازهم ثم تظاهر بارسال هذا الجيش الى ارمينيا حتى لا تصل أخباره للروم ، وفعلا خرج الجيش الى الجزيرة حيث الطريق لغزو ارمينيا ثم عطف منها لبلاد الروم فى حين أرسل جستنيان الثانى عددا كبيرا من الجند النظامى وولى عليهم قائدين وصحبهم عدد آخر من الجند غير النظامى ، لانقاذ طوانة وتخفيف شدة الحصار عليها ، ولكن جيش المسلمين قضى على هذه الامدادات التى وصلت على ما قيل لخمسين ألفا من الجند[٧٤] .

---

(٧٠) Ostrogorsky; op, cit., p. 143

ابراهيم العدوى : المرجع السابق ، ص ٢١٢ ، سيدة كاشف : الوليد بن عبد الملك ، سلسلة أعلام العرب ، ج ١٧ ، ص ١٦٥ .

(٧١) Cheira, op, cit, p. 172—173.

(٧٢) خليفة بن خياط : المرجع السابق ، ص ٣٩٩ ، الطبرى : المرجع السابق ، ج ٦ ص ٤٣٤ .

(٧٣) ابن الاثير : المرجع السابق ، ج ٤ ص ١٠٨ .

(٧٤) خليفة بن خياط ، المرجع السابق ، ص ٣٩٩ ، مجهول : العيون والحدائق فى أخبار الحقائق ، ليدن ١٨٧١ م ، ج ٣ ، ص ٢ ، السيد الباز العرينى : المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

تصف المصادر[٧٥] المعركة الفاصلة فتذكر أن المسلمين هاجموا الحامية البيزنطية وهزموا جندها حتى اضطر هؤلاء الجند للاحتماء بكنيسة المدينة ، ولكن الروم عادوا لمهاجمة المسلمين بعنف حتى فــر المسلمون أمامهم ، ولكن العباس بن الوليد صمد فى القتال وعمل على تجميع الجند الفارين وبث الحماس فى نفوسهم بمناداتهم بقوله : « يا أهل القــرآن » ، وكان لهذا النداء مفعوله ، فتجمع المسلمون مرة أخرى ، وأثخنوا البيزنطيين حتى لم يجد هؤلاء مفرا من تسليم المدينة فدخلها المسلمون فى سنة (٨٨ هـ / ٧٠٧ م) بعد حصــارهم لها الذى استمر عامين .

وبسقوط مدينة طوانة أصبح المسلمون يتحكمون فى أهم معاقل قبادوقية بآسيا الصغرى ، وأكد أصرار المسلمين على حصار طوانة الذى استمر لمدة عامين أن هدف المسلمين لم يكن مجرد الاغــارة السريعة والعودة الى حصونهم ، ولكن هدفهم كان الاستيلاء على خط سير الجيوش الى القسطنطينية لتأمين زحفهم التالى[٧٦] .

لم تشر المصادر لوجود مسلمة بن عبد الملك خلال المعركة الفاصلة التى استولى المسلمون بعدها على طوانة فى حين أشارت الى ما قام به العباس بن الوليد من دور فى تثبيت جند المسلمين ، ومن المرجح أن مسلمة ترك حصار المدينة تحت قيادة العباس بن الوليد عندما طال وانطلق لمهاجمة حصون أخرى فى سنة (٨٧ هـ / ٧٠٥ م) ، وفى طريقه

---

(٧٥) الطبرى : المرجع السابق ج ٦ ص ٤٣٤ ، ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٠٩ ، النويرى : المرجع السابق ج ١١ ص ٢١١ .
Ostrogorsky; op, cit., 143.

وتذكر المصادر البيزنطية تاريخا مختلفا للاستيلاء على طوانة ، فتذكر أنه تم بعد سنة (٨٨ هـ / ٧٠٧ م) حيث كانت هذه السنة بداية الحصار .
انظــر : Ency, op, cit., 12—13.

(٧٦) Burry; op. cit,. p. 326.

وسام عبد العزيز فرج : المرجع السابق ، ص ١١٥ .

بالقرب من طوانة اشتبك بالجراجمة ، فيقول الطبرى[٧٧] : « لاقى مسلمة ميمونا الجرجمانى ، ومع مسلمة نحو من ألف مقاتل من أهل أنطاكية عند طوانة ، فقتل منهم بشرا كثيرا ثم تقدم للاستيلاء على عدد من الحصون وتجدر الاشارة هنا الى أن المصادر الاسلامية لا تتفق فى ذكرها لأسماء بعض الحصون والمدن التى هاجمها المسلمون فى عهد الوليد بن عبد الملك ، كما انها لا تتفق فى تواريخ فتح هذه الحصون ، ويبدو أن السبب فى ذلك أن بعض تلك المواقع كان يتكرر فتحها أكثر من مرة ، كما أن هناك بعض أسماء لمواقع يصعب تعيينها ، اما لغموض ما ذكروه عنها أو للبس فى الأسماء لديهم[٧٨] وقد أدرك ياقوت[٧٩] ذلك الأمر فاعتذر عنه وطلب ممن يستطيع تصحيح هذه الأخطاء أن يقوم بها .

فيقول خليفة بن خياط[٨٠] أن مسلمة فتح حصنا يسمى فيعم وبحيرة الفرسان حتى بلغ عسكره قلوذيمانلس . وجميعها أسماء لأماكن غير معروفة . ويقول : ابن خلدون[٨١] أن مسلمة غزا الروم وفتح حصونا كثيرة ومنها حصن بولق والأحزم وبولس ، الا أن ابن الأثير[٨٢] يذكر أن خروج مسلمة لفتح بعض الحصون كان سنة (٨٨ هـ / ٧٠٦ م) أى فى نفس العام الذى استسلمت فيه طوانة ، ويذكر أن الحصون التى استولى عليها كانت قسطنطينة وغزالة والأخرم ، أما اليعقوبى[٨٣] فيذكر أن مسلمة استولى فى نفس العام على حصن جرثومة وسورية (وهى غير سورية بالشام) .

---

(٧٧) الطبرى : المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٤٢٩ .
(٧٨) لسترنج : المرجع السابق ، ص ١٧١ .
(٧٩) ياقوت : المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٩٨ — ٩٩ .
(٨٠) خليفة بن خياط : المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٣٩٧ .
(٨١) ابن خلدون : المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٧٠ .
(٨٢) ابن الاثير : المصدر السابق ، جـ ٤ ص ١١٠ .
(٨٣) اليعقوبى : لمصدر السابق جـ ٢ ، ص ٢٩٢ .

اتخذ المسلمون من مدينة طوانة بعد الاستيلاء عليها نقطة انطلاق لشن هجمات أخرى داخل أراضى الدولة البيزنطية فتشير المصادر الى أن العباس بن الوليد ومسلمة بن عبد الملك افترقا فى عام (٨٩ هـ / ٧٠٧ م) فخرج كل منهما للفتح فقصد مسلمة عموريه (Amorion) وعمورية يذكرها ابن خرداذبة[٨٤] كاحدى المواقع الحصينة على طريق القسطنطينية • ووصفت بانها امنع وأحصن بلاد الروم وهى عين النصرانية وهى عندهم أشرف من القسطنطينية[٨٥] ، والتقى مسلمة عندها بجمع كبير من الروم فهزمهم وفتحها[٨٦] •

وبعد أن تم له فتح عمورية زحف على هرقلة (Heraclia) وأفتتحها[٨٧] ، كانت هرقلة احدى المدن الحصينة الواقعة على طريق القسطنطينية[٨٨] ثم واصل زحفه ففتح حصن قمودية أو نيقوميدية (Nicomedia)[٨٩] ثم استولى على حصون سورية[٩٠] •

---

(٨٤) ابن خرداذبة : المصدر السابق ص ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٣ •

(٨٥) ابن الاثير : المصدر السابق ج ٥ ، ص ٢٤٧ •

(٨٦) الطبرى : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٤٣٩ ، ابن الاثير : المصدر السابق ج ٣ ص ١١٠ ، النويرى : المصدر السابق ٨ ج ٢١ ص ٣١٢ •

(٨٧) ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٤ ص ١١٠ ، ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٧١ •

(٨٨) ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٣ ، ياقوت : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٩٨ ، لسترنج : المصدر السابق ، ص ١٦٦ ، فتحى عثمان ، المصدر السابق ، ص ٢٠٣ •

(٨٩) الطبرى : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٤٣٩ • ويذكرها ابن الاثير باسم (قمونية) انظر ، ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٤ ص ١١٠ ، لسترنج : المرجع السابق ، ص ١٦٨ •

(٩٠) النويرى : المصدر السابق ، ج ٢١ ص ٣١٢ ، ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٧١ •

أما العباس بن الوليد فقد غزا أذرولية أو درولية دوريليـوم (Dorylaeum) [٩١] وهى مدينة حصينة على طريق القسطنطينية وتوصف بانها « مجمع العساكر للعرب والروم »[٩٢] ، وبعد أن استولى عليها ثحف للاستيلاء على البدندون أو البذندون (Podandos) [٩٣] ، وكانت البدندون ذات موقع حصين على طريق القسطنطينية[٩٤] ، فقد كان الطريق الشمالى المؤدى الى طوانة والطريق الغربى المؤدى الى هرقلة يلتقيان قرب قلعة حصينة تقع على قمة السفوح الجنوبية لجبال طوروس فى سهل قبادوقية وهى قلعة اللؤلؤة (Iulon) ثم ينحنى الطريق شرقا فى أول الأمر ثم يتجه جنوبا حيث يطل على وادى البدندون البيضاوى الشكل ، ثم يصعد المر من البدندون عبر وهاد ضيقة شديدة الانحدار حتى نهايتـه[٩٥] ، وكان الاستيلاء علـى البدندون يعد نصرا كبيرا للمسلمين حيث ساعدت على تأمين جزء هام من طريق القسطنطينية .

ظلت الصوائف والشواتى تتوالى سنويا على بلاد الروم بآسيا الصغرى محققة انتصارات متلاحقة بالاستيلاء على العديد من المواقع والحصون ففتح مسلمة خمسة حصون بسورية سنة (٩٠هـ/٧٠٨م)[٩٦]

---

(٩١) ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٤ ص ١١٠ ، ياقوت : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٥٣ .

(٩٢) ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص ١١٣ .

(٩٣) ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٤ ص ١١٠ .

(٩٤) ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١١٠ ، ياقوت : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٢ .

(٩٥) ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص ١٠٠ ، ١١٠ ، فتحى عثمان ، المصدر السابق ، ص ٢٦٢ .

(٩٦) خليفة بن خياط : المصدر السابق ، ص ٤٠٢ ، الطبرى : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٤٤٢ ، ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٩ ص ٨٥ .

وفى سنة (٩١ هـ / ٧٠٩ م) شارك فى قيادة حملات الصوائف والشواتى عبد العزيز ومروان وعمر أبناء الوليد مما نتج عنه فتح عدة حصون كان منها حصن خنجرة[٩٧] ، وحصن سوسنة أو سيسية ، وكانت حصنا بين طرسوس وأنطاكية ازاء عين زربى ، ويبدو أن الهجوم على سوسنة كان شديدا حتى أن أهلها جلوا عنها الى بلاد الروم ، وتركوها للمسلمين[٩٨] .

وفى سنة (٩٣ هـ / ٧١١ م) شارك قائدان من غير البيت الأموى فى الغزو فاستولى الوليد بن هشام المعيطى على مروج الحمام ، واستولى يزيد بن أبى كبشة على أرض سورية[٩٩] ، أما العباس ابن الوليد ففتح سبسطية (Sebastopolis) [١٠٠] ثم اشترك مع مروان ابن الوليد فى فتح حصن أماسية (Amasee) ، وحصن الحديد[١٠١] .

توالت الفتوحات على أيدى القواد من أبناء الوليد ، وأشارت المصادر الى كثير من المواقع والحصون التى نجح المسلمون فى الاستيلاء عليها — وان تعذر تحديد مواقع بعضها — الا أن اشارة المصادر الى هذا الحشد من الأماكن التى فتحت ينم عن اصرار

---

(٩٧) خنجرة : من نواحى أرض الروم ، انظر ، ياقوت : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٣٩٢ .

(٩٨) الطبرى : المصدر السابق ، جـ ٦ ص ٤٦٨ ، ابن الاثير : المصدر السابق ، جـ ٤ ص ١١٩ ، لخيفة ابن خياط : المصدر السابق ، ص ٤٠٦ ، ياقوت : المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٢٩٧ — ٢٩٨ ، كانت سيسية تبعد ٦٠ ميلا عن أدنة والمصيصة . انظر ، فتحى عثمان ، المرجع السابق ، ص ٢٨٤ .

(٩٩) ابن خلدون : المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٧١ .

(١٠٠) الطبرى : المصدر السابق ، جـ ٦ ص ٤٦٩ ، ابن الاثير : المصدر السابق ، جـ ٤ ص ١٢٩ .

(١٠١) اليعقوبى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٢٩٢ ، ابن كثير : المصدر السابق ، جـ ٩ ص ٩٣ .

Brehier; op, cit, p. 71

المسلمين وصبرهم فى الاستيلاء على بقية المعاقل الواقعة على الطريق المؤدى للقسطنطينية فى السنوات التالية من حكم الوليد .

ففى سنة (٩٤ هـ / ٧١٢ م) فتح العباس بن الوليد حصن انطاكية[١٠٢] وهى انطاكية بسيدية (Antioch Pisidia) وهى غير انطاكية الشام[١٠٣] وافتتح العباس بن الوليد حصن سندره[١٠٤] ، وفى سنة (٩٥ هـ / ٧١٣ م) فتح العباس حصن طولس والمرزبانين[١٠٥] ، وقام أحد القواد ويسمى الوضاحى بغزو الروم ، ويبدو أنه توغل فى غزوه الى داخل آسيا الصغرى فقتل هو ورجاله الذين بلغوا ألفى رجل[١٠٦] ، وفى سنة (٩٦ هـ / ٧١٤ م) غزا بشر بن الوليد الشاتية فقفل وقدمات الوليد[١٠٧] .

وهكذا حققت المرحلة الأولى من خطة الوليد الهدف الذى وضعت من أجله وهو كسر استحكامات الدفاع على طول الطريق المؤدى الى القسطنطينية عن طريق تلك الحملات البرية المتلاحقة .

وكان الوليد بن عبد الملك قد بدأ فى الاعداد للمرحلة الثانية من خطته لغزو القسطنطينية قبل الانتهاء من حملاته البرية تماما ، وفى هذا الدور كان لابد من مساندة الاسطول الاسلامى للزحف البرى وكان الوليد قد كرس كل الجهود للاهتمام بالاسطول البحرى فى مصر

---

(١٠٢) خليفة بن خياط : المصدر السابق ، ص ٤٠٨ ، ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٤ ص ١٣١ .

(١٠٣) فتحى عثمان : المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .
Brehier : Ibid, p. 71.

(١٠٤) خليفة بن خياط : المصدر السابق ، ص ٤٠٨ .

(١٠٥) الطبرى : المصدر السابق ، ج٦ ص ٤٩٢ .

(١٠٦) ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٤ ص ١٣٥ .

(١٠٧) اليعقوبى : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٩٢ ، الطبرى : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٤٩٥ .

والشام منذ بداية عهده ، وفى تلك المرحلة زادت دور صناعة السفن من طاقتها لصناعة واعداد السفن الحربية ، فى حين بدأت القوات البرية تتجمع لتتخذ مراكزها فى شمال الشام[١٠٨] .

ووصلت أخبار تلك الاستعدادات الضخمة لأسماع الامبراطور البيزنطى أنسطسيوس الثانى (٩٤ — ٩٦ هـ / ٧١٣ — ٧١٥ م) ، فبدأ فى توجيه اهتمامه لتقوية الجبهةالبيزنطية فى آسيا الصغرى فعين على ثغر (Theme) الأناتوليك قائدا من أكفأ القواد يدعى ليو (Ieo) [١٠٩] ، وفى الوقت ذاته أرسل سفاره الى دمشق فى سنة (٩٥ هـ / ٧١٤ م) واختار لرئاسة هذه السفارة دانيال Daniel حاكم مدينة سينوب Sinop ، وكان رجلا حصيفا موثوقا به ، وكان ظاهر الأمر أن السفارة أرسلت لدمشق لتتباحث مع الأمويين فى عقد معاهدة سلام بين الطرفين ولكن فى الحقيقة كان الهدف من هذه السفارة هو التأكد مما وصل للبيزنطيين من شائعات حول الاستعدادات التى تجرى لغزو القسطنطينية[١١٠] .

وعادت السفارة الى القسطنطينية تؤكد أخبار الاعداد لحملة كبرى ، وتصف الاستعدادات الضخمة لها ، فبدأ الامبراطور البيزنطى أنسطسيوس من فوره اعداد القسطنطينية لحصار طويل وأصدر قراراته بأن يقوم كل فرد من سكان العاصمة بتخزين ما يكفيه من مؤن لمدة ثلاث سنوات ، وأن يخرج من المدينة كل فقير لا يستطيع ذلك ، وقام هو بملء الخزائن الامبراطورية بكميات هائلة من القمح

---

(١٠٨) احمد مختار العبادى ، والسيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٣٤ ، سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ١٥٩ — ١٦٠ .

(١٠٩) Foord, op, cit., p 157.

(١١٠) Bury : op. cit,. 371.

ابراهيم العدوى : الامويون والبيزنطيون ، ص ٢١٥ .

والمؤن الأخرى ، واهتم بتحصين القسطنطينية فجدد أسوارها ، وخاصة ما كان منها مطلا على المياه ، وشحنها بآلات الحرب[١١١] .

وعلى الرغم مما قام به الامبراطور انسطسيوس من أعمال جادة فى سبيل المحافظة على القسطنطينية الا أن الجند أشعلوا ثورة ضده وأطاحوا به ، ونصبوا بدلا منه الامبراطور ثيودوسيوس الثالث (٩٦ — ٩٩ هـ / ٧١٥ — ٧١٧ م)[١١٢] وخلال تلك الفترة توفى الوليد بن عبد الملك ، وتولى الخلافة بعده أخوه سليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩ هـ / ٧١٥ — ٨١٧ م) الذى لم يتخل عن هذا المشروع العظيم فكرس طوال مدة خلافته من أجل تحقيق الحلم الذى عمل الوليد من أجله ، فأكمل استعدادات تلك الحملة بحماس شديد حيث تحركت نحو القسطنطينية فى سنة (٩٨ هـ / ٧١٧ م) تحت قيادة مسلمة بن عبد الملك[١١٣] الذى أصبح على درجة عالية من الكفاءة الحربية والخبرة بحروب الروم ، وكان للحملات البرية على آسيا الصغرى التى قادها طوال عصر الوليد أثرها على صقل موهبته واكتسابه هذه الخبرة الحربية العظيمة .

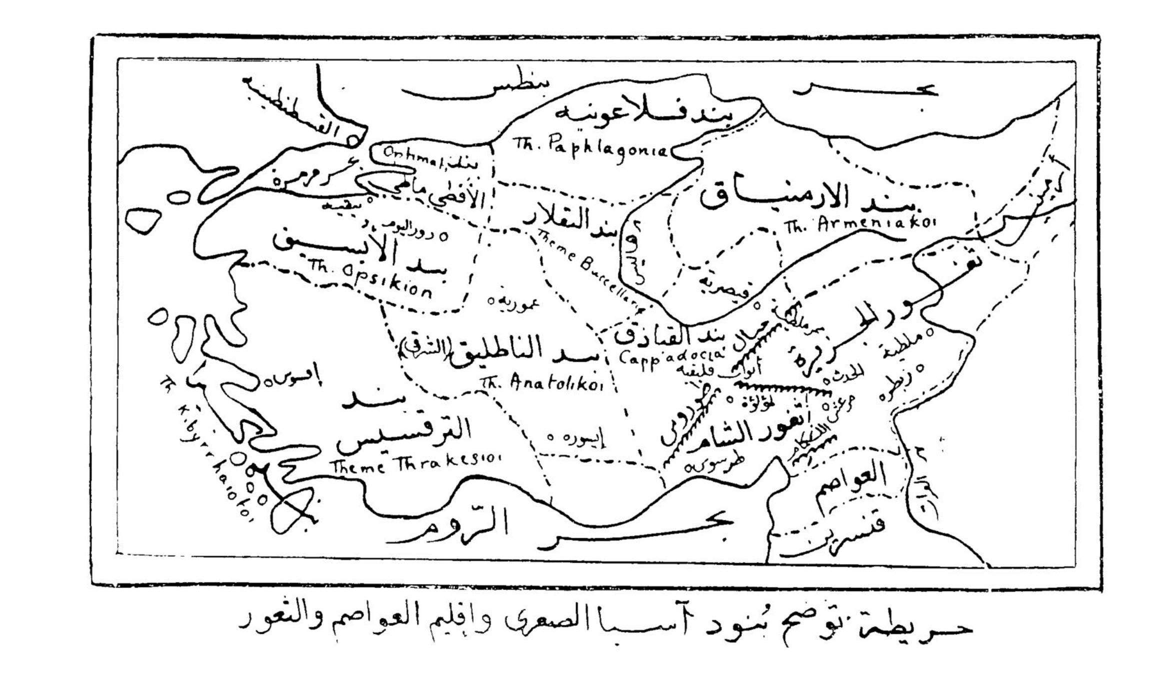
* * *

(١١١) Bury : op. cit,. 361. ; Brehier, cit, p 71.
السيد الباز العرينى : المرجع السابق ، ص ١٦٣ .

(١١٢) Foord, op, cit., p 157. Brehier, op, cit, p 71.
السيد الباز العرينى : المرجع السابق ، ص ١٦٣ .

(١١٣) عن تلك الحملة انظر ، الطبرى : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٥٣٠ — ٥٣١ ، ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٤٦ — ١٤٧ ، مجهول : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣٤ ، ابراهيم العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، ص ٥٩ — ٦٠ .

وبعد هذا العرض الموجز الذى ألقى الضوء على حلقة من حلقات الصراع بين المسلمين والبيزنطيين طوال عشر سنوات استغرقت عهد الوليد بن عبد الملك كله يتضح لنا أن الفرصة كانت متاحة أمام الوليد ابن عبد الملك للاعداد لغزو القسطنطينية وتحقيق حلم المسلمين بفتحها ، وكانت هذه الفرصة نتاج الظروف الداخلية والخارجية التى أحاطت بدولته وبالدولة البيزنطية فى آن واحد ، وجاء نجاح الحملات البرية فى كسر استحكامات البيزنطيين على طول الطريق المؤدى للقسطنطينية عاملا هاما ساعد على المضى فى الاعـداد للحملة الكبـرى لفتـح القسطنطينية واذا كان الوليد بن عبد الملك قد توفى قبل خروج تلك الحملة الا أن الجهود التى بذلها أفادت سليمان بن عبد الملك فى المضى فى محاولة اتمام هذا الفتح .



حـريطة توضح بنود آسـيا الصغرى واقليم العواصم والثغور

عن كتاب د . ابراهيم العدوى ، الأمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ،

مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥١م .

نجـــــــران
ودورها الســـــياسى والاقتصـــادى

دكتور / حسين على المسرى
كليـــة الآداب ـــ جامعة الكويت

مقـــــــــدمة :

تتناول هذه الدراسة الحديث عن مدينة نجران ، وقد أجرينا تحقيقا لموقع المدينة وأصل التسمية ، وأولى القبائل العربية التى سكنتها ، وقد تبين من خلال هذه الدراسة أن مدينة نجران ذات أهمية سياسية واقتصادية ودينية ، خصوصا بعد دخول الاســلام ربوع اليمن ، فقد برز دور نجران السياسى ، فتحدثنا عن علاقتها بالدولة الاسلامية منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والعهـد الراشد ثم العهود التى تلته ، وأوضحنا موقف أهلها من الاسلام ، وموقف نصارى أهل نجران من الاسلام ، وقد هاجر نصارى نجران الى الشام والعراق ، وعلى أثر ذلك تحولت علاقة الحكومات الاسلامية مع نصارى نجران من نجران اليمن الى النجرانية بمدينة الكوفة وضعف علاقتهم بنجران اليمن •

ثم أن موقع نجران الهام أكسبها أهمية كبيرة فى مجال التجارة ، كذلك خصوبة تربتها جعلتها من المدن الزراعية التى تنتج التمـور والحبوب وأنواع أخرى من المحاصيل الزراعية التى قامت عليها بعض الصناعات ، واشتهرت نجران كذلك بصناعة الجلود التى قامت عليها تجارة واسعة •

التحـديد الجغرافى لنجران وأصـل التســمية :

تقسم بلاد اليمن من الناحية الجغرافية الى قسمان ، فالأجزاء المطلة على البحر تسمى غور ، واصطلح على تسميتها « تهـــامة » وعاصمتها « زبيد » ، ومن مدنها : معقر ، كدره وغيرها •

أما القسم الثانى فهو ما كان من ناحية الجبال ، واصطلحوا على تسميته « نجد » ؛ وهو نجد اليمن ، فكل ما ارتفع من الأرض يسمى نجدا . وعاصمة هذا الاقليم « صنعاء » ، ومن أشهر مدنها : نجران ، صعدة ، جرش ، العرف ، جبلان ، الجند ، ذمار ، نسفان يحصب ، السحول ، المذيخرة ، خولان ، ويمتاز هذا الاقليم بجمال مناخه ، فدرجة الحرارة فى هذه المناطق منخفضة ، لارتفاعها عن سطح البحر ، فمدينة نجران حسب هذا التحديد تكون ضمن اقليم نجد اليمن[١] ، وموقعها فى أقصى الشمال الشرقى لليمن وتجاورها مدينة صعده ، فهى الأخرى تقع فى منتهى المدن الشمالية النجدية[٢] ، كما أن مخلاف لحج ومخلاف أبين فى منتهى الأجزاء الجنوبية من اليمن[٣] ومن ناحية الغرب فانها تتصل بمجموعة من المدن الصغيرة والقرى ، مثل : واعة ونقعة ، ووادى نشور ، ومن الجنوب الشرقى ، يحدها الغائط والفلاة ، والفلاة هى بداية الربع الخالى[٤] ، وكانت الأجزاء الغربية من الربع الخالى تعتبر منتزهات لأهل نجران[٥] وبالنسبة للعاصمة صنعاء فان نجران تقع فى الشمال الشرقى منها[٦] وعلى بعد ١٢٣ ميل[٧] .

---

(١) الهمدانى (أبو محمد الحسن بن يعقوب بن يوسف) : صفة جزيرة العرب ص ٥٤ وما بعدها الى ص ٦٧ . ليدن سنة ١٨٨٤ ، وانظر المقدسى (أبو عبد الله محمد بن أحمد) : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٩ .

(٢) الحوالى (محمد الاكوع) : اليمن الخضراء مهد الحضارة ص ٧٦ مطبعة السعادة ١٣٩١ هـ — ١٩٧١ م .

(٣) الحوالى : اليمن الخضراء ص ١٤٩ .

(٤) الحوالى : اليمن الخضراء ص ١٥٠ .

(٥) كحالة (عمر رضا) : جغرافية شبه جزيرة العرب ص ٨٥ ، مكتبة النهضة الحديثة ، القاهرة ، طبعة (٢) ، ١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤ م .

(٦) الحكمى (نجم الدين عماره بن ابى الحسن على) : تاريخ اليمن ص ١٥٨ . تحقيق المستشرق الفرنسى كاى Kay سنة ١٨٩٢ ، وقد أعاد نشره د. حسن سليمان محمود سنة ١٣٨٦ هـ — ١٩٥٧ م .

(٧) الحوالى : اليمن الخضراء ص ١٤٩ .

وقد أحصى الجغـرافى اليعقوبى مخاليف اليمن فوجـدها ٨٤ أربعة وثمانون مخلافا[٨] ، وكانت نجران ضمن هذه المخاليف من ناحية مكة[٩] • ولكن هناك من يقول : ان نجران ليست من اليمن واعتبرها هى وجرش أول حدود اليمن[١٠] ، ويؤكد ابن خرداذبة ذلك حين يقول : إن نجران تعد من مخاليف مكة ، وكذلك الطائف[١١] • يفهم من ذلك أن هناك اختلاف فى وجهات النظر بين الجغرافيون القداما حول تبعية نجران ، هل هى ضمن اقليم الحجاز أو أنها تتبع اليمن[١٢] •

ولعل أهم ما يميز التضاريس الجغرافية لمدينة نجران ، واديها العظيم الذى يخترقها من الشمال الى الجنوب ، تتخلله بعض الانحناءات

---

(٨) اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب واضح الكاتب) : البلدان ، ليدن سنة ١٨٩١ ، ص ٣١٧ •

(٩) القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود) : آثار البلاد واخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ص ١٢٦ ، ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م •

وانظر ياقوت الحموى (شهاب الدين أبى عبد الله) : معجم البلدان مجلد ٥ ، ص ٢٦٦ • دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م •

(١٠) البكرى (أبو عبد الله محمد بن عبد العـزيز) : معجـم ما استعجم من أسماء البلاد المواضع ، جـ ٤ ص ١٢٩ ، القاهرة ط (١) ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م •

(١١) ابن خرداذبة (أبو القاسم عبد الله بن عبد الله) المسالك والممالك ص باعتناء دى خويه ، ليدن ، ١٣٠٧ هـ — ١٨٨٩ م •

(١٢) ونجران هى الآن مشمولة بالنفوذ السعودى ، وكانت نجران موضع خلاف بين المملكة السعودية واليمن ، فقد وضعت تحت الحماية السعودية فى عهد الملك عبد العزيز آل سعود سنة ١٩٢٦ م ، ثم ضمت الى أملاكه نهائيا عام ١٩٣٠ م ، بموجب المعاهدة التى اعلنت بها الحماية على تلك البلاد .

انظر كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب ص ٤٦ •

وذكر أن وادى نجران الكبير هو الآن مقسم بين المملكة السعودية واليمن ، فنصفه الشمالى تابع للسعودية ، والجنوبى لليمن • انظـر الموسوعة العربية الميسرة ص ١٨٢٤ • دار القلم ، القاهرة ١٩٦٥ م •

والتعاريج[١٣] . ويمتد هذا الوادى فى أرض سهلة منبسطة ، وفى وسطها مجرى الوادى ، بينما القرى تتناثر على جانبى ضفتى الوادى ، وقد بلغ عددها ما يقارب ٣٥ قرية أو يزيد قليلا ، ومعظمها آهـل بالسكان عامرة البناء ، وكان عدد القرى فى الجانب الأيسر من الوادى يفوق الجانب الأيمن ، وقد وجد علماء الآثار أن مثل هذا العدد من القرى عبارة عن خرائب وبعضها مطمور تحت الرمال ، ومن جملتها قرية « الأخدود »[١٤] التى أشار اليها القرآن الكريم فى « سورة البروج : آية ٢٤ »[١٥] ، وهى من خرائب قرى نجران القديمة ، لم يبق منها إلا مسجدها الذى أمر الخليفة عمر بن الخطـاب

---

(١٣) الحوالى : اليمن الخضراء ص ١٥٠ .

(١٤) الحوالى : اليمن الخضراء ص ١٥٠ .

والاخدود الشق العظيم فى الأرض ، وقد وردت قصـة أصحاب الاخدود فى القرآن الكريم ، وتقول القصة أن نفر من أهل نجران آمنوا بدين عيسى عليه السلام ، وكان ملكهم يوسف بن ذى نواس بن شراحبيل ابن تبع الحميرى ، كافرا يعبد الأوثان ، فأمرهم بالعودة الى عبادتهم ولكنهم رفضوا وتمسكوا بدينهم الجديد ، فعمل لهم الأخاديد وأضرم فيها النيران ورماهم فيها .

وذكروا أن أصحاب الأخدود كانوا فى ثلاث مواضع ، واحد بنجران ، والثانى بالشام والآخر بفارس ، ولم ينزل القرآن الا بأخدود نجران فقط . وقد نسبوا بعض الكرامات لأصحاب أخدود نجران ، من ذلك أنهم رووا حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « ان القرى المحفوظة أربع : مكة والمدينة وايليا ونجران ، ومن ليله الا وينزل على نجران سبعون ألف ملك ، يسلمون على أصحاب الاخدود ثم لا يعودون اليها أبدا » . انظر الطبرسى (الشيخ أبو على الفضل بن الحسن) : مجمع البيان فى تفسير القرآن . ج ٢٦ ص ٨٨ — ٩٠ منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت — لبنان (بدون تاريخ) . وانظر ابن الأثير (أبى الحسين بن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم) : الكامل فى التاريخ ج ١ ص ٢٥٠ — ٢٥٣ . دار الفكر ، بيروت ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م .

وانظر ياقوت الحموى : معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ٢٦٨ مادة نجران . وانظر القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٦٥ .

(١٥) الموسوعة العربية الميسرة ص ١٨٢٤ .

ببناءه[١٦] . وقد عثر المنقبون بقرية الأخدود على آثار ذات قيمة تاريخية ، ومن القرى الأثرية فى هذا الوادى ، قرية « رعش » ، وكانت مقرا للنصارى ، وقرية « بولس » ، نسبة الى المبشر النصرانى بولس . ومن هذه القرى أيضا « شوكان » ، وغيرها[١٧] .

ووادى نجران الذى نحن بصدده قد وضعوا تقديرا لطوله من الشمال الى الجنوب ، فقالوا : بأنه يبدأ من قرية المونجة وينتهى عند قرية المذنب . وأن هذه المسافة يقطعها المسافر بأكثر من يوم . وهو تقدير غير دقيق . ويمر الوادى فى أراضى خالية من المياه فى بعض المواضع ما عدا موضعين فيهما آبار يستقى منها الرعاة ، وقدروا هذه المسافة بأنها تساوى المسافة الأولى ، ويرتفع وادى نجران عن سطح البحر بحوالى ٨٠٠٠ قدم[١٨] .

وتتفرع منه ثلاثة فروع ، الفرع الأول يخرج من بلد بن حيف من وادعة ، والثانى من بلد بنى جماعة من خولان . والثالث من بلد شاكر[١٩] . وتصب السيول التى تخرج من هذه الفروع فى وادى نجران الرئيسى ، هذا الى جانب وادى العرض ووادى دماج ، فانهما يصبان أيضا بوادى نجـــران[٢٠] ، فيبدو منظر المياه بوادى نجران جميلا لا سيما فى الربيع حيث وفرة الأمطـــار ، فكان من المنتزهات التى يرتادها أهل نجران[٢١] .

---

(١٦) البكرى : معجم ما استعجم ج ١ ص ١٢١ .

(١٧) الحوالى : اليمن الخضراء ص ١٢١ .

(١٨) الحوالى : اليمن الخضراء ص ١٤٠ وما بعدها .

(١٩) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ص ١٦٣ .

(٢٠) الحوالى : اليمن الخضراء ص ١٥٠ ، وانظر كحالة . جغرافية شبه جزيرة العرب ص ٨٥ .

(٢١) الحوالى : اليمن الخضراء ص ١٥٠ ، وانظر كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب ص ٨٥ .

أما عن أصل التسمية ، ولماذا عرفت نجران بهذا الاســم ، فهناك شبه اجماع بين المؤرخين والجغرافيين على أنها عرفت بهذا الاسم نسبة الى مؤسسها : نجران بن زيد بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان[٢٢] ، فهو أول من عمرها ونزلها[٢٣] ، واسم نجران يطلق على المدينة والوادى ، فيقال وادى نجران ومخلاف نجران[٢٤] ، حيث أن أهل اليمن اعتادوا أن يسموا المواضع بأسماء مؤسسيها ، فمثلا : بلاد خبوان ووادى نجران ، ومعظم بلاد حمــير وهمدان عرفت بهذه الأسماء نسبة الى مؤسسيها[٢٥] .

ســكان نجـــران :

تعتبر قبيلة مذحج[٢٦] من القبائل الأولى التى سكنت نجران ، ولم نجد فيما كتبه المؤرخون وأهل الأنساب ما يحدد الفترة الزمنية

---

(٢٢) البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر) : فتوح البلدان ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٧٩ وانظر الحميرى (محمــد عبد المنعم) : الروض المعطار فى أخبار الأمطار ص ٥٧٣ ، مكتبة لبنان — بيروت ١٩٧٥ تحقيق د. احسان عباس ، وانظر القزوينى : آثار البــلاد ص ١٢٦ .

(٢٣) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، مجلد ٥ ص ٢٦٦ . وانظر الحكمى : تاريخ اليمن ص ٢٩٥ هامش رقم ٢ .

(٢٤) الحوالى : اليمن الخضراء ص ١٤٩ .

(٢٥) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ص ٨٥ .

(٢٦) مذحج بن ادد بن زيد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان . انظر ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٨٥ . دار المعارف بمصر ١٩٦٢ وهى احدى القبائل الكهلانية الكبرى ومواطنها الأصلية فى المنطقة الشرقية من اليمن ، فيما سمى الآن بمراد عنسى والحدا ، ولها بطون كثيرة داخل اليمن وخارجها وهى كالآتى : ١ — سعد العشيرة بتهامة ٢ — صلى ولها مساكن جنوب مكة ٣ — بنو عبد المدان بنجران ٤ — الرها ٥ — صداء ٦ — شمران ٧ — منحان بعسير ٨ — بو عبيــده ٩ — الحكم بنى سعد العشيرة ١٠ — صعب ١١ — حرب نزلت بين مكة والمدينة ١٢ — جعفى ، شمال صعده ، ومنهم كما يقال أبو الطيب =

التى استوطنت فيها هذه القبيلة مدينة نجران ويمكننا القول أن وجودها بنجران يعود الى ما قبل حادث سيل العرم ، الذى أصاب مأرب وتصدع فيه سدها . ومما يؤكد ذلك أن القبائل اليمانية التى هاجرت فى حدود سنة ١١٨ م[٢٧] . إثر حادث السيل المذكور مرت بنجران ، وكانت بها قبيلة مذحج ، وهى المتولية عليها ، ولمذحج بطون كثيرة ، منها بنو الحارث بن كعب التى كانت لها السيادة بنجران ، والقبائل اليمانية ، التى هاجرت جميعها تنسب الى جدها الأعلى قحطان[٢٨] . فاتجهت نحو الشمال الشرقى من مدينة مأرب ، وعند خروجهم كانوا يريدون أرضا تجمعهم إلا أنهم تفرقوا[٢٩] ، فقسم ذهب السواحل الغربية للخليج العربى ، واستقر أكثرهم فى عمان ، أما القسم الأكبر ، فقد ذهب الى تهامة اليمن ، موطن قبائل عك وأشعر ، حيث استقروا على مقربة من مستنقع غسان بين نهرى زبيد وريمة[٣٠] .

ولعل أكبر هذه القبائل المهاجرة ، قبيلة الازد[٣١] بزعامة عمرو

=

المتنبىء ١٣ — انيس ١٤ — سنعد ١٥ — زبيد ١٦ — أود ١٧ — مازن ١٨ — مراد ١٩ — عنسى ٢٠ — بنو الحرث بن كعب ٢١ — بنو مسليه . انظر شرف الدين (أحمد حسين) : دراسات فى أنساب المقحفى (ابراهيم احمد) : معجم المدن والقبائل اليمنية ص ١٧ — ١٨ منشورات دار الكلمة ، صنعاء ١٩٨٥ م .

(٢٧) الحكمى : تاريخ اليمن ص ١٨١ .

(٢٨) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٣٢١ .

(٢٩) المسعودى (ابو الحسن على بن الحسين) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ ٢ ص ١٧٢ ، دار أندلس ، بيروت ١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م .

(٣٠) الحكمى : تاريخ اليمن ص ١٨١ .

(٣١) من القبائل اليمنية الكبيرة المشهورة ، وتنسب الى أزد بن يغوث بن النبت من مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن يشجب بن قحطان . انظر المقحفى : معجم المدن والقبائل اليمنية ص ١٩ . وهم اربعة

=

ابن عامر ماء السماء بن حارثة الغطرين وأبناؤه ، وهم وادعة ، وذهل ، وعمران ، وحارثة وذهب وادعه الى همدان واستقر بها وأما ذهل فقسم من أبناءه ذهب الى نجران واستقروا بها حتى أن أحدهم وهو ايليا أصبح أسقفا عليها[٣٢] . أما حارثة ، ويسميه المسعودى أبو حارثة ، والأصح حارثة بدون أبو ، فقد اضيفت خطأ . فقد ذهب هـو وقبيلة الازد الى نجران واستقر بها بجوار مذحج ، وبمرور الوقت انصهروا بقبيلة مذحج ، وتلاشت قبيلتهم ، وذكروا أن حارثة هو جد الحارث ابن كعب التى كانت لهم السيادة بنجران[٣٣] ، وعلى معظمهم أجزائها ، حتى أن وادى نجران الكبير الذى يخترق المدينة من الشمال الى الجنوب صار ضمن حدود ممتلكات بنو الحارث[٣٤] بن كعب بن عمرو ابن غلة بن جلد بن مالك بن أدد[٣٥] .

وأستمر بنو الحارث المذحجيين يحكمون نجران الى أن انتقلت الرئاسة الى أسرة من نفس القبيلة عرفت ببنى ديان (زيان) من سلالة يزيد الملقب بديان . ومن أبناءه عبد المدان ، وكان أب أو جد يزيد بن عبد المدان الذى قابل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واعتنق الاسلام[٣٦] .

=

أقسام منهم : أزد شنؤه (مخلاف باليمن ينسب الى هذا الفرع) ، ونسبتهم الى كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الازد ، وكانت منازلهم السراة . انظر (معجم قبائل العرب ١/١٥ — ١٨) .

وبطون الازد كثيرة منها : الأوس والخزرج ، وخزاعة ، ومازن ، وبارق والمع ، والحجر ، وراسب ، وغامد ، وزهران ، وعك ، ودوس ، وغسان وغيرهم . انظر المقحفى : معجم المدن والقبائل اليمنية ص ١٩ .

(٣٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٣٢١ .

(٣٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٧٢ .

(٣٤) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ص ٨١ وانظر الحوالى واليمن الخضراء ص ١٥٣ .

(٣٥) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤١٦ — ٤١٧ .

(٣٦) الحكمى : تاريخ اليمن ص ٢٩٨ .

من هذه المعطيات نفهم أن قبيلة مذحج هى أول من سكن نجران من القبائل ثم أتت قبائل الازد ، ومن زعمائهم الحارث بن كعب ، فاختلطت وانصهرت بقبيلة مذحج ، ولما جاء الاسلام كانت السيادة والرئاسة بيد قبيلة الحارث بن كعب .

وتضم نجران أحياء كثيرة من قبائل اليمن[٣٧] ، بعضهم سكن القرى وبعضهم سكن المدن ، وكان أهل نجران يطلقون على القرى أسم حصنا ، واعتادوا على تسمية القرية باسم العائلة التى تملكها ويطلق عليها اسم (وطن) أو (حلة) . وما زالت هذه العادة تمارس فى بعض المقاطعات من بلاد اليمن الى اليوم ، وكانت القرية أو الحصن محاطة بسور مرتفع ولا يمكن الدخول الى القرية الا من باب صغير محكم وقد بنيت على امتداد هذا السور النوب[٣٨] ، وهى تشبه القلاع أو المنارات ، تتخللها ثقوب ، أى مخاريق لرمى العدو[٣٩] .

وقد بنى أهل نجران بيوتهم من اللبن والطوب والآجر ، وهى تتكون فى العادة من طابقين أو ثلاثة ، وتعتبر قرية « الموفجة » من القرى القديمة وآثارها ما تزال باقية ، وهى تقع عند فم الوادى مما يلى صعدة ، وتعتبر هذه القرية من القرى الهامة ومساحتها كبيرة ، فهى تتألف من عدة قرى صغيرة أو حلل ، كما يسميها أهل اليمن ،

---

(٣٧) الاصطخرى (أبو اسحاق ابراهيم الفارسى : كتاب الأقاليم ص ١٣ مخطوط باليد ومصور باعتناء .

(٣٨) النوب : جاء فى « لسان العرب » لابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم) : المجلد (١) ص ٧٧٦ « أن النوب جمع نائب من النحل لأنها تعود لخليتها » ، ونفهم من ذلك أن النوب هنا تشبه خلية النحل ، لابد وأن يكون بداخلها حارس ، وأن هذا الاسم لحق بها من عملية تبادل الحراس بالتناوب ، فسميت النوب ، وهو الثكنة أو البناء الصغير على شكل قلعة يجلس بداخله الحارس . فسمى النوب من طبيعة عمل الحراس وهو التناوب .

(٣٩) الحوالى : اليمن الخضراء ص ١٥١ .

وتوجد بها آثار لكنيسة ، ربما هى آثار كعبة نجران ، أو دير نجران الشهيرة[٤٠] . مما يدل على أن المسيحية قد أخذت طريقها بنجران ، فقد كانوا قبل ذلك يعبدون الأوثان والأصنام كسائر قبائل اليمن . فقد كان لأهل نجران نخلة يقدسونها ويعظمونها ، ويقصدونها فى كل سنة باحتفال عظيم ، فيعلون عليها الملابس الجيدة والحلى التى يأخذونها من النساء[٤١] .

أما عن كيفية دخول المسيحية بنجران ، فقد تحدثت عنها كتب السير والتاريخ وأجمعت على أن المسيحية دخلت نجران على يد رجل يقال له « قيميو أو قيميون » بالقاف ، وهو أحد دعاة عيسى عليه السلام ، وكان رجلا صالحا مجاب الدعوة[٤٢] .

وذكروا أن كعبة نجران بناها عبد المدان بن الريان أو الريان الحرثى ، وهم من سادات بنى الحارث بن كعب ، وبناءها على شكل مربع متساوية الأضلاع والأقطار ، مرتفعة عن الأرض فلا يصعد الى سطحها الا بدرج ، وكان الغرض من بناءها منافسة كعبة مكة الشريفة ، بيت الله الحرام ، وكان أهل نجران يعظمونها ، وكذلك بعض الطوائف من قبائل العرب ، فكانوا يحجون اليها فى الأشهر الحرم ، ولا يذهبون الى الكعبة بمكة[٤٣] . والى جانب كعبة نجران ، هناك كعبتان ، واحدة بالحيرة لآل المنذر ، والثانية بالشام لآل غسان ، وقد اعتنوا كثيرا فى بناء هذه الكعبات ، فقد كانت حيطانها وأسقفها مطعمة بالفسيفساء والذهب ، كما اختاروا لبناءها المواضع الجميلة ، التى تكثر فيها الأشجار والمياه والرياض[٤٤] .

---

(٤٠) الحوالى : اليمن الخضراء ص ١٥١ .

(٤١) ياقوت الحموى : معجم البدان مجلد ٥ ص ٢٦٦ .

(٤٢) انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ٢٦٦ وانظر الحكمى : تاريخ اليمن ص ١٥٨ .

(٤٣) البكرى : معجم ما استعجم جـ ٢ ص ٦٠٢ ، وانظر القزوينى : آثار البلاد ص ١٢٦ .

(٤٤) البكرى : معجم ما استعجم جـ ٢ ص ٦٠٢ .

وقد عرف عن نجران عندما ظهر الاسلام بمكة أنها كانت تؤى اليها أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من ذلك أنه فى أثناء فتح مكة فى السنة الثامنة من الهجرة ، هرب الى نجران عبد الله بن الزبعرى السهمى ، وهو ممن كانوا يهجون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحرضون عليه المشركين ، فأصبح وضعه حرجا عندما فتحت مكة فهرب الى نجران ، وكان برفقته هبيرة بن أبى وهب المخزومى ، زوج أم هانى[(٤٥)] ، وقد احتمى الزبعرى عند بنو الحارث بن كعب ، أصحاب السيادة بنجران ، فسألوه عن أخبار المسلمين ، فأخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فتح مكة ، وأن قريش زعيمة المشركين قد خضعت ودانت له بالسمع والطاعة ، وأن رسول الله قادما اليهم[(٤٦)] .

فهذه الأخبـــار التى نقلها الزبعرى الى المسئولين بنجران من بنى الحارث بن كعب دفعتهم الى التهيأ والاستعداد لملاقات المسلمين ، فقاموا بترميم حصونهم ، واصلاح ما تهدم منها ، وجهزوا أنفســـهم بالمواد الغذائية[(٤٧)] . أما الزبعرى فلم يمكث طويلا بنجران ، فقد عاد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم معتذرا نادما على ما صدر منــه وأعلن اسلامه ، فقبل رسول الله منه العذر[(٤٨)] .

---

(٤٥)

(٤٦) الواقدى (محمد بن عمر) : المغازى ج ٢ ص ٨٤٧ — ٨٤٨ — ٨٤٩ . تحقيق د. مارسدن جونس . انتشارات اسماعليان (بدون تاريخ) وانظر ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٢٥٠ .

(٤٧) الواقدى : المغازى ج ٢ ص ٨٤٧ — ٨٤٨ — ٨٤٩ ، وانظر ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٢٥٠ .

(٤٨) البلاذرى (أحمد بن يحيى) : انساب أشراف ج ١ ص ٣٦٢ تحقيق د. محمد حميد الله معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالاشتراك مع دار المعارف (بدون تاريخ) . وانظر الواقدى : المغازى ج ٢ ص ٨٤٩ وانظر ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٢٥٠ وانظر ابن هشام (أبو محمــد عبد الملك) : السيرة النبوية ج ٢ ص ٢٤٧ تحقيق مصطفى السقا وآخرين . مصر ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م .

نجـــران والدعـــوة الى الاســـلام :

فى أعقاب الهدنة التى عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قريش أثناء صلح الحديبية ، أخذ يبعث سفرائه الى الأمصار فى الشرق والغرب والى الشمال والجنوب يدعوهم الى الاسلام ، ومن هـــذه الأمصار التى بعث اليها ، مدينة نجران ، ففى سنة (١٥ هـ — ٦٣١ م) بعث الى نجران سرية بقيادة خالد بن الوليد قوامها ٤٠٠ رجل ، فى ربيع الآخر وفى جمادى الأول من السنة المذكورة ، وكانت السيادة بنجران بيد بنو الحارث بن كعب(٤٩) .

وقد أوصى خالد بأن يقيم بينهم ثلاثة أيام يدعوهم الى الاسلام فان أجابوا أقاموا بينهم ليعلموهم أساسيات ما جاء به الاسلام من تعاليم ، كالتوحيد والصلاة والصيام ، كما جاء فى الكتاب والســـنة وان لم يجيبوا حاربهم(٥٠) .

وقد وصلت سرية خالد الى نجران ، وصنع معهم كما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فآمنت ، لا سيما بنو الحارث بن كعب ، وتبعتم القبائل الأخرى ، الا النصارى فانهم ظلوا على ديانتهم ، وأقام

---

(٤٩) شباب (أبو عمرو خليفة بن خياط) : تاريخ خليفة بن خياط ص ٩٤ تحقيق د. أكرم ضياء العمرى ، دار القلم ، بيروت ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ، وانظر البلاذرى : أنساب الأشراف ج ١ ص ٣٨٤ ، وانظر عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد) : الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ق ٢ ص ٤٢٩ . تحقيق على محمد البجاوى . مطبعة النهضة ، القاهرة (بدون تاريخ) وانظر الواقدى : المغازى ج ٣ ص ٨٨٣ ، وانظر ابن سعد (محمد بن سعد بن ينبع البصيرى) : الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٣٩ ، دار صادر ، بيروت (بدون تاريخ) . وانظـــر الطـــبرى (محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ١٥٦ . دار القاموس الحديث ، بيروت (بدون تاريخ) . وانظر ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٢٩٣ .

(٥٠) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ١٥٦ .

المسلمون بينهم يعلمونهم الاسلام وشرائعه ، وأخذوا الصدقات من أغنيائهم وردوها على فقرائها[٥١] •

بنو الحارث بن كعب قد دخلوا فى الاسلام ، وقد كانوا قبل ذلك عازمين على القتال وأعدوا له العدة ، ما هذا التغير فى الموقف • ونرى أن السبب فى ذلك يعود لعاملين رئيسيين • الأول سياسى ، فالدولة الاسلامية فى هذه الفترة التى نتحدث عنها، وهى السنة العاشرة للهجرة ، قد أصبحت قوة مرهوبة الجانب لا سيما بعد فتح مكة والقضاء على قريش ، فوجد أهل نجران أن من العبث محاربة المسلمين ، فدخلوا الاسلام حقنا لدمائهم • أما العامل الثانى فأسبابه دينية فمعروف أن الديانة اليهودية ثم المسيحية قد أخذت طريقها الى اليمن لا سيما مدينة نجران ، التى توجد بها كعبة نجران ، والكثير من الكنائس والأديرة ، فكان بها عدد كبير يعتنقون المسيحية ، ولا شك أن لهؤلاء تأثير على القبائل الوثنية ، فحتما أن بعضهم قد ساوره الاحساس بمدى تخلفه روحيا اذا ما قارن بين عبادته للحجارة وبين ما عليه النصارى من ديانة ، وقد كانت هذه الفرصة مواتية عندما جاءت الدعوة الى الاسلام ، والتى تدعو الى عبادة اله واحد ، فكانت إذانا بتحول نجران الى الاسلام وعبادة الله سبحانه وتعالى ، فدخلوا الاسلام فى غضون أيام قلائل •

وبعد اسلام نجران بعث خالد بن الوليد بكتاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره باسلام نجران ، وانه مقيم بينهم يعلمهم شرائع الاسلام كما أمر رسول الله وهو ينتظر أمره[٥٢] • وقد قام بنقل هذا الكتاب ، بلال بن الحارث المزنى[٥٣] •

---

(٥١) البلاذرى : انساب الأشراف ج ١ ص ٣٨٤ •

(٥٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ١٥٦ •

(٥٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٣٩ •

فبعث اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يأتى الى المدينة مع وفد من أهل نجران[٥٤] .

فلما وصل كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى خالد ، أخبر بنو الحارث بن كعب برغبة رسول الله بمقابلة وفد منهم . فشكلوا الوفد من أشرافهم فقدم خالد الى المدينة وبرفقته وفد نجران[٥٥] وهم : قيس بن الحصين بن يزيد بن قنان ذى الغصة . ويزيد بن عبد المدان من بنى الحارث . ويزيد بن المحجل . وعبد الله بن قريظ الزيادى . وشداد بن عبد الله القنانى . وعمرو بن عبد الله الضبابى . فلما بصر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند ، قيل يا رسول الله هؤلاء بنو الحارث بن كعب »[٥٦] .

وقد شبههم رسول الله برجال الهند ، فهل كان ذلك بسبب سمرة بشرتهم أم لزيهم ، وقد جاء الوفد ووقفوا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسلموا عليه وقالوا : « نشهد أنك رسول الله وأن لا اله الا الله ، فقال رسول الله : وأنا أشهد أن لا اله الا الله وانى رسول الله » وقد دار بينهما حوار ، وكان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم يغلب عليه طابع الغلظة والشدة ، من ذلك قوله لهم : « أنتم الذين اذا زجروا[٥٧] استقدموا » ، فسكتوا ، فأعادها

---

(٥٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ١٥٦ وابن هشام : السيرة ج ٣ ص ٢٤٠ ، وانظر حميد الله (د. محمد) : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ص ١٣٢ . دار الارشاد . بيروت ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م .

(٥٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ١٥٦ .

(٥٦) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ١٥٦ ، وانظر ابن هشام : السيرة ج ٣ ص ٢٤٠ .

(٥٧) معنى الزجر هناك الكهانة والعياه ، وهى من العادات السائدة عند العرب قبل الاسلام فربما كان هذا الوفد يضم جماعة من الكهان . انظر ابن منظور : لسان العرب ج ٤ ص ٣١٩ .

عليهم أربعا فلم يجيبوا[٥٨] . ثم أجاب يزيد بن عبد المدان ، أحد أفراد هذا الوفد فى المرة الرابعة ، فقال : « نعم يا رسول الله نحن الذين اذا زجرنا استقدمنا ، فقالها أربع مرات »[٥٩] وقال لهم : لو لم يأتين خالد بخبر اسلامكم دون مقاومة منكم « الألقيت روؤسكم تحت أقدامكم »[٦٠] .

توحى هذه العبارات الشديدة التى وجهها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى وقد بنى الحارث بن كعب بانه غاضبا عليهم ، يظهر ذلك من منطوق العبارة الأخيرة ، دون أن نعرف سبب ذلك فالطبرى وابن هشام اللذان ينقلان هذا الحوار لم يرشدانا الى سبب غضب رسول الله عليهم ، والشىء الملفت للنظر أن بعض المصادر التاريخية التى تعرضت الى ذكر هذه المقابلة تجنبت ذكر هذا الحوار الموصوف باللهجة الشديدة ، ولعل تفسيرنا لذلك أن هذه المصادر التاريخية شكت فى صحة نسبت هذا الحوار الى رسول الله ، أو انها تهيبت من ذكره[٦١] ، فابن خلدون مثلا ، ذكر هذا الحوار ويبدو أنه نقله عن الطبرى امتنع عن ذكره واستمر فى ذكر بقية الحديث[٦٢] كذلك ابن الأثير الذى يعتمد هو أيضا فى نقله على الطبرى تجنب ذكر هذا الحوار مع انه أشار الى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع وفد نجران[٦٣] . وابن سعد فى الطبقات لم يشر الى هذا الحوار ، بل ذهب الى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرم وفادتهم ووزع

---

(٥٨) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ١٥٧ .

(٥٩) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ١٥٧ .

(٦٠)

(٦١) البلاذرى : انساب الأشراف ج ١ ص ٣٨٤ ، وانظر ابن سعد : الطبقات ج ١ ص ٣٣٩ .

(٦٢) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٢ ، ص ٨٢٨ .

(٦٣) ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

عليهم الجوائز ، وفضل عليهم فى العطاء قيس بن الحصين ، وجعله أميرا عليهم[٦٤] •

اذن فالطبرى على ما يبدو هو الوحيد الذى تحدث عن هـذا الحوار ، فنعود اليه لاستكمال بقية الحديث مع وفد نجران • فقد رد يزيد بن عبد المدان على كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالجواب التالى : « أما والله يا رسول الله ما حمدناك ولا حمدنا خالد • فقال رسول الله : فمن حمدتم • قالوا : حمدنا الله الذى هدانا بك • قال صدقتم »[٦٥] •

وقد اشتهر بنو الحارث بن كعب بالقوة وشدة البأس وصبرهم فى الحروب ، فما حاربهم أحد فى الجاهلية الا انتصروا عله ، كذلك اشتهروا بالعدالة وطيب الاخلاق والتعاون فيما بينهم ، وقد أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرف سر انتصاراتهم ، فقـال : « بم كنتم تغلبون من قاتلكم » • فرفضوا الافصاح ، وقالوا : « لم نكن نغلب أحدا » ، فأعاد رسول الله عليهم السؤال ، وقال : « بلى قد كنتم تغلبون من قاتلكم »[٦٦] ، وقد أفصحوا بعد ذلك وقالوا : « كنا نجتمـع ولا نفترق ولا نبـدأ أحد بظلم ، قال : صدقتم »[٦٧] •

فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد من هذه المساءلة أن يوضح للمسلمين أهمية الوحدة ورص الصفوف ، كذلك تجنب الظلم ، حيث انهما كانا السر وراء انتصارات بنو الحارث بن كعب فى حروبهم ضد أعدائهم •

فى نهاية هذه المقابلة عاد وفد الحارث بن كعـب الى بلادهم

---

(٦٤) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ١ ، ص ٣٣٩ — ٣٤٠ •
(٦٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ١٥٧ •
(٦٦) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ١٥٧ •
(٦٧) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٢ ، ص ٨٢٨ •

نجران في أواخر شهر شوال أو مطلع شهر ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة[٦٨] . ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل نجران في حاجة الى من يبصرهم بتعاليم الاسلام ويفقههم في أمور الدين ، ويفسر اهم ما جاء في الكتاب والسنة من التعاليم وكيفية أخذ الصدقات ، فمن الأوفق أن يبعث اليهم من يقوم بهذه المهمة فاختار عمر بن حزم بن زيد بن لوذان الخزرجي الانصاري ، ويرافقه شخص من بني النجار ، وكان سن عمرو حين بعثه رسول الله سبع عشرة سنة[٦٩] ، ويتمتع عمرو بن حزم بالذكاء وسعة العلم بأمور الدين والتفقه فيه ، وقد زوده رسول الله بكتاب الى أهل نجران وهو عبارة عن عقد بين رسول الله وبين عمرو بن حزم ، يتعهد فيه عمرو أن يعمل بما جاء في هذا الكتاب . ويتضمن هذا الكتاب مجموعة من التشريعات والتنظيمات تتصل بالحياة الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وواضح أن الهدف من هذه التنظيمات ، حتى تكفل حياة كريمة آمنة لمجتمع قبائل نجران[٧٠] .

ويبدو أن عمرو بن حزم كان وثيق الصلة برسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يطلعه حتى على أموره الخاصة ، فقد بعث إليه ذات مرة رسالة يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه رزق بمولود ذكر سماه « محمد » تيمنا برسول الله ، وكناه بأبي سليمان ، فرد عليه رسول الله وقال له : بل كنيه بأبي عبد الملك ، وظل عمرو بن حزم

---

(٦٨) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ١٥٧ ، وانظر ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٢ ، ص ٨٢٨ .

(٦٩) البلاذري : أنساب الأشراف ج ١ ص ٥٣٨ — ٥٣٩ ، وانظر شرف الدين (أحمد حسين) : تاريخ الفكر الاسلامي في اليمن ، الزيدية الشافعية الاسماعيلية ص ١٨ ط ٢ سنة ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م .

(٧٠) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ١٥٧ — ١٥٨ .

عاملا على نجران الى أن توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عليها[٧١] .

ومما تجدر الاشارة اليه أن سفارة النبى صلى الله عليه وسلم الى اليمن لم تقتصر على خالد بن الوليد ، بل كانت هناك سفارات أخرى منها السفارة التى قام بها على بن أبى طالب فى شهر رمضان من السنة العاشرة للهجرة ، وهى عبارة عن سرية ، ولما علمت قبائل اليمن استعدت للقتال ، وقبل أن يحدث الصدام بينهما ، قرأ على بن أبى طالب عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان لهذا الكتاب التأثير الطيب على قبائل اليمن لاسيما قبيلة همدان التى أعلنت اسلامها ، فكتب على الى النبى صلى الله عليه وسلم يخبره بإسلام همدان . فحمد النبى الله وأثنى عليه وخر ساجدا شكرا لله ، ثم جلس وقال : السلام على همدان ، أعادها ثلاثا ، وكان النبى قبل أن يرسل عليا قد أرسل خالد اليهم وأقام بينهم مدة ست شهور إلا أنهم لم يجيبوا الى الاسلام[٧٢] .

وقام على بن أبى طالب بسفارة أخرى فى نفس السنة المذكورة ، وكانت الى نجران ليجمع الصدقات من المسلمين ويأخذ الجزية من أهل الذمة[٧٣] وذكروا أن نصارى نجران هم أول من دفع الجزية من أهل الذمة ، ثم بعدهم دفعها نصارى أيله[٧٤] واذرح[٧٥] أثناء غزوة

---

(٧١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ١٥٨ ، وانظر البلاذرى : انساب الأشراف ج ١ ص ٥٣٨ — ٥٣٩ .

(٧٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ١٥٩ وابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٢٠٥ .

(٧٣) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ٢٤٧ ، وشباب : تاريخ خليفة بن خياط ص ٩٧ .

(٧٤) أيله : مدينة على ساحل البحر الأحمر ، شمال اقليم الحجاز وآخر حدوده وأول حدود الشام . انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان ، مجلد ١ ص ٢٩٢ .

=

تبوك[٧٦] . والهمدانى هنا يشير فى كتابه صفة جزيرة العرب الى المذاهب الدينية التى ظهرت باليمن بعد ذلك ، فيقول : أنهم منقسمون الى ثلاث ملل : ثلث يهود ، وثلث نصارى ، وثلث مسلمين ، والمسلمون منقسمون الى ثلاث مذاهب : ثلث شافعية ، وثلث زيدية ، وثلث مالكية[٧٧] .

وبعد أن جمع على بن أبى طالب الصدقات من مسلمى نجران وكذلك الجزية من أهل الذمة عاد بجيشه الى المدينة ، وقد علم بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مكة المكرمة ، لأداء فريضة الحج ، وهى حجة الوداع ، فتعجل للقاءه ، وترك على جيشه أحد أصحابه ، وبعد مغادرة على قام هـذا القائد بتوزيع الحـلل[٧٨] على الجيش فلبسوها ، وقبل أن يصل الجيش الى مكة خرج على بن أبى طالب القائهم ، فرآهم قد لبسوا الحلل ، فغضب على القائد ، وأمرهم بنزعها وإعادتها الى مكانها ، وقال : أن هذا العمل لا يرضاه رسول الله . فشكوا عليا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنع معهم ،

=

(٧٥) أذرح : بضم الراء والحاء المهملة : بلدة فى أطراف الشام ، من نواحى عمان والبلقاء ، ومجاورة لأرض الحجاز . ياقوت الحموى : معجم البلدان ، مجلد ١ ص ١٢٩ .

(٧٦) البلاذرى : فتوح البلدان ق ١ ص ٨١ .

(٧٧) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ص ٢٠٩ .

(٧٨) الحلل جمع حله : نوع الثياب ، وقد اختلفوا على أى نوع من الأثواب تطلق كلمة حله ، فبعضهم قال : لا تسمى حله الا اذا كانت تحتوى على ثلاث قطع ، وهى : القميص والأزار والرداء ، لا تكون أقل من هذه القطع الثلاث . وبعضهم قال : الحلة تحتوى على ثوبين على أن يكونا من نفس القماش وبرود اليمن لا تسمى حله الا اذا احتوت على ثوبين من نفس القماش فالحلل التى لبسها جيش على بن أبى طالب من برود اليمن تحتوى على ثوبين ، وفى العادة تكون رداء ومازر ، فبعضها يصنع من الحرير فتكون غالية الثمن ، وكذلك تصنع من القز والوشى والمرورزى والفوهى وجميعها من الأقمشة الجيدة . انظر ابن منظور : لسان العرب ج ١١ ص ١٧٢ .

فقال رسول الله : « لا تشكو عليا فوالله انه لأخشن فى ذات الله وفى سبيل الله »[٧٩] ، فقد شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب بالعدالة ، وان ما قام به من عمل يرضاه الله ورسوله .

وقد كانت لعلى بن أبى طالب أكثر من سفارة لليمن ، فذكروا أنها سفارتان أو ثلاث سفارات[٨٠] . الأولى كانت الى نجران لقبض الصدقات والجزية ، وكان برفقته خالد بن الوليد والبراء بن عازب الأنصارى ، وبريده بن الخصيب الأسلمى[٨١] . أما السفارة الثانية فكانت فى السنة العاشرة قبيل حجة الوداع ، وصل فيها الى صنعاء ، وقد شيد هناك مسجدا عرف باسمه[٨٢] . والسفارة الثالثة والأخيرة فقد وصل فيها الى عـــدن أبين ، وقد خطـــب على منبرها خطبـــة بليغـــة[٨٣] .

هذه السفارات الثلاث التى قام بها على بن أبى طالب الى اليمن قد تركت أثرا طيبا فى نفوس أهل اليمن فقد أحبوه وارتبطوا به ارتباطا روحيا ، وقد استمر هذا الحب والولاء لعلى بن أبى طالب والأبناءه من بعده[٨٤] . فانتشار المذهب الزيدى نسبة الى زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، باليمن لدليل على هذا الولاء[٨٥] .

أما عن علاقة رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصارى نجران ،

---

(٧٩) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٣ ص ١٦٨ ، وابن الأثير : الكامل جـ ٢ ص ٢٠٥ .

(٨٠) الحرازى (حسين بن فيض الله الهمدانى اليعبرى) : الصلحيون والحركة الفاطمية باليمن من (٢٦٨ هـ — ٦٢٦ م) . ص ١٣ ، مكتبة مصر ، القاهرة (بدون تاريخ) .

(٨١) شرف الدين : تاريخ الفكر الاسلامى فى اليمن ص ١٤ .

(٨٢) الحرازى : الصلحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ص ١٤ .

(٨٣) الحرازى : الصلحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ص ١٤ .

(٨٤) الحرازى : الصلحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ص ١٤ .

(٨٥) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ص ٢٠٩ .

الذين ظلوا على مسيحيتهم ولم يدخلوا فى الاسلام ، فقد بعث اليهم كتابا موجها الى الأساقفة ، ويتضمن هذا الكتاب الدعوة الى عبادة الله ونبذ عبادة العباد ، وإذا رفضوا ذلك يدفعون الجزية ، وان رفضوا فالحـــرب[٨٦] .

وبعد وصول كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شكلوا وفدا منهم يضم رؤسائهم وأشرافهم ، وقد اختلفت أقوال المؤرخين فى عدد أفراد هذا الوفد ، فبعضهم جعله ستون رجلا ، اختير منهم أربعة زائدة وعشرون لمقابلة رسول الله صلى الله عليه وسلم[٨٧] ، وبعضهم قال أن عددهم أربعة عشر رجلا فقط من أشراف نصارى نجران وأهل الكلمة فيهـــم[٨٨] . وابن خلدون جعل عددهم (٧٠) رجلا[٨٩] .

ومهما كانت الاختلافات التى وقع فيها المؤرخون حول عدد أفراد هذا الوفد . فجميعهم يقرون بوجود هذا الوفد ، وقد أشاروا الى أسماء بعضهم ، فهم : العاقب ، واسمه عبد المسيح من قبيلة كنده ، وهو أميرهم وصاحب كلمتهم ، وأبو الحارث بن علقمه ، وأخوه كرز بن علقمه من قبيلة بنى أبو الحارث هو الزعيم الروحى لهم وأســـقفهم وإمامهم ، والسيد ، واسمه الأيهم ، صاحب رحلهم ومجتمعهم ، من بنى الحارث ، وأوس ، وزيد بن قيس ، وشيبه ، وخويلد ، وخـــالد ، وعمـــر ، وعبيد الله[٩٠] .

---

(٨٦) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٨١ .

(٨٧) الذهبى (الحافظ شمس الدين) : تاريخ الاسلام وطبقات مشاهير الأعلام . مجلد ١ ص ٥٧٨ ، دار الكتب الاسلامية القاهرة ، بيروت ط (١) ١٤٠٥ هـ — ١٩٨٥ م .

(٨٨) ابن حجر (أبو الفضل أحمد بن على العسقلانى) : الاصابة فى تمييز الصحابة ج ٤ ص ٣٠٩ . تحقيق طه محمد الزينى . مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ . وانظر ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٥٧ .

(٨٩) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٢ ص ٨٣٦ .

(٩٠) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٥٧ ، وانظر الذهبى : تاريخ الاسلام وطبقات مشاهير الاعلام مجلد ١ ص ٥٧٨ .

ويبدو أن أبا الحارث بن علقمه أسقف نجران وزعيمهم الروحى كان على علم بأن محمد صلى الله عليه وسلم على حق ، وأنه نبى مرسل ، وقد توصلنا الى ذلك من المسائلة والحوار الذى دار بين أبو الحارث وبين أخيه كرز بن علقمه . من ذلك أن كرز أثناء حديثه مع أخيه أساء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعترض عليه أبو الحارث قائلا : « أتشتم رجلا من المرسلين ؟ انه الــذى بشر به عيسى وانه لفى التوراة »[٩١] . فرد عليه كرز ، ما دام أنك تعلم أنه نبى مرسل وأنه على حق فلماذا لا تتبعه ؟ ولكن أبا الحارث لا يستطيع أن ينفذ ذلك ما دام مرتبط مع ملوك الروم بروابط روحية واقتصادية ، فهم الذين يمولونه بالمال لانعاش وضعه ووضع قبيلته الاقتصادى ، وبناء الكنائس والأديرة فى نجران وباقى مدن اليمن ، مقابل أن يقوم أبو الحارث بنشر المسيحية فى ربوع اليمن ، نستدل على ذلك من قول أبو الحارث نفسه لأخيه كرز : « شرفنا هؤلاء القوم » (يعنى ملوك الروم) وأكرمونا ومولونا وقد أبو إلا خلافه (يعنى بذلك الاسلام)[٩٢] ، ويقول أيضا : لو خالفتهم قطعوا عنى هذه المساعدات[٩٣] .

هذه الحقيقة التى وقف على أمرها كرز بن علقمه جعلته يغير رأيه ، فترك أخيه والوفد المرافق له والتحق برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وصول الوفد ، أسلم على يد رسول الله ، وقبل أن يغادر جماعته أنشأ يقــول :

إليك يغــدو قلقا وضينها معترضا فى بطنهــا جنينها
مخالفا دين النصــــارى دينها[٩٤]

---

(٩١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٦٤ — ١٦٥ وانظر الذهبى : تاريخ الاسلام وطبقات مشاهير الاعلام مجلد ١ ص ٥٨٧ .

(٩٢) ابن سعد : الطبقات ج ١ ص ١٦٤ — ١٦٥ .

(٩٣) الذهبى : تاريخ الاسلام وطبقات مشاهير الاعلام ، مجلد ١ ص ٥٧٨ .

(٩٤) ابن سعد : الطبقات ج ١ ص ١٦٥ .

بعد ذلك وصل وفد نصارى نجران الى المدينة ، ووردوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى المسجد بعد صلاة العصر ، وعليهم لباس الديباج والحرير وفى أعناقهم وأيديهم الصلب ، وقد اتجهوا نحو المشرق ليصلوا ، فأراد أصحاب رسول الله منعهم ، فقال رسول الله : دعوهم[٩٥] ، وقيل أن رسول الله لما رآهم بهذا الزى أعرض عنهم ولم يكلمهم إلا بعد أن غيروا زيهم فغدوا عليه فى اليوم التالى وعليهم لباس الرهبان[٩٦] .

وقد جرت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم مناقشات طويلة حول الاسلام وطبيعة السيد المسيح عيسى بن مريم . فقد دعاهم الى الاسلام فقالوا : نحن مسلمين قبل أن تدخل أنت فى الاسلام ، فرد رسول الله عليهم بقولهم : كذبتم ، يمنعكم عن الدخول فى الاسلام ، أكلكم الخنزير ، وقولكم لله ولد وعبادتكم الصليب[٩٧] . فهذه الأعمال التى يمارسونها تتناقض مع قولهم لرسول الله بأنهم مسلمين ، وقد امتنعوا من الدخول فى الاسلام . وقد سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السيد المسيح ، فقال ، إنه بشر عبد الله ورسوله ، فرد أبو الحارث زعيمهم الدينى « تعالى عما قلت »[٩٨] ، « وهل رأيت ولدا من غير ذكر »[٩٩] ، فلم يتعجل رسول الله الاجابة ، فأطرق ينتظر الأمر من الله سبحانه وتعالى ، فنزل عليه : « ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم . إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون .... » الى قوله تعالى : « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم

---

(٩٥) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٨٢ .

(٩٦) ابن سعد : الطبقات ج ١ ص ٣٥٧ — ٣٥٨ .

(٩٧) البلاذرى : فتوح البلدان ج ١ ص ٧٦ — ٧٧ .

(٩٨) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٨٢ .

(٩٩) الطبرى (الشيخ أبو على الفضل بن الحسن) : مجمع البيان فى تفسير القرآن ج ٢ ص ٩٩ ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .

وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فجعل لعنت الله على الكاذبين »[١٠٠] •

لقد عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الآيات المباركة ، قول الله تبارك وتعالى فى السيد المسيح عيسى بن مريم وكيف تم خلقه ، ثم الدعوة لمن يؤمن بهذا الحديث الاحتكام الى الله سبحانه وتعالى ، فتحل اللعنة على الكاذبين ، فدعاهم الى المباهلة[١٠١] فقبلوا الدعوة •

وقد استعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج عليهم فى صباح اليوم التالى وبرفقته على بن أبى طالب وابنته فاطمة والحسن والحسين • أما وفد نجران فقد خرج منهم أبو الحارث الأسقف والسيد ، وبرفقتهما ابنين لهما عليها الدر والحلى[١٠٢] • فلما أبصر أبو الحارث برسول الله وبمن معه نظر إليهم وقال : « يا معشر النصارى انى لأرى وجوها لو شاء الله أن يزيل جبــلا من مكانه لأزاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى الى يوم القيامة » ، من هذا نفهم أن الحارث كان على علم بالمكانة الروحية السامية لرسول الله وآله[١٠٣] •

لذلك فانهم امتنعوا عن المباهلة ، وقال أسـقفهم أبو الحارث لرسول الله لا نباهلك • فأنت على دينك ونحن على ديننا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم • إذا بيتم المباهلة فأسلموا ، يكون لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم ، فرفضوا ، قال : إذا أحاربكم ، فوجدوا أنهم لا طاقة لهم بحرب المسلمين ، فقالوا : نصالحك على :

---

(١٠٠) القرآن الكريم : سورة آل عمران الآيات (٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ . ٦١) •

(١٠١) المباهلة : البهلة بالفتح والضم ، اللعنة ، وبهله الله لعنه وأبعده من رحمته . الزمخشرى (محمود بن عمر بن محمد) : تفسـير الكشاف جـ ١ ص ١٧٨ ، تحقيق محمد مرسى عامر ، دار المصحف ، القاهرة ط (٢) ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م •

(١٠٢) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٨٥ .

(١٠٣) الزمخشرى : تفسير الكشاف جـ ١ ص ١٧٨ .

« أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدى إليك كل عام ألفى حله[١٠٤] ألف فى صفر وألف فى رجب[١٠٥] .

فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم ، فصالحهم على ذلك وكتب لهم كتابا أوضح فيه شروط هذا الصلح ، وقد أشارت مصادر التاريخ الى هذا الصلح ، فبعضهم نقله نصا كما يعتقد أنه ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن هؤلاء اليعقوبى فى تاريخه ، والبلاذرى فى كتاب الفتوح وابن سعد فى الطبقات الكبرى ، والبعض الآخر من المصادر لم يلتزم بنقل نص هذا الصلح . وإنما اكتفى بنقل ما ورد فى هذا الصلح من الشروط ، ومن هؤلاء ابن الأثير فى كتاب الكامل وابن خلدون فى تاريخه[١٠٦] .

ففى هذا الصلح أقر رسول الله ما اتفق عليه نصارى نجران من دفعهم للحلل فى شهر رجب وصفر من كل عام ، وهى ألفى حله ، قيمة كل حله ٤٠ درهما من الفضة ، وأن يساعدون المسلمين إذا ما وقعت حرب باليمن ، بأن يمدوهم بالأسلحة فقط دون الاشتراك معهم فى الحرب ، وأن ينصحوا للمسلمين ، ولا يؤخذ أحد بخيانة غيره . وحرم عليهم التعامل بالربا ، فمن عمل به بعد هذا الاتفاق ، فقد نقض الصلح ، فتكون ذمة محمد صلى الله عليه وسلم منه بريئة[١٠٧] .

---

(١٠٤) الحله تعادل الأوقية وزن اربعين دهما من الفضة . انظر البلاذرى : فتوح البدان ج ١ ص ٧٦ .

(١٠٥) الزمخشرى : تفسير الكشاف ج ١ ص ١٧٨ .

(١٠٦) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٨٢ — ٨٣ وانظر البلاذرى : فتوح البلدان ق ١ ص ٧٧ — ٧٨ . وانظر ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢٨٧ — ٢٨٨ وانظر ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٢٩٣ — ٢٩٤ . وانظر ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، مجلد ١ ص ٨٣٦ .

(١٠٧) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٨٣ ، وانظر البلاذرى : فتوح البدان ق ١ ص ٧٨ .

بعد أن تم الاتفاق عاد وفد نصارى نجران إلى بلادهم ، ولكن بعد مدة يسيره عاد نفر من زعمائهم ، وهما : السيد والعاقب ليعلنا إسلامهما على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ضيفهما بدار أبى أيوب الأنصارى ، أما من ظل على نصرانيته فانه التزم بما جاء فى الصلح الذى تم الاتفاق عليه(١٠٨) .

وذكروا أن أثناء وجود نصارى نجران بالمدنة جرت بينهم وبين اليهود بالمدينة محاججات ومناقشات حول نبى الله ابراهيم عليه السلام ، فنصارى نجران يقولون أنه على دين النصرانية ، واليهود يقولون أنه على دين اليهودية ، وقد اشتد بينهما النقاش فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم(١٠٩) ، فأنزل الله تبارك وتعالى : « يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما نزلت التوراه والانجيل إلا من بعده »(١١٠) .

فاليهودية لم تحدث إلا بعد نزول التوراة ، وكذلك النصرانية لم تحدث إلا بعد الانجيل والفترة الزمنية بين ابراهيم وموسى تقدر بنحو ألف سنة وبينه وبين عيسى ألفان فكيف يكون ابراهيم على دين لم يحدث الا بعده بزمن طويل(١١١) .

عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم على نجران :

كانت اليمن تحت النفوذ الفارسى ، وكان باذان آخر ولاة الفرس على اليمن فى الفترة التى ظهر فيها الاسلام ، وقد أسلم باذان ، فى السنة العاشرة من الهجرة فجعله رسول الله صلى الله عليه وسلم واليا عليها وعلى جميع مخاليفها ، ولكن بعد موته تغير النظام الادارى

---

(١٠٨) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٣٥٨ ، وانظر ابن حجر الاصابة فى تمييز الصحابة جـ ٤ ص ٣٠٩ .

(١٠٩) الذهبى : تاريخ الاسلام وطبقات مشاهير الاعلام مجلد ١ ص ٥٧٩ .

(١١٠) القرآن الكريم — سورة آل عمران : آية ٦٥ .

(١١١) الزمخشرى : تفسير الكشاف جـ ١ ص ١٧٩ .

فى حكم اليمن فأول مظاهر هذا التغير اختفاء السلطة المركزية من اليمن ، وتحولت الى مخاليف كبيرة كل مخلاف منها عليه عامل ، فيذكر الطبرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث ستة عمال من أصحابه الأكفاء ، بعث ثلاثة منهم الى اليمن ، وثلاثة الى حضرموت ، وحدد مناطق نفوذ كل واحد منها[١١٢] ولكن الطبرى فى موضع آخر أثناء حديثه عن العمال ذكر أن عددهم يزيد على الستة ، فيقول أن رسول الله : « استعمل عمرو بن حزم على نجران ، وخالد بن سعيد بن العاص على ما بين نجران ورمع وزبيد ، وعامر بن شهر على همدان ، وعلى بن شهر بن باذان أو باذام ، وعلى عك والأشعريين الطاهر بن أبى هاله ، وعلى مأرب أبا موسى الأشعرى وعلى الجند « فعدد هؤلاء العمال أكثر من ستة ، فربما هذه الزيادة ناتجة عن إضافة عمال الصدقات والقضاء والجنـــد[١١٣] .

فيبدو أن معلوماتنا عن العمال فى اليمن على عهد رســول الله صلى الله عليه وسلم تفتقر الى الوضوح ، فعدم وضوح الرؤية فى تعيين العمال على اليمن وحضرموت دفعت أحد الباحثين المحدثين الى القول أنه « لم يكن هناك نظام خاص بارسال العمال إذا كان الوقت وقت جهاد ودعوة ، وكانت المهمة الأولى لأولئك العمال هــو تعليم الناس أصول الدين والحكم بما جاء القرآن وسنة الرسول بلا التواء ولا تعقيد »[١١٤] .

ونحن هنا بصدد الحديث عن نجران وعمالها ، فهناك أيضا خلافات وقع فيها المؤرخين حول عمال نجران ، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه بعث اليهم عمرو بن حزم عاملا ومســئولا عن تعليم

---

(١١٢) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ١٢٢ وانظر الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٣ ص ٢١٣ .

(١١٣) الطبرى : الأمم والملوك جـ ٣ ص ٢١٤ .

(١١٤) الشماخى (القاضى عبد الله بن عبد الوهاب) : اليمــن الانسان والحضارة ص ٧٨ — ٧٩ ، دار الهنا للطباعة (بدون تاريخ) .

الناس أصول الدين[١١٥] ، واستمر فى ولايته حتى بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم[١١٦] ، وقد شهد عمرو مع رسول الله قبل ذهابه الى نجران غزوة الخندق وغيرها ، وكانت وفاته فى سنة (٥٣ هـ / ٦٧٢ م)[١١٧] .

ويذكر ابن خلدون فى تاريخه أن عمرو بن حزم بعث الى نجران مسئولا عن الصلاة ، وبعث أبو سفيان بن حرب الى نجران مسئولا عن الصدقات[١١٨] . أما اليعقوبى فيقول : إن الذى أرسل الى نجران هو فروة بن مسيك المرادى وأبو سفيان بن حرب[١١٩] ، والبلاذرى فى أنساب الأشراف يذكر عدة أقوال يرد فيها أحيانا شىء من التناقض ، فيقول أن عمرو بن حزم بعث الى نجران[١٢٠] ، وفى موضع آخر يقول : إن الذى بعث الى نجران هو أبو سفيان بن حرب ، وظل عليها حتى وفاة رسول الله ، معتمدا فى ذلك على قول ابن الكلبى ويدلل على ذلك أنه لما توفى رسول الله لم يكن أبو سفيان حاضرا بالمدينة ، ولكنه فى نفس الوقت ينقل خبرا عن الواقدى مفاده أن ابن سفيان كان موجودا فى المدينة عندما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعندما كان البلاذرى يتحدث عن توزيع العمال على مخاليف اليمن ، ذكر بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عوف بن مالك الى نجران[١٢١] ،

---

(١١٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٣ ص ٢١٤ . وانظر البلاذرى وانساب الاشراف جـ ١ ص ٥٣٨ — ٥٣٩ وانظر شباب : تاريخ خليفة بن خياط ص ٩٧ .

(١١٦) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٣ ص ١٥٨ .
تحقيق د. صلاح الدين المنجد . التراث العربى ، وزارة الاعلام ، الكويت ١٩٨٤ م .

(١١٧) الحافظ الذهبى : العبر فى أخبار من غبر جـ ١ ص ٥٨ .

(١١٨) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٢ ص ٨٥٩ .

(١١٩) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ١٢٢ .

(١٢٠) البلاذرى : أنساب الاشراف جـ ١ ص ٥٣٨ — ٥٣٩ .

(١٢١) البلاذرى : انساب الاشراف جـ ١ ص ٥٢٩ — ٥٣٠ .

كما عين راشد بن عبد ربه على القضاء المظالم بنجران ، وقد وصف هذا لتقوى ، وكان دائما يحث المسلمين على الجهاد لنشر العقيدة ، فقد سره كثيرا انتشار الاسلام من حدود الشام •

سروره بهذه القصيدة الطويلة التى نذكر منها :

وخبرها الركبـــان ان ليس بينهـــــا
وبين قرى بصرى ونجـــران كافرو(١٢٢)

نلاحظ فيما مر معنا من أقوال أن هناك اختلاف بين المؤرخين حول وظائف العمـــال على نجران ، ولكن فى الحقيقة لا وجـــود لمثـــل هذه الخلافات ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الى نجران أكثر من عامل ، فمنهم من يكون مسئولا عن القضايا الدينية ، كتعليم الناس أصول الدين وإقامة الصلاة ، ومنهم من يكون عاملا على القضاء فى المظالم ، ففى أثناء حديث المؤرخين عن العمال على نجران نلاحظ أن بعضهم أوضح وظيفة كل عامل ، كما صنع ابن خلدون مثلا : فقال أن عمرو بن حزم مسئولا عن الصلاة بنجران ، بينما أبو سفيان بن حرب فانه مسئولا عن الصدقات(١٢٣) ولكن البعض الآخر من المؤرخين اكتفى بالقول : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث فلانا عاملا على نجران دون أن يوضح طبيعة عمل هذا العامل •

أهل نجران يرتدون عن الاســـلام

لقد ارتد أهل نجران عن الاسلام فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على يد الأسود العنسى ، فقد كان مشعوذا بارعا فى الكلام ،

---

(١٢٢) ابن عبد ربه (ابو عمر احمد بن محمد) : العقـــد الفريد ج ٢ ص ٥١ باعتناء أحمد أمين وآخرون ، دار الكتاب العربى ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٤ م •

(١٢٣) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٢ ص ٨٤٤ ، وانظر ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ٥١ •

وقد ادعى النبوة[١٢٤] ، فانخدعت به قبائل نجران وغيرها من قبائل اليمن ، وكانت بداية ظهوره وادعائه النبوة فى السنة الحادية عشرة من الهجرة ، بعد حجة الوداع لما علم بمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى طريقه الى المدينة ، وهو غير مرضه الذى توفى فيه[١٢٥] ، وقد تعاطف أهل نجران معه وأيدوه ، فلما علم بنو الحارث بن كعب وقبائل مذحج دعوه الى بلادهم ، فقدم اليهم على رأس قوة عسكرية بلـــغ عددها خمسة آلاف مقاتل وجميعهم من قبائل حمير[١٣٦] ، وتمكن من دخول نجران ، وكان عمرو بن جزم عاملا عليها من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج منها متوجها الى المدينة[١٢٧] .

وقد مكث الأسود العنسى أياما بنجران ثم تحول عنها الى صنعاء لأنها أكثر حصانة من نجران ، ورحل معه ستمائة فارس من بنى الحارث ابن كعب مؤيدين ومناصرين اه ، وقد واجه مقاومة عنيفة من الأبناء وهم المسلمون من الفرس[١٢٨] ، ومن قبائل اليمن التى تمسكت باسلامها فكذبوا مزاعمه ، وقد قاد هذه المقاومة شهر بن باذان ، ابن والى اليمن السابق ، ولكن الاسود العنسى كان أقوى منه فقضى عليه ، فقتل القائد شهر بن باذان ، واستولى الاسود على صنعاء[١٢٩] .

---

(١٢٤) والاسود العنسى ادعى النبوة الا انه لا ينكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان يضع خمارا أسود رقيق على وجهه ، ويدعى أن الوحى ينزل عليه وبواسطة ملكين هما : (سحيقا وسقيفا) ، فكان يقول بعض الكلام المسجوع على أنه نزل عليه من الله ، ولديه حمار قد دربه على بعض الأعمال ، فكان يقول له أسـجد فيسجد ، وقد افتتن الناس بخماره وحماره فتبعه منهم خلق كثير . انظر المقدسى (مظهر بن طاهر) : البدء والتاريخ جـ ٥ ص ١٥٤ ، باريس ١٨٩٩ م .

(١٢٥) ابن الأثير : الكامل جـ ٢ ص ٣٣٧ .

(١٢٦) الحميرى : الروض المعطار ص ٥٧٤ .

(١٢٧) ابن الأثير : الكامل جـ ٢ ص ٣٣٧ .

(١٢٨) الحميرى : الروض المعطار ص ٥٧٤ .

(١٢٩) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٣ ص ٢١٤ .

وقد استفحل أمر الاسود باليمن واتسع نفوذه فشمل نجران والطائف وصنعاء وحضرموت وعدن وامتد نحو الشرق حتى شمل البحرين وأجزاء أخرى من الخليج العربى ، وقد اضطربت أوضاع المسلمين باليمن وأصابهم الخوف الشديد من بطش الاسود العنسى ، فكانوا يتعاملون معه من منطلق مبدأ التقيه ليأمنوا على أرواحهم(١٣٠) ، فكانت حركة الاسود العنسى خطرا جسيما على الاسلام والمسلمين باليمن ، ربما لأنها حدثت فى فترة حرجة من تاريخ الدولة الاسلامية ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم قائد الأمة ورئيس الدولة كان على فراش المرض ، هذا فضلا عن الأوضاع المضطربة داخل اليمن فهناك من لم يدخل الاسلام أو دخل ثم ارتد ، وهناك من ظل على اسلامه ، وهؤلاء يشكلون العدد الأقل الى جانب أهل الذمة ، فى ظل هذه الظروف السيئة التى تمر بها الأمة الاسلامية قامت حركة الاسود العنسى ، إلا أن هذه الحركة لم يكتب لها النجاح ، والحديث عنها سوف يبعدنا عن دائرة البحث ، ولكن أشرنا اليها بقدر ما كان لها من صلة بمدينة نجران .

وقد تصدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحزم وقوة لهذه الحركة ، ثم وجه نداء الى المسلمين المحاصرين بنجران والى قادة المسلمين باليمن يحثهم على الصبر وتوحيد الصفوف ليتمكنوا من قهر عدوهم ، والطبرى ينقل لنا نص هذه الرسالة « الى أهل نجران الى عربهم وساكن الأرض من غير العرب ، فثبتوا فنجوا وانضموا الى مكان واحد »(١٣١) . ويعنى بساكن الأرض من غير العرب المسلمين من غير العرب ، وهم الفرس عرفوا بالأبناء .

كان لهذه الرسالة التى وصلت اليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم التأثير البالغ على نفسياتهم ، فأعادت الثقة والطمأنينة إليهم ،

---

(١٣٠) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٢ ص ٨٤٤ .

(١٣١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ٢١٦ .

كما أزالت الخوف والرعب من قلوبهم فتحركوا جبهة واحدة ضد الأسود العنسى ، فتمكنوا من دخره والقضاء على حركته وعلى المرتدين باليمن[١٣٢] .

نجران فى العهد الراشدى :

بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت بعض قبائل اليمن على الاسلام فبعث الخليفة أبو بكر اليهم جرير بن عبد الله ، والأقرع ابن عبد الله ، ووبر بن يحنس[١٣٣] ، وقد كلف جرير بن عبد الله أن يستنفر المسلمين باليمن لمحاربة المرتدين بنجران وفى غيرها من مخاليف اليمن ، وقد قضى على الردة بنجران وهدأت واستقر أمرها ، وقد أقام بنجران ينتظر أوامر الخليفة حسب وصية أبو بكر له[١٣٤] ، ثم جعله بعد ذلك عاملا عليها[١٣٥] .

أما نصارى نجران الذين كانوا قد تصالحوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وفق شروط قد وضعت فى هذه الاتفاقية ، فانهم لما علموا بوفاة رسول الله ، أرادوا أن يجددوا العهد مع خليفة رسول الله ، فبعثوا وفدا الى أبو بكر ، وتم الاتفاق على تجديد العهد ، ومما جاء فى هذا الاتفاق ، أن يضمن لهم الأمان ، ويوافق على ما جاء فى صلح رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم ، ما داموا ملتزمين بشروط هذا الصلح ، كما بين لهم موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الديانات

---

(١٣٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ٢١٦ .

(١٣٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ٢٦٤ ، وانظر النويرى (شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب) : نهاية الأرب ج ١٩ ص ١٤٤ تحقيق على محمد البجاوى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م ، القاهرة ، وانظر ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٢ ص ٨٦٣ — ٨٦٤ ، وانظر ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٤٢١ .

(١٣٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٦٤ ، وانظر النويرى : نهاية الأرب ج ١٩ ص ١٤٤ .

(١٣٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ٥١ .

السماوية ، اليهودية والنصرانية ، وروى لهم الحديث القائل : « لا يسكن دينان فى أرض العرب » ، ولكنهم الآن محميين فى مظلة الاتفاقية التى عقدوها مع رسول الله ، فلا خوف عليهم ولهم الأمان(١٣٦) .

وقد كانت أعداد النصارى بنجران فى تزايد مستمر ، وقد أحس الخليفة عمر بن الخطاب بخطرهم على المسلمين بنجران وفى غيرها مكن مخاليف اليمن ، ولكن لا يستطيع فعل شىء تمنعه الاتفاقية المبرمة معهم ، وقد جاءت هذه الفرصة ، ففى سنة (٢٠ هـ — ٦٤٠ م) علم الخليفة عمر أنهم يتعاملون بالربا ، وهذا يعنى أنهم قد خرقوا نص من نصوص الاتفاقية التى أبرمت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأجلاهم من نجران ، انطلاقا من المبدأ القائل : « من نقض عهدا فلا ذمة له »(١٣٧) ، بعد أن اشترى منهم عقارهم وأملاكهم ، فبعضا منهم ذهب العراق ، والبعض الآخر ذهب الى الشام ، فالذين ذهبوا الى العراق استقروا بمدينة الكوفة ، فى هذه الفترة التى نتحدث عنها كانت الكوفة حديثة العهد لم يمض على بناءها إلا سنوات قلائل . وقد وجد نصارى نجران ثلاثة أديرة بناحية من نواحى الكوفة ، وهذه الأديرة هى دير حرقه ودير أم عمرو ، ودير سلسله(١٣٨) ، فسكنوا ضواحى هذه الأديرة ، وعرف المكان الذى استوطنوه باسم « النجرانية » نسبة اليهم(١٣٩) .

ويبدو أن عمر بن الخطاب قد تعاطف معهم بعد أن تركوا نجران ، فقد كتب الى عماله على العراق والشام يحسنوا معاملة نصارى نجران ، بأن يهيئوا لهم الأرض ، ولا يفرضوا شيئا من الخراج على ما تنتجه هذه الأرض من المحاصيل الزراعية ، فقد اعتبره صدقة

---

(١٣٦) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٣ ص ٢٦٥ — ٢٦٦ .
(١٣٧) البلاذرى : فتوح البلدان ق ١ ص ١٨٥ .
(١٣٨) النويرى : نهاية الأرب جـ ١٩ ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .
(١٣٩) البلاذرى : فتوح البلدان ق ١ ص ٧٨ — ٧٩ .

عليهم أو تعويضا عن أرضهم باليمن ، وأن ينصرونهم على ما ظلمهم ، وأن الجزية ساقطة عنهم لمدة ٢٤ شهرا[١٤٠] ، وبعد انقضاء هذه المدة تعود الجزية كما كانت تفرض على سائر أهل الذمة من النصارى واليهود • ويذكر البلاذرى أن يهود نجران الذين رحلوا مع النصارى دخلوا فى هذا الصلح ، وكانوا كالأتباع لنصارى نجران[١٤١] •

وقد قام نصارى النجرانية بالكوفة بتنظيم أنفسهم فجعلوا عليهم أميرا يطيعون أوامره ويسمعون كلامه ، فكانت الجزية المفروضة عليهم تجمع عند هذا الأمير ثم ترسل الى عامل الكوفة ، ولم تقتصر سلطاته على نصارى الكوفة فقط بل كان أيضا يبعث رسله الى نصارى نجران الموجودين بالشام ليجبى ما يفرض عليهم من الجزية وغيرها[١٤٢] •

وهناك قول آخر فى سبب إجلائهم من نجران مفاده كما يرويه لنا البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان أن نصارى نجران قد تزايدت أعدادهم ، وضاقت عليهم المدينة ، فبلغ عددهم نحوا من ٤٠ ألفا ، هذا الى جانب ما أصابهم من التباغض والتحاسد ، فرفعوا أمرهم الى عمر بن الخطاب وطلبوا منه أن يجليهم من بلادهم ، فاغتنم عمر هذه الفرصة لاسيما وأنه كان متخوفا منهم على المسلمين بنجران ، فلبى طلبهم وأجلاهم من نجران الى الشام والعراق ، بعد ذلك ندموا على ما فعلوا • فعادوا الى عمر يسألونه أن يلغى قرار الاجلاء ، ولكنه رفض وأصر على اجلائهم[١٤٣] •

ويبدو أن أوضاع نصارى النجرانية بالكوفة لم تكن على ما يرام فتذكر الأخبار أنهم ذهبوا الى على بن أبى طالب فى خلافته يطلبون منه

---

(١٤٠) البلاذرى : فتوح البلدان ق ١ ص ٧٨ — ٧٩ ، وانظر ابن سعد : الطبقات ج ١ ص ٣٥٨ •

(١٤١) البلاذرى : فتوح البلدان ق ١ ص ٧٨ •

(١٤٢) البلاذرى : فتوح البلدان ق ١ ص ٨٠ •

(١٤٣) البلاذرى : فتوح البلدان ق ١ ص ٧٩ •

أن يعيدهم الى مدينتهم نجران ، وأقسموا عليه بشفاعته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ما أعادهم الى اليمن ، فرد عليهم على بن أبى طالب : « أن عمر رشيد الأمر وأنا أكره خلافه »(١٤٤) .

وكانت لنصارى نجران فى مسألة اجلائهم عن بلادهم نجران أقوال ، وهذه الأقوال يغلب عليها الطابع الغيبى ، فقد زعموا كما ورد فى كتبهم أن الذى يخرجهم من أرضهم رجل بفخذه شامه وقد وجدوا هذه الشامة بفخذ عمر بن الخطاب(١٤٥) .

وعن عمال اليمن فى عهد عمر بن الخطاب ، فقد كان يعلى بن أمية عاملا على اليمن منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، وعهد عمر ، فكان مسئولا عن نجران ورفع وهمدان وصنعاء وعك ومأرب والجند . وقد استدعاه عمر بن الخطاب أكثر من مرة لاستجوابه فى بعض الأمور لأخبار بلغته عنه وأعاده عاملا على نجران ، وظل عاملا عليها حتى عهد على بن أبى طالب ، وقد قتل فى جيش على بن أبى طالب فى معركة صفين(١٤٦) .

ولما تولى عثمان بن عفان الخلافة ، ذهب إليه رهط من نصارى نجران يتقدمهم أسقفهم ، يشكون أوضاعهم الاقتصادية فأرسل من يطلع على أوضاعهم ، ولما تأكدوا له سوء أوضاعهم ، كتب الى الوليد بن عقبة ابن أبى معيط عامله على الكوفة ، بأن يخفف عنهم ويسقط عنهم مائتى حلة من مجموع الحلل التى كانوا يؤدونها لبيت المال زمن عمر بن الخطاب ، وقد أوصاه بحسن معاملتهم لأنهم أهل ذمة(١٤٧) .

---

(١٤٤) البلاذرى : فتوح البلدان ق ١ ص ٧٩ ، وانظر ابن الأثير : الكامل جـ ٢ ص ٢٩٤ .

(١٤٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ٣ ص ٣٢٦ .

(١٤٦) شرف الدين : تاريخ الفكر الاسلامى فى اليمن ص ٢١ — ٢٢

(١٤٧) البلاذرى : فتوح البلدان ق ١ ص ٧٨ — ٧٩ ، وانظر ابن الأثير : الكامل جـ ٢ ص ٢٩٤ .

وفى عهد الخليفة على بن أبى طالب ، فقد كان للخلافات التى جرت بينه وبين معاوية بن أبى سفيان تأثير بالغ على اليمن ، فقد بعث معاوية فى سنة (٤٠ هـ — ٦٦٠ م) بسر بن أرطأة الى اليمن على رأس ثلاثة آلاف من المقاتلين[١٤٨] . لينكل بأهلها ، لأن معظمهم كان يميل مع على ابن أبى طالب ويتعاطف معه ، حيث أنهم كانوا شيعة وأتباع له ، وكان عبد الله بن عباس عاملا على اليمن لعلى بن أبى طالب ، فلما علم بقدوم بسر بن أرطأة الى اليمن هرب الى الكوفة والتقى بعلى بن أبى طالب ، وقبل أن يترك اليمن خلف عليها عبد الله بن عبد المدان الحارثى ، وكان هذا ضمن وفد بنى الحارث بن كعب أهل نجران الذين قابلوا النبى صلى الله عليه وسلم . ولما وصـــل بسر بن أرطاة اليمن قبض على عبد الله بن عبد المدان وأمر بقتله ، كما قتل طفلين صغيرين لعبيد الله ابن عباس ، ولما بلغ الخبر عليا ، بعث جارية بن قدامة فى ألفين رجل ، ووهب بن مسعود بنفس العدد ، فتوجه جارية الى نجران ، فقتل جماعة ممن ناصروا بسر ، وهرب بسر وأتباعه ، فلحقهم جارية حتى أتى مكة[١٤٩] .

وبمرور الوقت فان أعداد نصارى نجران الذين توزعوا فى العراق والشام أخذت فى التناقص ، بسبب دخول بعضهم فى الاسلام وموت البعض الآخر ، فقل عددهم وأحسوا بثقل الضريبة عليهم ، لأن عددهم الآخذ فى التضائل لا يتناسب مع ما يدفعونه من ضريبة ، فلما قامت الدولة الأموية وذهبوا الى معاوية أو ابنه يزيد يشكون إليه أوضاعهم المتردية وما آل اليه أمرهم ، وأخرجوا له كتاب عثمان بن عفان وما قرر عليهم من ضريبة ، فأمر باسقاط مائتى حلة ، فكان مقدار ما أسقط

---

(١٤٨) محمد بن على (يحيى بن الحسين بن القاسم) : غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ق ١ ص ٩٦ . تحقيق د. سعيد عاشور . دار الكاتب العربى . القاهرة ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م .

(١٤٩) ابن الأثير . الكامل جـ ٣ ص ٣٨٤ ، وانظر النويرى : نهاية الأرب جـ ٢ ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ .

عنهم ٤٠٠ حلة[١٥٠] وقد نقض هذا الاتفاق زمن عبد الملك بن مروان لتمويل جيشه الذى كان يحارب الثائر عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، فهذه الثورة كلفت الحجاج الكثير من المال ، فأمر برفع الضريبة على نصارى نجران وإعادتها على ما كانت عليه قبل عهد الخليفة عثمان ، وحتى يجد له تبريرا لهذا العمل ، فانه اتهم الدهاقين — بتعاطفهم مع نصارى نجران لذلك فقد أقر عليهم ، بزيادة مائة حلة عما كانوا يدفعونه زمن الخليفة عثمان[١٥١] .

وقد كان لهذا القرار أثر سيىء على نصارى نجران لا سيما على أوضاعهم الاقتصادية ، واستمروا على هذه الحالة حتى زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى كان متفهما لأوضاعهم ، فقد سمعوا عن عدله وحبه لرعيته ، فذهبوا إليه يشكون ثقل الضرائب وتعدى الاعراب عليهم بالاغارة والنهب ، فأمر عمر بن عبد العزيز باحصاء نفوسهم فوجد أن عددهم فى تناقص ، فقد وصل عددهم عشر ما كانوا عليه ، فأمر باسقاط ما كانوا يدفعونه من الحلل والضرائب وأقر مكانها بجزية على رؤوسهم كما ألزمهم بدفع مائتى حلة فقط ، تساوى قيمتها ٨٠٠٠ درهم[١٥٢] . ولم يقتصر اهتمام عمر بن عبد العزيز بنصارى نجران فقط وإنما كان على جميع النصارى فى أرجاء الأنصار الاسلامية[١٥٣] .

ولكن يبدو أن هذه الاصلاحات التى سنها عمر بن عبد العزيز مع أهل الذمة من نصارى نجران وغيرهم كان عمرها قصيرا ، فلم ينعموا بها طويلا ، فقد انتهت بموت الخليفة عمر بن عبد العزيز ، الذى كان

---

(١٥٠) البلاذرى : فتوح البلدان ق ١ ص ٨٠ ، وانظر ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٢٩٤ .

(١٥١) البلاذرى : فتوح البلدان ق ١ ص ٨٠ ، وانظر ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٢٩٤ .

(١٥٢) البلاذرى : فتوح البلدان ق ١ ص ٨٠ ، وانظر ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٢٩٤ .

(١٥٣) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ١٥٠ .

قد تولى الخلافة من سنة (٩٩ — ١٠١ هـ / ٧١٧ — ٧١٩ م) ، انتهت هذه الاصلاحات على يد يوسف بن عمر والى العراق من قبل الوليد ابن يزيد الذى خاف عمر بن عبد العـزيز ، فقد أعاد الضريبة على نصارى نجران ، وألزمهم بأن يدفعوا ١٣٠٠ حلة ، ولم يكن ذلك بدافع حاجته الى المال وإنما تعصبا للحجاج بن يوسف ، دون مراعاة لأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية[١٥٤] .

ولم تكن الأوضاع الاجتماعية لنصارى نجران بالكوفة بأفضل من أوضاعهم الاقتصادية ، فلم تكن لهم كلمة مسموعة عند أمراء الكوفة ، والشاهد على ذلك ما ينقله لنا البلاذرى فى كتابه أنساب الأشراف أن الأمير مصعب بن الزبير والى العراق لأخيه الخليفة عبد الله بن الزبير ، بغضب من أحد أساقفة نجران عندما سأله فى قضاء حاجته ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ضربه بغضب من حديد كان بين يديه ، وقد أعقب ذلك جوار دار بينه وبين الأسقف ، أدى الى خجل الأمـير مصعب ، فأمر بقضاء حاجة الأسقف[١٥٥] .

العباسـيون ونصـارى نجران :

لما نجح العباسيون فى القضاء على الأمويين ، وانتخب أبو العباس السفاح كخليفة أول لهم ، حاول نصارى نجران الذين يسكنون الكوفة كسب وده ، فاستغلوا مناسبة اختياره خليفة فاستقبلوه بالورد والرياحين ونثروها عليه ، فاستحسن عملهم ، وفى أثناء وجوده بالكوفة رفعوا اليه ما يعانون من ثقل الضرائب عليهم ، وتشفعوا اليه بأخواله بنى الحارثة ابن كعب النجرانيين ، وهم فى نفس الوقت أبناء عم لهم ، وقد توسط عبد الله بن الحارث وكلم أبو العباس فى موضوع الضرائب فأسـقط ما كانوا يدفعونه ، وقرر عليهم ٢٠٠ مائتى حلة فقط ، ولما تولى هارون

---

(١٥٤) البلاذرى : فتوح البلدان ق ١ ص ٨٠ ، وابن الأثير : الكامل جـ ٢ ص ٢٩٤ .

(١٥٥) البلاذرى وأنساب الأشراف جـ ٥ ص ٢٨٢ .

الرشيد شكوا إليه أوضاعهم فتعاطف معهم وأسـقط عنهم شىء منها[١٥٦] .

وقد أخذت أعداد نصارى نجران الموجودين بالكوفة تتناقص مع مرور الوقت ، بسبب دخول بعضهم فى الاسلام ، وقد أدى ذلك الى ضعف وحدتهم وتماسكهم ، فساحوا فى أرض العراق ، وقد تبوأ بعضهم من الذين دخلوا فى الاسلام أعلى المراتب الدينية ، يفتون فى كثير من القضايا الدينية ، من هؤلاء : عبيد الله بن عبد الله بن نجران البصرى ، وعبد الرحمن بن أبى نجران الكوفى ، وكان على مذهب الشيعة وأحد علمائها[١٥٧] .

والى جانب هؤلاء نصارى نجران الذين اعتنقوا الاسلام ، هناك المسلمين من أهل نجران ، فقد وصل بعضهم الى أعلى المراتب الدينية ، مثل : عبيد الله بن عباس بن الربيع النجرانى ، من رجال الحديث ، وقد روى عنه محمد بن بكر بن خالد النيسابورى ، وكذلك المحدث بشر بن رافع النجرانى ، وأبو عبد الملك محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى ، ويسمى الأنصارى لأنه ولد بنجران على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حدود سنة (١٠ هـ / ٦٣١ م) ، وكان من المحدثين ، وقد روى عنه الكثير من العلماء . فهذه المكانة العلمية الرفيعة التى يتمتع بها علماء نجران دفعت الشعراء الى امتداحهم والثناء عليهم[١٥٨] .

أما عن العلاقات السياسية التى تربط العراق زمن العباسيين بنجران اليمن ، فلم نجد لها أى دور سياسى بارز خلال هذه الفترة من الزمن ، وانما حديث المصادر اقتصر على ذكر العمال من حيث عمليات العزل

---

(١٥٦) ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٢٩٥ .

(١٥٧) قايماز الذهبى : المشتبه فى الرجال أسمائهم وانسابهم ج ٢ ص ٦٣٢ .

(١٥٨) الاكوع (القاضى اسماعيل بن على) : البلدان اليمانية ص ٢٧٦ .

والتولية على اليمن دون الاشارة الى نجران ، فعندما تولى أبو العباس السفاح أحدث تقسيمات ادارية ووزع عماله على الأمصار الاسلامية ، فعين عمه داود بن على على اليمن ، ثم عزله ، ولم تعرف سبب العزل ، ثم ولاها عمر بن عبد الحميد الخطابى ، ثم عزاه وعين خاله زياد بن عبد الملك بن عبد المدان النجرانى[159] . وبعضهم يقول : ولى على نجران واليمامة فقط[160] ، وبعده تولاها ابنه محمد بن زياد ، وفى سنة (١٣٥ هـ — ٧٥٢ م) توفى محمد بن زياد ، فأقر مكانه على بن الربيع ابن عبيد الله الحارثى[161] .

ولما تولى أبو جعفر المنصور لم يكن لنجران أى فعاليات سياسية ، وانما اقتصر الحديث على تعيين العمال على اليمن ، فمن عماله على اليمن عبد الله بن الربيع الحارثى ، ثم عزله وعين مكانه معن بن زائدة السيبانى فى سنة (١٤٢ هـ — ٧٥٩ م) ، ثم عزله وولاها الحجاج بن منصور ثم عزله وأقر مكانه الفرات بن سالم ، ثم ولاها يزيد بن منصور ، واستمر عليها واليا عليها حتى موت أبو جعفر المنصور[162] .

وفى عهد المهدى بن المنصور استمر يزيد بن منصور ثم عزله وولى مكانه رجاء بن روح ، ثم على بن سليمان من أسرة بنى العباس ، ثم عزله وولاها سليمان بن يزيد الحارثى ، ثم عبد الله بن سليمان الهاشمى[163] .

ولما ولى المأمون بن الرشيد قامت باليمن سنة (٢٠٧ هـ — ٨٢٢ م) ، ثورة ضد المأمون تزعمها عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله ، ويتصل نسبه بعلى بن أبى طالب ، ويذكر الطبرى أن السبب الرئيسى

---

(١٥٩) شباب : تاريخ خليفة بن خياط ص ٤١٣ .
(١٦٠) الحكمى : تاريخ اليمن ص ١٥٨ .
(١٦١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٩ ص ١٥١ .
(١٦٢) شباب : تاريخ خليفة بن خياط ص ٤٣١ .
(١٦٣) شباب : تاريخ خليفة بن خياط ص ٤٤٠ .

لثورته هو انحراف عمال بنى العباس عن الطريق الصحيح ، ولكن هذه الثورة لم يكتب لها النجاح ، فقد قضى عليها بالطرق السلمية ، ثم بعث المأمون ، دينار بن عبد الله فى جيش كبير العدد الى اليمن ، ولكن القائد دينار لم يستخدم القوة مع الثائر عبد الرحمن ، وانما تمكن من استمالته بالطرق السلمية ، وعاد مع الثائر الى المأمون فى بغداد ، بعد أن أخذ له الأمان • وفى سنة (٢١٣ هـ — ٨٢٨ م) خلع أحمد بن محمد العمرى المعروف بأحمر العين عن ولاية اليمن ، وأقر المأمون مكانه ، محمد بن عبد الحميد المعروف بأبى الرازى[١٦٥] ، ولكن أبى الرازى قتل بعد سنتين من تولية اليمن أى فى سنة (٢١٥ هـ — ٨٣٠ م)[١٦٦] • وتولى مكانه عبد الله بن عبيد الله بن العباس من الاسرة العباسية[١٦٧] •

ويبدو أن الاضطرابات والمناوئة للحكم العباسى فى اليمن هى السمة الغالبة على الأوضاع خلال هذه الفترة ، فولائهم للعباسيين كان ضعيفا ، وقد قام المأمون بمحاولات لاعادة السيطرة على اليمن ، ولكن معظم هذه المحاولات لم تحقق الأمل المرجو منها ، فقد حكم بنو زياد صنعاء وصعدة ونجران وبيحان وحالى وتهامة ، وكان محمد بن عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان أول من تولى السلطة فى اليمن سنة (٢٤٠ هـ — ٨٥٤ م) ، ثم تولاها ابراهيم بن محمد سنة (٢٤٥ هـ — ٨٥٩ م) ثم زياد بن ابراهيم سنة (٢٨٩ هـ — ٩٠١ م) واستمر بنو زياد يتعاقبون على السلطة باليمن[١٦٨] •

---

(١٦٤) تاريخ الأمم والملوك ج ١٠ ص ٢٦٤ .

(١٦٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١٠ ص ٢٧٩ .

(١٦٦) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١٠ ص ٢٨٠ .

(١٦٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١٠ ص ٢٨٢ .

(١٦٨) الحكمى : تاريخ اليمن ، هامش (١) ص ٢٦٧ .

الفعاليات الاقتصادية لنجران :

ان الاقتصاد الاسلامى قديما كان يعتمد بالدرجة الأولى على الزراعة ، فالأمصار التى تكون لديها وفرة فى الانتاج نقوم بتصديره الى الخارج ، وقد قامت على بعض هذه المنتجات الزراعية والصناعية ، مثل المنسوجات تجارات واسعة بين الشرق والغرب ، لا سيما التوابل والعقاقير وغيرها ، فالتبادل التجارى يتم فى العادة عن طريق المقايضة أو بالنقد ، كما نشطت الصناعات ، لا سيما صناعة المنسوجات القطنية والكتانية والحريرية .

فنجران التى نحن بصددها من المدن الاسلامية التى تتمتع بتربة خصبة صالحة للزراعة ، فهى تقع على جانبى الوادى الذى عرف باسمها « وادى نجران » . فهو يخترقها من الجنوب الى الشمال وقد أكسب تربتها خصوبة عالية بفضل ما تلقيه المياه من الطمى على جانبى الوادى ، هذا فضلا عن مناخها الجيد ، الذى يميل الى الجفاف لقربه من الصحراء وبعده عن البحر الذى يولد الرطوبة ، وقد دفعت هذه المميزات أحد المؤرخين الى القول : « ان أطيب بلاد اليمن نجران »[١٦٩] .

وقد أثنى الجغرافيون القداما على الزراعة بنجران ، فمن المحاصيل الزراعية التى تنتجها نجران ، الحبوب بأنواعها ، مثل الحنطة ، الذرة البيضاء والصفراء والحمراء والغبراء ، والحمص ، والباقلى ، كذلك السمسم الذى تنتجه نجران وهو من أفضل الأنواع[١٧٠] .

كما اشتهرت نجران بكثرة النخيل ، ولكثرته كانت له أسماء كثيرة ، منها البعل ، والسمراء ، التى يجاوز ارتفاعها حد المؤلوف ،

---

(١٦٩) الحوالى : اليمن الخضراء ص ١٥١ — ١٥٢ .

(١٧٠) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ص ١٩٩ .

ويكون انتاجها اضعاف ما تنتجه أشجار النخيل الاخـرى[١٧١] • وأجود أنواع التمور توجد بنجران ، وكمياتها وفيرة وذات أنواع مختلفة ، منها نوع يطلق عليه « المدبس » وقد امتدحه الهمدانى صاحب كتاب صفة جزيرة العرب ، بقوله : « الذى لا يلحق به بردى[١٧٢] خيبر » ، ومن هذه التمور « العسب » تعمل منه الحلاوة بعد ما يعجن مع الطحين • ويروى لنا الهمدانى أن أباه كان يقول له : دخلت « الكوفة وبغداد والبصرة وعمان ومصر ومكة وأكثر بلاد النخل وطعمت التمرات ما رأيت مثل مدبس نجران وجوده وعظم ثمره خاصة التمرة تملأ الكف »[١٧٣] •

ومن منتجات نجران « الأترج » ؟ وهو نوع من الحمضيات حجمها كبير[١٧٤] ونجران تنتج الكثير من المحاصيل الزراعية غير التى أشرنا اليها حتى أن أحدهم يصفها بأنها « نجران الحقول »[١٧٥] •

ولم يقف نشاط نجران على الزراعة وحدها ، بل أيضا كان لها نشاط بارز فى مجال الصناعة لا سيما صناعة النسيج ، فقد اشتهرت نجران بصناعة « الحلل » ، وهى الحلل اليمانية الشهيرة التى تغنى بها الشعراء ، ويطعم نسيجها بخيوط الحرير[١٧٦] ، وقد طلب الامويون فى عهدهم من أهل نجران أن يضعوا لهم الحلل من أجل كساء الكعبة الشريفة ، وكانت هذه الحلل مطعمة بالديباج[١٧٧] •

---

(١٧١) الحوالى : اليمن الخضراء ص ١٥٢ •

(١٧٢) البردى : نوع من التمور ، من أجود أنواعه يزرع بنجران وكذلك بالحجاز ، ابن منظور : لسان العرب ج ٣ ص ٨٧ •

(١٧٣) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ص ١٩٩ •

(١٧٤) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ص ٢٠٠ •

(١٧٥) معجم ما استعجم ج ٤ ص ١١٢٩ •

(١٧٦) أمين (الاستاذ أحمد) : فجر الاسلام ص ٢٦ ، مكتبة النهضة المصرية • القاهرة ١٩٦٥ • وانظر الحوالى : اليمن الخضراء ص ١٥٢ •

(١٧٧) البلاذرى : فتوح البلدان ق ١ ص ٥٥ •

كذلك اشتهرت مدينة نجران بصناعة الجلود ، وقد تركزت مدابغ الجلود فى مدينة نجران وجرش وخيوان وصعدة[١٧٨] ، وكانت نجران والمدن التى ذكرناها تصدر هذه الجلود المدبوغة الى الخارج ، وقامت على الجلود تجارة واسعة مربحة ، فكان يصدر الى نواحى اليمن والى العراق وخرسان وما وراء النهر ، والى مكة ، ويعتبر تجار البصرة هم الوسطاء الذين يقومون بنقل هذه السلعة[١٧٩] .

وقد أشاد الهمدانى الى دقة صناعة الجلود بنجران لا سيما ما يصنعونه من المحافظ وتسمى « الجرب » ، وتصنع من الجلود السميكة وبأحجام مختلفة ، وهذه الجرب أو المحافظ لها استعمالات كثيرة ، منها ما يوضع به الطعام للاسفار ، وأحيانا توضع بها النقود ، الدراهم الفضية والدنانير الذهبية ، وكانت من الكبر بمكان حتى أنها تتسع لوضع ما يقارب من عشرين ألف دينار من الذهب[١٨٠] .

وتاريخ نجران التجارى قديم جدا حتى أنها تعد واحدة من الأسواق التجارية فى العصر الجاهلى ، وهى من المدن التاريخية القديمة فى جنوب شبه جزيرة العرب ، فقد ذكرها الهمدانى أثناء حديثه عن أسواق العرب وقال : أن الأسواق المشهورة عند العرب فى العصر الجاهلى هى : « عدن ، مكة ، الجند ، نجران ، ذو المجاز ، عكاظ ، وبدر ، ومجنة ، ومنى ، وحجر اليمامة ، وهجر البحرين »[١٨١] .

وكانت أسواق نجران فى الجاهلية والاسلام تعج بالحركة التجارية ، ومما يؤكد ذلك قول ابن المجاور : « وعليها المغول فى البيع والشراء[١٨٢] .

---

(١٧٨) الادريسى (أبو عبد الله محمد بن محمد) : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ص ١٥١ روما ١٩٧٠ .

(١٧٩) ابن المجاور : تاريخ المستبصر جـ ١ ص ٨٩ ، ٩٧ ، ١٤٠ .

(١٨٠) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ص ٢٠٠ .

(١٨١) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

(١٨٢) ابن المجاور : تاريخ المستبصر جـ ١ ص ٢٠٩ .

فكان التبادل التجارى يتم فى أسواقها بين التجار القادمين اليهـا من العراق وفارس وبلاد الروم ، فكان التجار يجلبون سلعهم ويبيعونها بالمقايضة بسلع افريقية التى تصل الى أسواق نجران[١٨٣] .

وترتبط مدينة نجران بباقى مدن العالم القديم والاسـلامى بشبكة من الممرات والطرق التجارية الهامة ، فبعض هذه الطـرق قديم ، يعود الى عهود الفرس والروم ، وبعضها اسـتحدث فى الاسلام وقد قام حكام المسلمين بتطوير هذه الطرق وادخال التحسينات عليها ، فنذكر ما قام به العباسيون من تنظيمات للطرق التى تربـط عاصمتهم بغداد بباقى الأقطار ، ولعل هذه التنظيمات تكون واضحة فى الطريق الذى يربط بغداد بمكة المكرمة « طريق الحج » ، ففى سنة (١٣٤ هـ ــ ٧٥١ م) فى عهد أبو العباس السفاح ، وضعوا على طول هذا الطريق علامات لتقدير المسافات بين المراكز التى يتوقف عندها رسل البريد والتجار وغيرهم من المسافرين ، وقد حسبوا هذه المسـافات بالأميال[١٨٤] ، كما زودوا هذه المراكز بالمياه لاستراحة الحجاج وطلاب العلم وغيرهم[١٨٥] .

وقد أمر المهدى سنة (١٦٦ هـ ــ ٧٨٢ م) باقامة البريد على طول هذه الطرق التى تربط بغداد بمكة حتى اليمن[١٨٦] ، وكان الرشيد

---

(١٨٣) كحاله : جغرافية شبه جـزيرة العرب ص ٢٣١ هامش رقم (١) .

(١٨٤) العلى : طرق المواصلات فى الحجاز فى (مجلة العرب ج ١١ ص ٩٧٥ للسنة الثانية) الرياض ١٣٨٨ هـ ــ ١٩٦٨ م .

(١٨٥) القلقشندى (أحمد بن عبد الله) : مآثر الانافة فى معـالم الخلافة ج ١ ص ١٨٦ تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، مطبعة حكومة الكويت طبعة مصورة ١٩٨٥ م .

(١٨٦) المقريزى (تقى الدين : الذهب المسبوك بذكر من حج الخلفاء والملوك ص ٤٥ تحقيق د. جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٥ م .

ابن المهدى أكثر اعتناءا بهذه الطرق لأنه كان دائم التردد على مكة والمدينة ، فزاد بانشاء مصانع المياه وحفر الآبار والبرك وقد كان لهذه التنظيمات آثر طيب على الحجاج والتجار ، ومن التنظيمات التى أدخلت على هذا الطريق ما قام به الأمير البويهى عضد الدولة سنة (٣٩٦ هـ — ١٠٠٠ م)[١٨٧] .

وكانت وسائط النقل التى اعتمد عليها التجار فى نقل بضائعهم عن طريق البر ، الابل لا سيما فى الطرق الصحراوية الرملية ، أما فى الطرق التى تكثر فيها المرتفعات والجبال والوديان فانهم يستخدمون البغال والحمير[١٨٨] ، ونادرا ما يستخدمون الخيول ، فالخيل لها مكانة خاصة عند العرب فهى أجل من أن تستخدم لحمل الأثقال ، فقد قال أحدهم : « لا تسمه حصانى بل سمه ولدى »[١٨٩] .

---

(١٨٧) ابن الأثير : الكامل جـ ٧ ص ١٠٠ .

(١٨٨) المقريزى : الذهب المسبوك ص ٤٥ .

(١٨٩) ول دورنت : قصة الحضارة جـ ٢ مجلد ٤ ص ١٠٩ . ترجمة محمد بدران .

ضـــمائم البحـــث

وتحتوى على رسائل تبودلت بين نجران والمدينة

فى عهـد الرسـول والعهـد الراشـدى

١ ــ رسالة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بها خالد بن الوليد من نجـران :

(بســم الله الرحمن الرحيم لمحمد النبى رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد بن الوليد .. الســلام عليك يا رسول اللــه ورحمة الله وبركاته ، فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو . أما بعد يا رسول الله صلى الله عليك فانك بعثتنى الى بنى الحارث بنى كعب وأمرتنى اذا أتيتهم ألا اقاتلهم ثلاثة أيام أدعوهم الى الاسلام فان أسلموا قبلت منهم وعلمتهم معالم الاسلام وكتاب الله وسنة نبيه وان لم يسلموا قاتلتهم ، وانى قدمت عليهم فدعوتهم الى الاسلام ثلاثة أيام كما أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعثت فيهم ركبانا يا بنى الحارث أسلموا تسلموا فاسلموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيم بين أظهرهم بما أمرهم الله به وانهاهم عما نهاهم الله عنه وأعلمهم معالم الاسلام وسنة النبى صلى الله عليه وسلم حتى يكتب الى رسول الله والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته)[١] .

٢ ــ جـواب رسول الله صلى الله عليه وسلم على رســالة خالد ابن الوليـد :

(بســم الله الرحمن الرحيم من محمد النبى رسول الله الى خالد بن الوليد سلام عليك فانى أحمد الله اليك الذى لا اله الا هو .

---

(١) الطبرى (محمد بن جرير) : تاريخ الامم والملوك ج ٣ ص ١٥٦ ، دار القاموس .

أما بعد : فان كتابك جاءنى مع رسولك يخبرنى أن بنى الحـارث قد أسلموا قبل أن يقاتلوا وأجابوا الى ما دعوتهم اليه من الاسلام وشهادة أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمد عبده ورسوله ، وأن قد هداهم الله بهداه فبشرهم وأنذرهم ، واقبل وليقبل معك وفدهم . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته)[٢] .

٣ ـ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عمرو بن حزم عامله على نجران ، ليعلم أهل نجران أصول دينهم ، وما يأمر به هذا الدين وما ينهى عنه :

(بســم الله الرحمن الرحيم هذا بيان من الله ورسوله : يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود عقد من محمد النبى لعمرو بن حزم حين بعثه الى اليمن أمره بتقوى الله فى أمره كله فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، وأمره أن يأخذ بالحق كما أمر به الله وأن يبشر الناس بالخير ويأمرهم به ويعلم الناس القرآن ويفقههم فى الدين وينهى الناس . ولا يمس أحد القرآن الا وهو طاهر ويخبر الناس بالذى لهم وبالذى عليهم ويلين للناس فى الحق ويشتد عليهم فى الظلم ، فان الله عز وجل كره الظلم ونهى عنه وقال ألا لعنة الله على الظالمين ، ويبشر الناس بالجنة وبعملها وينذر بالنار وبعملها ، ويستألف الناس حتى يتفقهوا فى الدين ، ويعلم الناس معـالم الحج وسنته وفريضته وما أمر الله به فى الحج الأكبر والحج الأصغر وهو العمرة ، وينهى الناس أن يصلى أحد فى ثوب واحد صغير الا أن يكون ثوبا حدا يثنى طرفه على عاتقه ، وينهى أن يحتبى أحد فى ثوب واحد يفضى بفرجه الى السماء ، وينهى أن لا يعقص أحد شعر رأسه اذا عنا فى قفاه ، وينهى اذا كان بين الناس هيج عن

---

(٢) الطبرى : تاريخ الامم والملوك جـ ٣ ص ١٥٦ وانظر ابن هشام : سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٤٠ . وانظر حميد الله (د. محمد) : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ، ص ١٣٢ .

الدعاء الى القبائل والعشائر وليكن دعاءهم الى الله وحده لا شريك له ، فمن لم يدع الى الله ودعا الى القبائل والعشائر فليقطعوا بالسيف حتى يكون دعاءهم الى الله وحده لا شريك له ويأمر الناس بأسباغ الوضوء وجوههم وأيديهم الى المرافق وأرجلهم الى الكعبين ويمسحون برؤوسهم كما أمرهم الله عز وجل ، وأمره بالصلاة لوقتها واتمـام الركوع والخشوع ، ويغلس بالفجر ، ويهجر بالهاجرة حتى تميـل الشمس ، وصلاة العصر والشمس فى الأرض مدبرة والمغرب حين يقبل الليل ، لا تؤخر حتى تبدوا النجوم فى السماء ، والعشاء أول الليل ، ويأمر بالسعى الى الجمعة اذا نودى لها ، والغسـل عند الرواح اليها • وأمره أن يأخذ من المغانم خمس الله ، وما كتب على المؤمنين فى الصدقة من العقار عشر ما سقى البعل وما سقت السماء وما سقى الغرب نصف العشر ، وفى كل شر من الابل شاتان ، وفى كل عشرين من الابل أربع شياه ، وفى كل أربعين من البقر بقرة ، وفى كل ثلاثين من البقر تبيع جذع أو جذعة ، وفى كل أربعين من الغنم سائمة شاه فانها فريضة الله التى افترض الله عز وجل على المؤمنين فى الصدقة ، فمن زاد خيرا فهو خيرا له ، وأنه من أسلم من يهودى أو نصرانى اسلاما خالصا من نفسه ودان دين الاسلام فانه من المؤمنين له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فانه لا يفتن عنها ، وعلى كل حالم ذكر أو أنثى حر أو عبد دينار واف أو عرضة ثيابا ، فمن أدى ذاك فان له ذمة الله وذمة رسوله ، ومن منع ذلك فانه عدو الله ولرسوله وللمؤمنين جميعا)[٣] •

٤ — كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى نصارى نجران يدعوهم الى عبادة الله :

(بســم الله ، من محمد رسول الله الى أسقفة نجران : بسم الله

(٣) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ٣ ص ١٥٧ — ١٥٨ وانظـر ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون مجلد ٢ ص ٨٢٩ — ٨٣١ .

فانى أحمد اليكم اله ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب ، أما بعد : ذلك فانى أدعوكم الى عبادة الله من عبادة العباد وأدعوكم الى ولاية الله من ولاية العباد ، فان أبيتم فالجزية ، وان أبيتم آذنتكم بحرب والسلام)[٤] .

٥ — كتاب الصلح الذى أبرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع نصارى نجران بعد أن رفضوا الدخول فى الاسلام :

(بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من النبى محمد رسول الله لنجران وحاشيتها : اذا كان له عليهم حكمه فى كل بيضاء وصفراء وثمرة ورقيق كان أفضل ذلك كله لهم غير الفىء حلة أربعون درهما ، فما زاد أو نقص فعلى هذا الحساب ، ألف فى صفر وألف فى رجب ، وعليهم ثلاثون دينارا مستواه رسلى فما فوق ، وعليهم فى كل حرب كانت باليمن دروع عارية مضمونة . لهم بذلك جوار الله وذمة محمد ، فمن أكل الربا منهم بعد عامهم هذا فذمتى منه بريئة)[٥] .

شهد على ذلك عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، وكتب على بن أبى طالب .

٦ — كتاب عمر بن الخطاب الى عماله على العراق والشام بأن يحسنوا معاملة نصارى نجران بعد أن أجلاهم من بلادهم اليمن ، وهذا نص الخطاب :

(أما بعد ، فمن وقعوا به من أهل الشام والعراق فليوسعهم من حرث الأرض ، وما اعتملوا من شىء فهو لهم مكان أرضهم باليمن)[٦] .

---

(٤) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٨١ .

(٥) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٨٣ وانظر البلاذرى : فتوح البلدان ق ١ ص ٧٦ — ٧٧ وأنظر ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ق ١ ص ٧٨ — ٧٩ .

ملخص البحث

تقع نجران في الأجزاء الشمالية من اليمن ، بعيدة عن البحر ، ويخترقها الوادى العظيم الذى عرف باسمها « وادى نجران » وقد أكسب أرضها خصوبة عالية ، لذلك أصبحت نجران من المدن الزراعية ، فقد أثنى عليها الجغرافيون القدامى على ما تنتجه من محاصيل زراعية ، مثل الحبوب بأنواعها والتمور بأشكالها • كما أن نجران تتمتع بموقع استراتيجى هام أكسبها هو الآخر أهمية خاصة فى مجال التجارة ، فأصبحت من المراكز التجارية العريقة والهامة التى تربط شمال الجزيرة العربية بجنوبها وغربها بشرقها ، فكانت ملتقى التجار ، يوءمون أسواقها لنقل ما يصل اليها من بضائع افريقيا واليمن والحجاز وفارس والروم •

فكانت نجران آهلة بالسكان منذ أزمان بعيدة ، وقد ورد ذكر قبيلة مذحج ، وهى من القبائل العربية القديمة التى سكنت نجران ، ثم وفد عليهم فرع من فروع قبيلة الازد أثر انهيار سد مآرب ، وبمرور الوقت انصهرت قبيلة الازد وتلاشت مع قبيلة مذحج ، ومن أفخاذ قبيلة الازد ، بنو الحارث بن كعب ، الذين آلت اليهم السيادة بنجران ، فقد بعث اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد يدعوهم الى عبادة الله ، فأسلموا ، ثم بعث اليهم من يعلمهم أصول الدين ، وكان بنجران جماعات من أهلها على دين النصرانية ، فقد جاء وفدهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد حوار طويل دار بينهما ، حول وحدانية الله تبارك وتعالى ، ثم الاتفاق على صلح كتبه رسول الله لهم ، ومن شروطه دفع الجزية ، الامتناع عن التعامل بالربا ، ومساندة المسلمين اذا ما وقعت حرب باليمن ، وبعد ذهابهم الى بلادهم عادت جماعة منهم الى رسول الله لتعلن اسلامها •

وقد أرتدت جماعات من أهل نجران عن الاسلام فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتبعت الاسود العنسى الذى ظهر فى نواحى اليمن معلنا أنه نبى مرسل ، وقد تمكن رسول الله صلى الله عليه وسلم القضاء عليه .

أما نصارى نجران الذين كان لهم صلحا مع رسول الله ، فقد استمر هذا الصلح الى عهد الخليفة أبو بكر ، وفى عهد الخليفة عمر بن الخطاب نقض هذا الطلح من جانب نصارى نجران ، فقد اخلوا ببند من بنوده ، وهو أنهم أخذوا يتعاطون الربا فى معاملاتهم التجارية ، فكان ذلك سببا كافيا دفع عمر الى اجلائهم من جران ، لا سيما وأنهم كانوا ثقيلين على المسلمين بنجران ويشكلون خطرا لأن عددهم يفوق عدد المسلمين ، وقد توزعوا بين العراق والشام ، فأما الذين ذهبوا الى العراق فانهم سكنوا الكوفة فى موضع عرف باسم النجرانية نسبة اليهم ، وكان عليهم أمير منهم يرعى شئونهم وينظم حياتهم .

وقد أخذت أعدادهم فى التناقص لاسلام عدد كبير منهم ، لذلك فانهم أخذوا يطالبون الخلفاء بتخفيض ما أقر عليهم من ضرائب لكى تتناسب مع عددهم الأخذ فى التناقص ، وبمرور الوقت تلاشـــو وقل عددهم .

وكانت العلاقات السياسية بين نجران والخلافة الراشدة ثم الأموية والعباسية ضعيفة ، فهى لا تتعدى تعيين الولاة أو عزلهم دون الاشارة الى ما يتم من أحداث داخل نجران ، وقد وصل هذا الضعف فى العلاقة قمته زمن العباسيين ، لا سيما بعد قيام الدولة الزيادية باليمن .

Najran is falldown in the north parts of Yemen, it is far of the sea, the great Valley which it take his name from Najran city wich known (Wady Najran). to pierce the city from north to the south. And has just it give the Najran, earth alot of fartitity. So that the Najran city it became aqriculture city. The encient Geographical are topraise, be extended it's produce agriculture. Like many deferant kiuds of maize, wheat and ripe dates. And the good fall down give it special important in the commerce field. And has just it became one of ancient and important center of mercantile, and it was concern the nourth arab Island with south. and it's west with east. It was became the merchant meeting, they are comes to the market for carring the merchandise, which it reach from yemen, Hejaz., Africa, the empers of Persia and the Roman empers to Najran.

Since old times many people were live in Najran, and has just mention comes Meth his tribe, it was one of the old arabic tribe which it was to live in Najran, then the Mareb dam was destroyed the branch of Azed tribe was melted withe Meth hig tribe. Bano AL Harth Ibn kaab was a root of from Azed tribe which they are became the ruler of Najran. Mohammed propht send to them Khaled Ibn AL walled to invite them to Cod worship. They are becames a moslems, and he send to them who to learn them a principle of the religion. In Najran there are agroup of people were remain on christainity worship. Their deputation comes to Mohammed prophet and after along converses with them about cod unity and christ nature. and then Mohammed prophet agree upon with them to payment the tax on atributary. and to stoped the treatment of usury, and they are helped the yemen's moslems if the war was hapend. When they returend to their country, Some of them come back to Mohammed prophet far declear his Islamism.

After that and in the time of Mohammed prophet some of

Najron's people returen from Islam. They are follow AL Asswad AL Anasee, Which who was apeared in the yemen places, that he decleared that he was a cod prophet, but Mohammed prophet was to be able to required on him.

But as to Najran christian which they are make agree with Mohammed prophet. this agree was continuous until the Abobaker's time, but to demolish in the time of caliph Omar Ibn Al Khtab, Because they are take to usury treatment again, and this it meanse that they are destruction the agree and stoped one of an agree law. so that the caliph Omar dicieded to emigrate them from Najran, they are to be published between Al Sham and Al Iraq.

Ofen to increase gradualy in their numbers which was to be obscure a dangerous on a Najran's moslem. which was it tohand over to Omer that to press one on to emigrate them. Who are to depart to Iraq they are to dwell in Kofa city in place it known Al Najranea. take it name from Nagron's people. They have arulc for regard their afeors and their life arrange.

And has jus their numbers it takes to be lesse. because many of them to interd in islam. so that they are takes the caliph to demand lower the tax to correspond with their numbers which takes to decrease gradually. However. With the time to passes their numbers takes lower.

The politics connection between Najran and Rashede caliphate then Omayed and abbasea was weak. It is only Limit one's self to appiont the ruler or to set aside except to indicated what to be comblete in Najran happens, chictly after Al Zeyadia the dynasty to rise in yeman.

قائمة المصادر والمراجع

— ابن الأثير (أبى الحسين على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم) :

— الكامل فى التاريخ . دار الفكر ، بيروت ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م .

— الادريسى (أبو عبد الله محمد بن محمد) :

— نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . روما سنة ١٩٧٠ م .

— الاصطخرى (أبو اسحاق ابراهيم بن الفارس) :

— الأقاليم . مخطوط باليد ومصور . باعتناء

— الاكوع (القاضى اسماعيل بن على) :

— البلدان اليمانية .

— أمين (الاستاذ أحمد) :

— فجر الاسلام . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ١٩٦٥ م .

— بروكمان :

— تاريخ الشعوب الاسلامية .

— البكرى (أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز) :

— معجم ما استعجم من أسماء البلدان والمواضع . دار صادر . بيروت ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م .

— البلاذرى (أحمد بن يحيى) :

— أنساب الاشراف . تحقيق د. محمد حميد الله . معهد المخطوطات العربية (بدون تاريخ) .

— فتوح البلدان . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٦ م .

— التميمى (أبو العرب محمد بن أحمد بن قيم) :

— المحن • تحقيق د• يحيى وثيب الجبورى ، دار العرب الاسلامى • بيروت ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م •

— ابن حجر (أبو الفضل أحمد بن على العسقلانى) :

— الاصابة فى تمييز الصحابة تحقيق طه محمد الزينى • مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م •

— الحرازى (حسين بن فيض الله الهمدانى اليعربى) :

— الصليحيون والحركة الفاطمية باليمن • مكتبة مصر • القاهرة (بدون تاريخ) •

— ابن حــــزم :

— جمهرة أنساب العرب • دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م •

— الحكمى (نجم الدين عمارة بن أبى الحسن على) :

— تاريخ اليمن • تحقيق المستشرق الفرس كاى

سنة ١٨٩٢ م • وقد أعاد نشره د• حسن سليمان محمود سنة ١٩٦٤ م •

— حميد الله (د• محمـــد) :

— مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة •

دار الارشاد ، بيروت ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م •

— الحميرى (محمد عبد المنعـــم) :

— الروض المعطار فى أخبار الأقطار • مكتبة لبنان — بيروت ١٩٧٥ م تحقيق احسان عباس •

— الحوالى (محمــد الأكوع) :

— اليمن الخضراء مهد الحضارة • مطبعة السعادة ١٣٩١ هـ — ١٩٧١ م •

— ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله) :

— المسالك والممالك باعتناء دى خويه ، ليدن ١٣٠٧ هـ — ١٨٨٩ •

— ابن خــلدون (عبد الرحمن بن محمد) :

— تاريخ ابن خلدون (بدون تاريخ) •

— الذهبى (الحافظ شمس الدين) :

— تاريخ الاسلام وطبقات مشــاهير الأعلام • دار الكتــب الاسلامية القاهرة ، بيروت (ط ١) ١٤٠٥ هـ — ١٩٨٥ م •

— العبر فى خبر من غبر • تحقيق د• صــلاح الدين المنجد • التراث العربى ، الكويت ١٩٨٤ م •

— الزمخشرى (محمود بن عمر بن محمد) :

— تفسير الكشاف • تحقيق محمد مرسى عامر • دار المصحف • القاهرة (ط ٢) ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م •

— ابن سعد (محمد بن سعد بن منع البصرى) :

— الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت (بدون تاريخ) •

— شباب (أبو عمرو خليفة بن خياط) :

— تاريخ خليفة بن خياط • تحقيق د• أكرم ضياء العمرى • دار القلم ، بيروت ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م •

— شرف الــدين (أحمــد حسن) :

– دراسات فى أنساب قبائل اليمن • مطابع الرياض ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م •

– تاريخ الفكر الاسلامى فى اليمن (الزيدية – الشافعية – الاسماعيلية) ط ٢ سنة ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م •

– الشماحى (القاضى عبد الله بن عبد الوهاب) :

– اليمن الانسان والحضارة • دار الهناء للطباعة (بدون تاريخ) •

– الطبرى (الشيخ أبو على الفضل بن الحسن) :

– مجمع البيان فى تفسير القرآن ، دار مكتبة الحياة ، بيروت (بدون تاريخ) •

– الطبرى (محمد بن جرير) :

– تاريخ الأمم والملوك • دار القاموس • بيروت (بدون تاريخ) •

– عبد البر (أبو عمر يوسف عبد الله بن محمد) :

– الاستيعاب فى معرفة الأصحاب • تحقيق على محمد البجاوى • مطبعة النهضة ، القاهرة (بدون تاريخ) •

– عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد) :

– العقد الفريد • باعتناء أحمد أمين وآخرون • دار الكتاب العربى ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م •

– العبلى (أحمد صالح) :

– طرق المواصلات فى الحجاز (مجلة العرب ، السنة الثانية) الرياض ١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨ م •

– قيماز الذهبى :

– المشتبه فى الرجال أسمائهم وأنسابهم •

– القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود) :

– آثار البلاد وأخبار العباد • دار صادر • بيروت ١٣٨٩ هـ – ١٩٦٩ م •

— القلقشندى (أحمد بن عبد الله) :

– مآثر الانافة فى معالم الخلافة ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج • مطبعة حكومة الكويت • طبعة مصورة ١٩٨٥ م •

— كحالة (عمر رضا) :

– جغرافية شبه جزيرة العرب ، مكتبة النهضة الحديثة ، القاهرة ١٣٨٤ هـ – ١٩٦٤ م •

— ابن مجاور :

– تاريخ المستبصر •

— محمد بن على (يحيى بن الحسين بن القاسم) :

– غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، تحقيق د• سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ، ١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨ م •

— المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) :

– مروج الذهب ومعادن الجوهر • دار الأندلس • بيروت ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣ م •

— المقحفى (ابراهيم بن أحمد) :

– معجم المدن والقبائل اليمنية • منشورات دار الكلمة • صنعاء ١٩٨٥ م •

— المقدسى (أبو عبد الله محمد بن أحمد) :

– أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٩ م •

ـــ المقــدسى (مطهر بن طاهر) :

ـ البدء والتاريخ • باريس ١٨٩٩ م •

ـــ المقريزى (تقى الــدين) :

ـ الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك • تحقيــق د• جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٥٥ •

ـــ ابن منظــور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم) :

ـ لسان العرب • دار صادر • بيروت (بدون تاريخ) •

ـ الموسوعة العربية الميسرة • دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٥ •

ـــ الواقــدى (محمــد بن عمــر) :

ـ المغازى • تحقيق د• مارسدن جونس • انتشارات اسماعليان (بدون تاريخ) •

ـــ ول ديورنــت :

ـ قصة الحضارة • ترجمة محمد بدران (بدون تاريخ) •

ـــ الهمدانى (أبو محمد الحسن بن محمد بن يعقوب بن يوسف) :

ـ صفة جزيرة العرب • ليدن ١٨٨٤ م •

ـــ ياقوت الحموى (شهاب الدين أبى عبد الله) :

ـ معجم البلدان • دار صادر • بيروت ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م •

ـــ اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب واضح الكاتب) :

ـ البلــدان • ليدن ١٨٩١ م •

ـ تاريخ اليعقوبى • دار صادر بيروت للطباعة والنشر •

أوضاع الأقليــة الاســلامية فى بلغــاريا
« منــذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى أحداث ١٩٨٥ »
١٩٤٥ ــ ١٩٨٥

د. محمد حسن العيدروسى
جامعة الامارات

مقــــــــــدمة :

تعانى الأقلية الاسلامية فى بلغاريا حملة منظمة منذ قيام الدولة البلغارية ، وتشهد حرب ابادة وتصفة لعقيدتها الاسلامية ، وتشتد تارة وتهدأ ، ومنذ الحرب العالمية الثانية ومجىء الشيوعية الى السلطة وانتهاكات حقوق الانسان المســلم تتزايد وتضيق القوانين خناقها وتجردهم من أبسط حقوقهم الانســانية ، والمذابح الجماعية التى ارتكبت ضدهم والمئات ممن قتلوا أو سجنوا أو شردوا على مر الأعوام والتى وصلت ذروتها أحداث ١٩٧٢ وتواصلت حتى عام ١٩٨٥ ببلغرة الأســماء .

وهذا ما يدفعنا الى عدة تساؤلات عن أسبابها وتوقيتها فى هذه الفترة بالذات وخاصة فى الفترة الباقية من نهاية القرن العشرين والذى عرف باوروبا بنيل الحريات الانسانية للافراد فلماذا تنتهك حقــوق الانسان المسلم فى بلغاريا احدى دول أوربا فى الوقت الذى توجد علاقات قوية مع بعض الدول العربية الاسلامية فى كافة المجــالات الاقتصــادية والسياسية وتقديم المســاعدات المالية دون أن تراعى الحكومة البلغارية المشاعر الدينية الدول العربية والاسلامية .

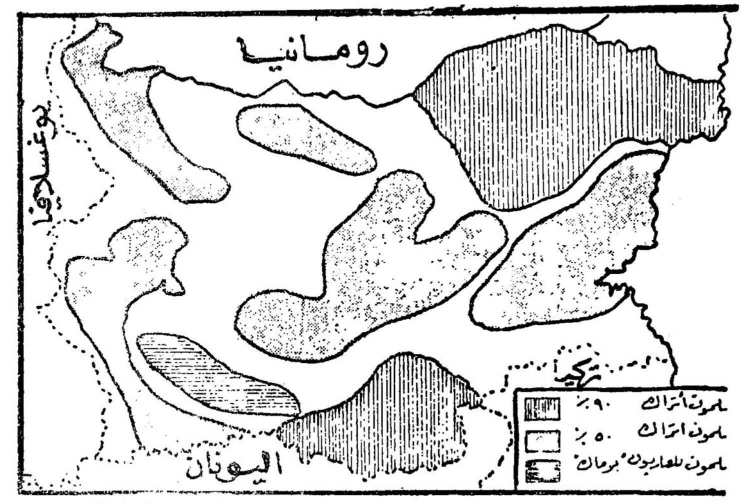
وأخذت هذه القضية تتفاعل على الصعيد الاسلامى والعــالمى نظرا للأبعاد المختلفة لسلوك الحكومة البلغــارية فى التعامل مــع الأقلية والتى يمكن اعتبارها احدى مآسى الانسان المسلم فى الوقت الحاضر والجريمة هو انه مسلم فقط .

ولم تحظى هذه الأقلية بقدر كافى من الأبحاث والدراسات على الصعيد العربى أو الاسلامى وخاصة الدراسات الاكاديمية العلمية ، اضافة الى قلة الاهتمام من الناحية السياسية والاعلامية على المستوى الرسمى أى الحكومات والدول العربية والاسلامية ، التى اعتادت على عدم المساس بالقدر المطلوب القضايا الدينية مع الدول الأخرى خوفا من تفسيرها من الدول الأخرى ، أى انها تنظر من ناحية عدم التدخل فى الشئون الداخلية اضافة الى نظرتها من زاوية علمانية أكثر من الناحية الروحية ، وهذا ما أدى الى ازدياد معاناة الأقليات الاسلامية فى مختلف أماكن ودول فى العالم المعاصر .

وأكثر الحكومات التى تصدت لها الحكومة التركية برغم أنهـا علمانية ولكن السبب قد يرجع الى كون هذه الأقلية من الجنس التركى اضافة الى عددها الكبير والبالغ حوالى مليون نسمة ووقوعها على حدودها الشمالية الغربية فى مشارف البلقان .

فقد أخطرت الحكومة التركية الى معظم المنظمات والهيئـات الدولية ورفعت قضية انتهاك حقوق الانسان ومعاناة الأقلية الاسلامية الى محكمة العدل الدولية فى « لاهاى » لتحكم حسب اللوائح والقوانين والمواثيق الدولية والشرعية لحماية حقوق الانسان ، وطالبت المجتمع الدولى بذل الجهود اللازمة للتدخل لوقف الانتهاكات والقمع المنظـم ومنع المذابح التى ترتكب ضد الاسلام والمسلمين بدون وجه حـق أو مبررات تذكر .

وتناولت فى هذه الدراسة أصل البلغار والأقلية الاسـلامية ودخول الاسلام والحكم العثمانى والانفصال وقيام الدولة البلغارية وانتهاكات حقوق الانسان والقمع والاضطهاد وبلغرة الأسماء وأسبابها ونتائجها وهذه الدراسة محاولة بسيطة لتبصير أمور الأقلية الاسلامية فى بلغاريا بوابة جنوب شرق أوربا .



خريطة توضيحية تبين أماكن تجمع المسلمين الاتراك فى بلغاريا

أماكن تجمع المسلمين فى بلغاريا :

١ — الأماكن المخططة طوليا فى الخريطة تشير الى تجمعات الجالية التركية حيث تبلغ فى هذه المناطق اكثر من ٩٠٪ من عدد السكان وتعتبر هذه المناطق تركية بكل المعنى الاقليمى سواء فى بناء المساكن أو العادات والتقاليد .

٢ — الأماكن المظللة تشير ايضا الى بعض تجمعات الجالية التركية وهم يبلغون فى هذه المناطق حوالى ٥٠٪ من عدد السكان .

٣ — الأماكن المخططة عرضيا تشير الى تجمعات المسلمين البلغار ويطلق عليهم اسم « بومك » للدلالة على أنهم مسلمون .

وتشير الخريطة حسب التجمعات الاسلامية الى ما حدث للمسلمين هناك والارقام تحدد أماكن المساجد التى دمرت بالفعل وأماكن العبادة التى منـع المسلمون من دخولها واداء شعائرهم الدينية وهذه المناطق تضع عليها الحكومة لافتات تقول بالحرف الواحد « ممنوع السنة المحمدية » وايضا يمنع اتمام الزواج حسب الطريقة الاسلامية ويلغى دور « الامام » تماما ولا عقد قران حسب اصول الشريعة مطلقا . وايضا دفن الموتى وتغسيلهم وتكفينهم والصلاة عليهم حسب اصول الشريعة ممنوع تماما . وعلى المسلمين دفن موتاهم داخل توابيت مثل المسيحيين دون طهارة أو صلاة هذا طبعا غير المضايقات الشديدة التى يتعرض لها المسلمون والتى وصلت فى بعض الاحيان الى تحرش وقتال بالايـدى خاصة بين الرجال البلغار والنساء المسلمات وحينما يهرع الاهالى لمساعدتهم تتدخل السلطة التى وصل بها الحد الى استخدام الاسلحة الثقيلة والدبابات فى قمع المسلمين .

موقــع البلغـــار :

كلمة بلغار لها عدة ألفاظ مثل « بلكار » « البلغر » و « برغر » و « برغار » وبالفارسية يقال « بلكان » •

يختلف الموقع الحالى عن الموقع السابق للبلغار ، ففى السابق كانت مواقعهم تمتد من جبال « الاورال » الى جنوب نهر « الدانوب » فى الشرق عند المصب •

وبالتالى تمتد بين « الخزر » و « الصقالبة » ومتاخمة لبـــلاد « برداس » ويقول البيرونى : « ولا نعرف امة مسلمة منقطعة عن بلاد الاسلام غير « بلغار » و « سوار » وهم بالقرب من منقطع العمران ونهاية الاقليم السابع » •

وهناك اختلاف حول حدود البلغار القديمة بين المؤرخين المحدثين فالبعض يقول : « أنه بالرغم من الحملات الدائمة والخاطفة التى تتعرض لها بلاد البلغار ، فان هذه البلاد كانت تترامى فى أراضى واسعة جدا من جبال « اورال » حتى نهر « أدكا » ومن « دفينا » (Dvina) فى أو « ستيفا » (Vsygng) حتى شواطىء « الدون » ، و « سامارا » ، وذلك عندما كانت الدولة فى أوج عزها واقتدارها » •

أما البلغار حاليا فى صدد دراستنا فانهم يقعون ضمن جمهورية بلغاريا التى تقع على بحر الاسود من الشرق وتركيا واليونان فى الجنوب ويوغسلافيا فى الغرب ورومانيا فى الشمال •

أصـــل البلغـــار :

لا يعرف كثيرا عن اصول البلغار بوجه الدقة وانما المعروف عنهم بأنهم شكلوا دولتين فى بداية العصور الوسطى ، الأولى كانت على نهر « الفولغا » ، والثانية على نهر « الدانوب » ، ومن القدماء الذين كتبوا عنهم الكاتب السورى الذى عاش فى القرن الثـــالث الميلادى ويدعى « مار عباس كتينو » (Mar Abas Katinu) والذى يرى

بوجود البلغار فى شمال « قفقاسيا » خلال أعوام ١٢٧ — ١٤٩ ق٠ م وأكد ذلك أيضا المؤرخ الأرمى « موسى كورن » (Moisey Khoren) فى القرن الثامن ٠

ولهذا يمكن القول بأن أصول البلغار قد يكتنفه الغموض من حيث قدم ظهورهم وانتماءهم وأين كانت نشأتهم الاولى ومتى جاءوا الى بحر « الازن » ٠

وهناك آراء أخرى تقول بأن البلغار ينحـــدرون من العنصر التركى — « الشافوسى » الغربيين — وهذا الاسم يعنى الشـــعب الخليط[١] ٠

الأقليـــة الاسلامية :

تعتبر بلغاريا من دول أوربا الشرقية التى تعيش فيها أقلية اسلامية تبلغ نسبتها ٢٥٪ من اجمالى السكان ، وفى بعض الاحصاءات ١٧٪ ، ويبلغ تعدادهم حوالى المليونين أو المليون ونصف المليون مسلم من سكان البلاد البالغ عددهم ثمانية ملايين نسمة ٠

وتتألف الأقلية الاسلامية التى تنتمى الى المذهب السنى الحنفى من ثلاث مجموعات غالبيتها من الأتراك والنسبة القليلة من « الغجر المبلغار » أو « البرماكشى » و « البرماك » « بلغار عرقيا » وغيرهم من المسلمين ٠

ويشكلون المسلمون فى بلغاريا أغلبية فى سبع مقاطعات ، خمس فى الشمال واثنتان فى الجنوب ٠

دخول الاسلام والحكم العثمانى فى بلغاريا :

تختلف الروايات حول دخول الاسلام فى بلغاريا الأول مرة ، فالبعض يقول أن الاسلام دخل الى بلغاريا عن طريق الهجـــرات

---

(١) الدستور الصادرة فى ١٩ ابريل ١٩٨٥ ٠

الاسلامية ، وعن طريق الجهود التى كان يقوم بها الدعاة المسلمون من أجل نشر الدين الاسلامى فى شتى بقاع الأرض ومن « غــزو » أو « فتح » ولم يعرف على وجه التحديد تاريخ دخول الاسلام الى أرض بلغاريا •

وتذكر بعض المصادر ، بأن الاسلام قد وصل الى أرض بلغاريا عام ٧١٧ م — ٥٠ هـ ويستدلون على ذلك بأن الغزو والفتح الاسلامى للقسطنطينية عندما طال حصار المدينة سبع سنوات فان القائد مسلم ابن عبد الملك أمر جنده بانشاء المساكن والمزارع فى الأراضى المجاورة للمدينة ، فانساح بعض المقاتلين من المسلمين فى السهول الواسعة الممتدة غربا من القسطنطينية حتى وصلوا الى بلاد الصقالبة •

ويقول ياقوت الحموى فى كتاب معجم البلدان بأن الاسلام قد انتشر على نطاق واسع فى أرض بلغاريا واعتنقه أكثر سكانها حتى صار هو الديانة الغالبة فى منتصف القرن الثالث الهجرى أى التاسع الميلادى[٢] • ويقصد بلغار « الفولغا » ، ويتابع ياقوت الحموى قوله :

بأن ملك بلاد البلغار قد اعتنق الدين الاسلامى الحنيف هــو ورعيته وأسرته المالكة وأن الاسلام أصبح هو الدين الرسمى للبلاد •

وقد يكون هذا المصدر هو الأقرب لأن دخول الاسلام يتم فى هذه الفترة • والملك هو « المشى » ، فى بداية القرن العاشر الميلادى ، وبرغم أن الاسلام كان قد ترسخ فى أواخر القرن التاسع الميلادى وذلك كما ورد فى دائرة المعارف البريطانية ، وكذلك فى رأى الاستاذ « يوزورث » :

« بأن البلغار اهتدوا الى الاسلام فى مطلع القرن العــاشر الميــلادى » • ونظرا للعلاقات المتقاربة فان التأثير الاســلامى

---

(٢) القبس الصادرة فى ٥ مارس ١٩٨٥ •

كان واضحا بين « بلغار الفولغا » و« بلغار الدانوب » .

وبذلك دخلت دولة البلغار فى حوزة الحضارة الاسلامية فى هذه الفترة ، ولما كان الاسلام يحمل نظما حضارية وافية فان اعتناق البلغار للاسلام جعل منهم أكثر شعوب أوربا الشرقية حضارة ، وكنتيجة طبيعية لهذا الحدث زادت الصلات بين البلغار والعالم الاسلامى ، وغدت بلغاريا ممثلة للاسلام فى شرقى أوربا فأنشئت المساجد ، وتأسس القضاء وأخذت الكلمات العربية تنتشر انتشارا واسعا فى لغاتها .

ثم دخل الاسلام ليس فى بلغاريا وانما فى دول البلقان مع دخول السلطان العثمانى مراد الأول وفتح مدينة « ادرنة » فى يوليو ١٣٦٢ ، ثم ازداد انتشار الاسلام بشكل واسع بعد فتح العثمانيون بلغاريا عام ١٣٧٣ ، وبحلول عام ١٣٩٣ سيطروا على كافة الاراضى بلغاريا ، وهاجرا آلاف المسلمين من الاناضول للاقامة فى بلغاريا ، اضافة الى دخول أعداد كبيرة من البلغاريين فى الاسلام .

استمر الحكم الاسلامى ٥١٥ عاما ، حتى توقيع المعاهدة العثمانية — الرومية ١٨٧٧ — ١٨٧٨ فى برلين ، بعد وقف الحرب بين الجيشين العثمانى والروسى ، وتدخل الدول الاوربية ، وأجبوا العثمانيين على الانسحاب ومنح بلغاريا حكما ذاتيا واعطاء الاستقلال عام ١٩٠٨ ، وكونت مملكة قائمة بذاتها ، وفى نهاية حرب البلقان ١٩١٢ — ١٩١٣ ، أضافت بلغاريا الى حدودها تسع مدن من غرب تركيا وأخيرا ضم مسلموا رومانيا عام ١٩٤٠ فى منطقة « دوبركا » الى بلغاريا[٣] .

حقوق الانسان المسلم فى بلغاريا :

تقاسى الأقلية الاسلامية من ضغوط القومية السلافية شبيه

---

(٣) الدستور الصادرة فى ١٩ ابريل ١٩٨٥ .

بالعصور الوسطى مثل محاكم التفتيش المسيحية بالاندلس ، وتستخدم الحكومة البلغارية التى لا تحترم حقوق الانسان ، أشد الحمــلات محاربة للاسلام على كافة الأصعدة بمختلف الوسائل الاقتصــادية والاجتماعية والثقافية والاعلامية والارهابية .

تشهد السلطات البلغارية فى ظل الحكم الشيوعى ، بالمساواة وعدم التفرقة على أساس الدين واللغة والجنس والعرق والمميزات الأخرى ، وفى الوقت نفسه تتبع أسلوبا معينا لابادة الاقلية الاسلامية لامتصاصها فى المجتمع البلغارى بالقوة ، وبممارسة الاساليب القمعية ، وفق منهج مرحلى منظم ، وبذلك تخالف دستورها التى جاء فى الفقرة الأولى من المادة (٣٥) ما يلى :

« جميع الشعب البلغارى متساو أمام القوانين » .

وتحت ستار القانون ، تعانى الأقلية الاسلامية اجراءات تعسفية متمثلة فى حملات المطاردة والاعتقالات والقتل الجماعى دون تمييز للاطفال والمسنين والنساء ، حتى بات الفرد المسلم لا يأمن على نفسه ولا على ماله ولا على عرضه .

وعندما لاحظت السلطات البلغارية تزايد عدد الأقلية الاسلامية ، اتبعت أبشع الطرق لتنفيذ قراراتها واتخذت عدة خطوات لعرقلة النشاط الاسلامى والقضاء على الأقلية الاسلامية منها ما يلى :

١ — تفريق المسلمين بعضهم عن بعض .

٢ — السيطرة على دار الافتاء المركزية فى عاصمة صوفيا من قبل موظفين ملاحدة أو نصارى .

٣ — اغلاق وهدم المساجد حتى فى القرى ، وعدم السماح بافتتاحها لصلوات الجمعة والأعياد الا بعضها يفتح تحت رقابة أجهزة الأمن ، وكان فى العاصمة حوالى ٢٧ مسجد لم يبقى منها الا مسجد واحد مهمل .

٤ — اغلاق مدارس تعليم القرآن الكريم وعددها (٦٨٠) مدرسة ، وعدم السماح بقيام مدارس اسلامية ، واجبار نساء المسلمين على ترك الدين الاسلامى .

٥ — منع المسلمين من دفن موتاهم بمقابر خاصة بهم ومنعهم من الدفن على الطريقة الاسلامية .

٦ — منع المسلمين من الأعياد والمناسبات الاسلامية ومن صوم رمضان واقامة الصلاة والحج .

٧ — منع المسلمين من تلقى اصول دينهم .

٨ — منع اقتناء المسلم للقرآن الكريم .

٩ — القضاء على الشخصيات الاسلامية القيادية المقاومة للحكم الشيوعى . والمثال البارز على هذا شاعر المقاومة الاسلامية ، شاكر رجب الذى اغتالته أجهزة المخابرات البلغارية .

١٠ — لا يعطى دفتر نفوس فى حالة ولادة الطفل من أب مسلم وأم مسلمة اذا لم يأخذ اسما مسيحيا بلغاريا .

١ — ليس للرجل والمرأة حق الزواج ولا فتح منزل اذا لم يغيروا اسمهما باسم بلغارى .

١٢ — ليس للمسلم حق الحياة ، ولا الشغل فى الأعمال اليومية اذ لم يغير اسمه الحقيقى .

ومهدت السلطات البلغارية لهذه الممارسات اللا انسانية ، باصدار قائمة من المحرمات ، يستطيع المرء أن يلقى نظرة عليها ليتأكد من مزاياها وهى :

١ — يحرم اطلاق الأسماء الاسلامية أو أى اسم غير بلغارى على كل مولود جديد ، أما الذين سبق وأن تسموا بهذه الأسماء « المحرمة » ، فاما أن يستبدلوها بأسماء ، أو يضيفوا فى آخرها لاحقة بلغاريا مثل أحمد : أحمدوف — ومسلم : مسلموف ... الخ .

٢ — يحرم أداء الفرائض الدينية الفردية كالصلاة ، والجماعية كصلاة الجمعة والأعياد سواء فى البيوت أو المساجد المغلقة ، كما لا يجوز تبادل التهانى فى المناسبات الدينية ، ويسمح بأداء العبادات فى الكنيسة الارثوذكسية التى تشرف عليها الدولة .

٣ — لا يجوز اجراء عملية الختان للاولاد الذكور ، كما لا يجوز زيارة القبور أو وضع اشارات أو كتابات للتمييز بينها وبين غيرها .

٤ — يحرم قراءة « المولد » ، واستعمال الألقاب العائلية .

٥ — يمنع منعا باتا اقتناء أو استيراد أو قراءة الكتب التاريخية والأدبية التركية أو الاسلامية ، وكذلك تعلمها أو مدارستها .

٦ — على أفراد العائلة أن تتحدث فيما بينها باللغة البلغارية ، ولا يجوز التحدث ولو فى الشئون اليومية باللغات الأخرى .

٧ — يمنع منعا باتا تسمية المدن والقرى والشوارع التى أطلقت عليها أسماء بلغارية باسمائها القديمة .

٨ — يحرم تماما تلقى المساعدات من الخارج أو من الداخل بين الأسر والعوائل لأى سبب كان .

وتقول الفقرة الثانية من المادة (٣٥) من الدستور البلغارى ما يلى :

« بين الشعوب منشئة ، دينية ، جنسية ، قومية ، ثقافية ، حياته المعيشية والمادية لا يعطى أى امتياز أو عقوبة » .

وبرغم وضوح هذه الفقرة فلا يوجد حق الحياة للاقلية المسلمة لسلب الحكومة تلك الحقوق :

١ — ليس له حق الاختيار فى العمل ، ولا يستطيع العمل الا فى الأشغال الشاقة فقط .

٢ — ليس له حرية السكن بل الدولة تجبره فى السكن وفى الأماكن التى تختارها .

٣ — ليس له الحق فى أبسط وظيفة حكومية عدا الأفراد المنسوبين الى الحزب ويعملون ضد بنى قومهم •

٤ — ليس لهم حق الزيارة حتى الى أقرب شخص لهم فى خارج بلغـــاريا •

٥ — محرومون من حقوقهم المشروعة الشخصية كحق العبادة ولا يمكنهم اعمار بيوتهم وجوامعهم •

وتقول الفقرة الرابعة من المادة (٣٥) من الدستور البلغارى :

« لا يوجد حق التفرقة ولا تحقير بين الشعب من الناحية القومية والدينية ومن يعمل ذلك يعاقب » •

ولكن السلطات تعمل عكس ما هو مكتوب فى الدستور ، فلا توجد للاقلية الاسلامية حق كتابة الآيات القرآنية فى مقابرهم ، ومن يكتب ذلك يكسر أو يهدم ، ويمنع دفن الموتى على الطريقة الاسلامية ، وكذلك الصيام فى شهر رمضان والأعياد الدينية ، وطهور الأطفال وحق العبادة لا تعطى لهم •

تقول الفقرة السابعة من المادة (٤٥) من الدســتور للجمهورية الشعبية البلغارية :

« الشعب غير البلغارى له حق تعليم لغته » •

لكن تعلم اللغة البلغارية اجبارى ، مما يعنى بأن نصف أحــكام الدستور يطبق والنصف الآخر غير مطبق ، لأن الشعب الغير بلغارى من أصل تركى مسلم ليس له حق التعليم باللغة التركية ولا يعطى له فرصة لتلك المواضيع لأنه ممنوع التحدث بلغته الأصلية التركية ، ويعاقب كل من يستمع الى أخبار تركية والبرامج الدينية ، عدا الراديو والتلفزيون البلغارى ، ولا يمكن استماع أو مشاهدة أى خبر ، ولمنع ذلك اتخذت اجراءات شديدة •

ويتضح من ذلك بأن السلطات البلغارية لم تخالف الدستور ،

وانما تخالف جميع القوانين والاتفاقيات الدولية مثل اتفاقية « نائولى » — « سور » — « سائنة » فى ٢٧ نوفمبر ١٩١٩ ، واتفاقية لوزان فى ٢٤ يوليو ١٩٢٣ ، واتفاقية الصداقة التركية — البلغارية لعام ١٩٢٥ .

ولهذا فان الأقلية الاسلامية فى بلغاريا تعيش أقسى ظروف والتى تنتهك فيها حقوقه الانسانية ، ويتعرض لمحو شخصيته ، وايدلوجيته الاسلامية وقوميته التركية ، ويضحى بمئات الآلاف من الشهداء لأجل الحرية الدينية والانسانية ، ويستصرخ للشعوب المحبة للسلام وحقوق الانسان وخاصة اخوانه المسلمين فى العالم .

نداء الأقلية الاسلامية فى بلغاريا :

وجهت الأقلية الاسلامية نداء الى كافة شعوب العالم والمنظمات الاقليمية والدولية للنظر فى انتهاك حقوقه الانسانية وجاء فيها :

الى المسلمين الشرفاء ..

نحن نمثل صوت المواطن المسلم البلغارى الذى ليس له الحرية .

نحن من أقدم أصحاب هذا الوطن نريد العيش فى أرضنا سعداء . الحكومة البلغارية تحاول تغيير لغتنا ، أسمائنا ، ديننا ، قوميتنا بالقوة ، لكن مهما كلف الأمر نحن المسلمين البلغاريين نبقى ونعيش اذا أنكرت الحكومة البلغارية وجود المسلمين ، نحن نعرف وجودنا ونبقى موجودين لأن تاريخنا أقدم من تاريخهم .

باسم الحضارة الاسلامية واستنادا على تاريخنا الانسانى وقوة ديننا الاسلامى نحن مسلموا البلغاريين نطالب حق الحياة الانسانية ونريد التخلص من التعذيب والاستثمار والحركات الشوفينية ، ونعيش تحت حماية الدستور .

وندعو الجمعية العامة لحقوق الانسان وجميع المنظمات القومية والدولية وجميع الدول الاسلامية والامة الاسلامية التى تطبق النظام الاسلامى وتدافع عنه وتعتبر نفسها مسئولة عن اخوانهم المسلمين فى

جميع أنحاء العالم ، وحق الانسان ، هو من الحق الطبيعى لجميع النـــاس .

اسمعونا واسمعونا وذكروا الحكومة البلغارية .

صوت الشعب المسلم التركى فى بلغاريا

زيارة المحقق الخاص للامم المتحدة الى بلغاريا :

مما سبق ذكره كان جزء يسير من ممارسات وانتهاكات لحقــوق الانسان المسلم فى دولة عضوا بالمنظمة الدولية للامم المتحدة ، وتزعم احترامها لحقوق الانسان وفق وثيقة « هاسنكى » النهائية ، واذا تجد الحكومة البلغارية بأنها فعلا تحافظ على حقوق الانسان المسلم فيجب عليها اثبات ذلك بفتح أبوابها للمراقبين المحايدين كى يزورا هــذه المناطق ، فيحدثوا الى هؤلاء المواطنين ليعلنوا لشعوب العالم مــدى ما تتعرض له بلغاريا من تهم ، وخاصة التقرير الذى أعــده المحقق الدكتور « انجلو فيدال الميدو ريبيرو » الذين عين فى مهمة حول حقوق الانسان وفقا لقرار الامم المتحدة (٢٠/١٩٨٦) لمراقبة الســلوك الحكومى المتناقض مع الاعلان الخاص بنبذ كل أشكال التمييز القائم على الدين والمعتقد لخير دليل على ذلك .

وتنفيذا لقرار الامم المتحدة قام المحقق الخـــاص بزيارة الى بلغاريا فى الفترة ما بين ١٢ — ١٦ أكتوبر ١٩٨٧ ، بهدف الوقــوف على مدى التزام هذه الدولة بتطبيقها لقرارات ١٩٨١ فيما يتعلق بافراد الأقلية الاسلامية هناك ، والتقى مع القادة رؤساء الجماعات الدينية وأعضاء البرلمان وبعض الكتاب والصحفيين وشخصيات عامة أخرى ، كما قام بزيارة مناطق العبادة الاسلامية والمسيحية فى « صــوفيا » ، « بازاردجيك » ، « بلوفدين » ، و« هاكوفو » وقــرية (فوتينو) ، حيث قابل عددا من رجال الدين فى هذه الاماكن كما قام أيضا بزيارة العديد من الأديرة والكنائس الارثوذكسية اضافة الى كنيسة كاثوليكية ومعبد يهودى ، واستمع خلال هذه الزيارة الى بيانات الحكومة البلغارية

مدعمة بضمانات يكفلها الدستور والاتفاقيات الشرعية والقوانين التى تؤمن بحرية العبادة والأديان دون أى تمييز بين جماعة دينيـــة وأخرى •

واتضح بعد المناقشات التى عقدها المحقق مع عدد من الشخصيات المختلفة البارزة والمعلومات التاريخية والسياسية الخاصـــة بالاديان فى بلغاريا ، ان كل ذلك قصد به اظهار الوضع بصورة لائقة ومناسبة فيما يتعلق بالاسلام •

واتضح المحقق أن الكنيسة « الارثوذكسية » لعبت دورا بارزا فى تشكيل الوجدان والشعور القومى البلغارى فى قرون الســيطرة الاجنبية ، وحافظت على الثقافة الوطنية والهوية البلغارية ، كما أن الدين الاسلامى الذى انتشر فى بلغاريا فى القرن الخامس عشر أثناء الحكم العثمانى عمل أيضا على تثبيت الهوية البلغارية ، الا أنه أثار جدلا وصراعا حادين بين الحكومة التركية والحكومة البلغارية وهو ما دفع السلطات الأخيرة الى عدم الاعتراف بالمجموعة العرقية التركية فى بلغاريا ، وتأييدها النظرية التاريخية القائلة بأن الأقلية الاسلامية التى بقيت فى بلغاريا أفرادها فى الأصل بلغار ، اجبروا على أن يصبحوا أتراكا أثناء السيطرة العثمانية ومن حقهم أن يستروا هويتهم الحقيقية ، وعلى النقيض من ذلك ترفض الحكومة التركية هذه النظرية وتصر على أن هناك أقلية اسلامية تركية الأصل تعيش فى بلغاريا ويبلغ عدد أفرادها مليون نسمة •

توصل المحقق من خلال ما زعمته الحــكومة والمعلومات التى استقاها من مصادر عديدة مختلفة تتعلق ببعض الأحداث والاجراءات ، بأن الأمر يتناقض تماما مع ما أعلنته السلطات الحكومية فيما يتعلق بالأقلية الاسلامية ، وركز على نقاط معينة خلال مناقشاته مع بعض المواطنين والمهتمين بالشئون الدينية ؛ ووضح جليا انها تناقض الفقرات ١ و٦ من الاعلان ، كما ثبت له أن هناك ضغوطا تفرض على المسلمين للتخلى عن دينهم وشعائرهم،والجوامع تفتح فى أوقات معينة باعتبار أن الصلوات تجب أن تقام فى غير ساعات العمل وان الكثير من المساجد تم هدمها وان

البعض الآخر حول لاغراض أخرى رغم ما ادعته الحكومة البلغارية من عدم تخفيض عددها ، وما أعلنته من أن عدد المساجد يبلغ حوالى ١٫٠٠٠ مسجد يتولى مسئوليتها نحو ٥٠٠ امام . ووفقا للمعلومات التى تم جمعها أيضا فان السلطات البلغارية قد منعت ختان الأطفال الذكور وفرضت عقوبة السجن لمن يخالف ذلك رغم قولها بأنها تسمح بالختان شريطة أن يتم ذلك فى المستشفيات وباشراف الأطباء وليس بواسطة الاشخاص الذين لم ينالوا دورات تدريبية فى هذا المجال . لقد أكد التقرير أن الصحافة الرسمية البلغارية شنت حملة مناوئة ضارية ضد الختان ووصفته بأنه عمل بربرى وحشى غير اجتماعى ، ولم يقتصر الأمر على الختان فحسب بل تعداه الى الصيام فى شهر رمضان الكريم والمعاهد الدينية .

ورغم نظرات الاعلان الخاصة بتحريم التمييز الذى يقوم على أساس دينى أو معتقد ، ورغم الاجراءات التى اتخذتها الدول لمنع ونبذ التمييز واحترام حقوق الانسان وعدم المساس بجوهر الحريات (الفقرات ٢ الى ٤ من الاعلان) الا أن هذا يبدو متناقضا تماما فى بلغاريا ، وليس أدل على ذلك من الحملات التى شنتها السلطات البلغارية لتغيير أسماء المسلمين قسرا وكراها وخاصة تلك الحملات التى نظمت فى الفترة ما بين ديسمبر ١٩٨٤ ومارس ١٩٨٥ طبقا لما ذكرته مصادر التناها المحقق التى أكدت أن هذه الحملات صحبتها أعمال عنف واعتقالات واضطهاد لكل من رفض الازعان وليت الأمر يتوقف عند هذا الحد بل يتعرض الشخص الذى يرفض تغيير اسمه الى فقدان وظيفته كذلك . هذا بجانب أن السلطات البلغارية تعمد الى تغيير الأسماء فى المستندات الرسمية .

ورغم أن الفقرة (٥) من الاعلان تعطى الوالدين الحق فى تنظيم الاسرة وتعليم الأبناء حسب رغبتهما ووفق دينهما ، الا أن المحقق أشار فى تقريره الى تدخل السلطات فيما يتعلق بظاهرة الختان ، كما أشار الى خلو المساجد الا من العجزة والمسنين رغم أن الحكومة

البلغارية بررت هذا بالتطور الذى أدى بالشبان الى القيام بنشاطات أخرى ، بدلا من التواجد فى أماكن العبادة وأداء الشعائر الدينية .

وانتهت الزيارة الى انطباع مفاده بأن الحرية والحقوق الدينية للاقلية الاسلامية فى بلغاريا تتفاقم الآن وتمثل واحدة من أشكال العلاقات السياسية والثقافية والعرقية غير العادية بين بلغاريا وتركيا ، فالاتفاقيات المشتركة التى تحكم الهجرة بين الدولتين منذ الحرب العالمية الثانية والتى لفظت آخر هذه الاتفاقيات أنفاسها عام ١٩٨٧ ، لم تضع حدا للمشكلة فالعديد من العائلات تشتت بين تركيا وبلغاريا ولم تستطع حتى الآن جمع شمل أفرادها رغم ما تزعم به السلطات البلغارية دائما من نوايا حسنة لاقامة علاقات طيبة مع جارتها تركيا واستعدادها لعقد مفاوضات تتعلق بهذا الشأن فى وقت تبدى فيه الأخيرة استعدادها وترحيبها بهذا المفاوضات[٤] .

الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للاقلية الاسلامية :

دعت معاهدة برلين الى المحافظة على أوضاع الأقلية الاسلامية التركية التى تعيش فى بلغاريا بعد انفصالها عن الدولة العثمانية ، الا أن الحكومة البلغارية الناشئة لم تلتزم بذلك ، وانما قامت بطرد ما يزيد على مليون مسلم من المنطقة وقتل ما يزيد على ثلاثمائة وخمسين ألف فى المذابح التى قام بها البلغار ضد المسلمين خلال حرب ١٨٧٧ — ١٨٧٨ التى استمرت سبعة شهور ، ولم يستطع اللاجئون بعد الحرب العودة الى أراضيهم حيث انتشروا فى بقاع الدولة العثمانية انذاك[٥] .

وبرغم الاضطهاد وتدهور الأوضاع الا أن الأقلية كانت تسيطر على أكثر من ٧٠٪ من الأراضى الزراعية قبل عام ١٩٤٤ ، وكان المجتمع

---

(٤) الوحدة الصادرة فى ٥ مارس ١٩٨٨ .

(٥) الشرق الاوسط الصادرة فى ٢٢ يونية ١٩٨٥ .

الاسلامى مجتمعا محافظا على نفسه ، فى حين كانت علاقته بالبغاريين على أدنى مستوى رغم أنهم موزعون فى مناطق متفرقة من القرى والمدن والمحافظات ، الا أنهم حافظـوا على أماكن التعليم وأماكن العبادة وحتى على النوادى الثقافية والرياضية الخاصة بهم ولكن النظام البلغارى الشيوعى استخدم القوة فيما بعد ليغير من واقع المجتمع الاسلامى للاقلية الاسلامية المحافظة على نفسها •

وبدأت الأوضاع الاقتصادية تنقلب على المسلمين بعد استيلاء السلطات على الأراضى ، بحجة الاصلاح الزراعى ومصادرة أراضيهم الخصبة وتسليم هذه الأراضى الى البلغاريين وحتى حيواناتهم لم نسلم من المصادرة •

وانتشر الاضطهاد والتمييز الى كافة مجالات الحياة الاقتصادية وازدادت هذه الضغوط وأصبحت عامة ومنظمة ضد الأقلية الاسلامية منذ الانقلاب الشيوعى فى ٦ سبتمبر ١٩٤٤ ، حينما دخلت بلغـاريا ضمن الستار الحديدى وانتشر اضطهاد المسلمين فى كل أوجه الحياة الاقتصادية والدينية والتعليمية وخاصة بعد ازدياد النفوذ الشيوعى عقب نهاية الحرب العالمية الثانية وسيطرتهم المطلقة على الحكم ، حيث قام الشيوعيون بشن حرب ابادة ووجهوا ضربات تلو الضربات ووضعوا قوانين تضيق الخناق على المسلمين وتجردهم من أبسـط حقوقهم الانسانية حتى أصبح ما يزيد عن ٨٠٪ من المسلمين فى بلغاريا من المزارعين الصغار •

أما الذين كانوا يعيشون فى المدن فاضطروا الى امتحان الحرف البسيطة ، ونظرا للضغوط المفروضة عليهم لم يكن عددهم فى الصناعة أو التجارة أكثر من ١٪ ، وبذلك اضطرت الغالبية العظمى من المسلمين الى هجرة الأرض والعمل فى وظائف متدنية فى تعاونيات الحكومة وجمع القمامة ورعى الأغنام •

ظلت الأقلية الاسلامية فى بلغاريا تعيش فى شبه عزلة تامة حتى عام ١٩٤٩ ، عندما بدأت عمليات التأميم واستمرت حتى عام ١٩٥٥ ،

واثرت بشكل مباشر على المسلمين وألحقت أضرارا بالغة بصغار المزارعين الذين أصبحوا مجرد عمال فى المزارع الحكومية أو عمال فى المبانى الحكومية والاسكان وقطاع الخدمات العامة ، فضلا عن عملية اعادة التوطين فى مناطق أخرى بحجة تحسين وتطوير الأعمال والتنمية الاقتصادية . الأمر الذى أدى الى تفريق العائلات وتشتيت شملها ، اضافة الى استمرار سياسة أبعاد المسلمين الذين يتكلمون التركية حتى عام ١٩٧١ .

ثم جاءت حملة الاستيعاب الحديثة وفق برنامج الحزب الشيوعى لعام ١٩٧١ الذى نص على ضرورة تطوير وتنمية الدولة الاشتراكية ، ومحاولة دمج كافة الأقليات المتعددة ، ولتطبيق ذلك استخدمت كافة الأساليب بما فيها المذابح الجماعية التى ارتكبت ضدهم والمئات ممن قتلوا أو سجنوا أو شردوا على مر الأعوام والتى كان من أهمها عام ١٩٧٢ .

وبدأت الصحف الرسمية منذ عام ١٩٧٧ تستخدم اصطلاح « دولة بلغاريا الاشتراكية الموحدة » . فى حين أكد « تيودور جيفكوف » عام ١٩٧٩ أن الشعب تمكن من التغلب وأوجد حل نهائى للمسألة القومية ، وان بلغاريا لا تعانى من مشاكل داخلية خاصة فى هذه المسألة ، فبعد عام ١٩٧٥ لم تعد تكتب على جوازات السفر بطاقات الهوية الشخصية والوثائق الرسمية الأخرى كلمة الجنسية[٦] .

يحرم على الأقلية الاسلامية الانضمام الى الجيش ، وانما التجنيد الاجبارى فقط ، ثم يرسلون الى الخدمة فى فيالق البناء الخاصة بشق الطرق وبناء المساكن والمرافق العامة والثكنات العسكرية وغيرها من الأعمال الشاقة فى حين تقتصر الوظائف قليلة الأجر على أفراد الأقلية الاسلامية ، كما يمنع تمثيلهم فى الحزب الحاكم أو فى الحكومة أو المناصب الادارية ، الا اذا تخلوا عن دياناتهم الاسلامية

---

(٦) الدستور الصادرة فى ١٩ ابريل ١٩٨٥ .

وقوميتهم التركية أو تعاونوا مع السلطات الحكومية ضد أقليتهم الاسلامية ، فانه ينظر فى أمرهم ، ويعطى وظائف مناسبة حسب توجيه الحكومة ومدى استخدامها لهم لأهداف خاصة بها أو أهداف دعائية •

التهجير الاجبارى :

وغيرت الحكومة البلغارية التركيبة السكانية للاقلية الاسلامية فى البلاد عن طريق تذويب المسلمين واجبارهم على الانتقال من مكان الى آخر ، ومنذ عام ١٩٤٨ طبقت السلطات البلغارية سياسة النفى أو التهجير الاجبارى ضدهم ، ففى شهر يوليو ١٩٤٨ تم نفى ملء خمسين عربة قطار من المسلمين بالقوة من مقاطعة « رودوب » الى « دو بروكا » وفى أكتوبر عام ١٩٤٩ أرسل الى النفى أو التهجير الاجبارى ملء ٢٨ عربة من عوائل الأقلية الاسلامية من مناطق « مستانلى » « كوجوك قاوق » و« دير دره » حيث أرسلوا الى المناطق الشمالية من البلاد •

كما اجبروا على التهجير فى سبتمبر عام ١٩٥٠ وتم ملء ٦٣ عربة قطار من الأسر الاسلامية من « كوجوك قاوق » الى مناطق « ترويان » و «ازجراد » و« سومون » وكان هذا التهجير الاجبارى يتم باسم مشاريع التنمية والتقدم ويتم عزل الصغار عن أسرهم ويتم زرعهم فى المجموعات البلغارية ، حيث جلب هؤلاء من مقاطعة « رود روب » و« ولى اورمان » ، وأرسلوا الى « صوفيا » و « يورجاز » و« ديمتر فجراد » •

ولا تعرف عوائل من الأقلية الاسلامية حتى الآن مكان أبنائها المزروعين فى المحيط السلافى البلغارى ، وهذه الحملة الاجبارية لم تكن قاصرة على المسلمين الأتراك وانما أيضا الـ « بوماك » و« الغجر » المسلمين دون تمييز ، ولعل وضع « البوماك » و « الغجر » من المسلمين أسوأ بكثير من المسلمين الأتراك بسبب الضغوط الدبلوماسية التى تمارسها الحكومة التركية بشأن أقليتها من الأتراك فى بلغاريا ، ومع أن تركيا لا تقدر على عمل شىء فعال بالنسبة لهؤلاء لاعتبارات دولية واقتصادية ، منها مثلا عبور أنابيب الغاز الطبيعى من الاتحاد

السوفيتى الى تركيا عبر بلغاريا الا أنها قادرة على الأقل طـرح القضية على المستوى الدبلوماسى • غير أن « البوماك » والغجر المسلمين لا يطمعون حتى هذا الطرح الدبلوماسى لافتقارهم الى من ساندهم ويوصل صوتهم الى المحافل الدولية •

وتهدف الحكومة البلغارية الى تهجير الاجبارى للاقلية الاسلامية من « الأتـراك » و« التتـــار » و« البـوماك » و« الارناؤوط » و« العلويين » و« الأتراك » المعروفين باسم « الغجر » من مناطق وأسكانهم وتوزيعهم الى مناطق أخرى خوفا من التكاثر ومنعا من الاتصال فيما بينهم ، كما عمدت فى هذه الأثناء الى اغلاق المدارس والمساجد الواحدة تلو الآخر بحجة عدم الاحتياج لها بعد التهجير •

الأوضاع الثقافية للاقلية الاسلامية :

يمنع الثقافة الاسلامية بكل أبعادها ، وتفرض الثقافة البلغارية ، ولهذا لجأت الحكومة الى ممارسة ضغوطها على الأقلية الاسلامية التى معظمها من الأقلية التركية بمنع « اللغة التركية » وكذلك التعـليم الاسلامى بمختلف أنشطتها وأدواتها •

منع اللغــة التركية :

منعت الحكومة البلغارية ، « اللغة التركية » وألغتها من المناهج الدراسية فى عام ١٩٧٤ ، وحظرت تعليمها ، وفى عام ١٩٨٥ أوقفت الحكومة اذاعة البرامج التى تبث اللغة التركية من اذاعة بلغاريا ، ومنعت طبع الصحف ، والكتب والمطبوعات بغير اللغة البلغارية ومنها المقالات التى كانت تكتب باللغة التركية بين حين وآخر فى صحيفتين يوميتين ، وكانت صحيفة بلغارية تصدر عادة باللغة التركية منذ زمن طويل ، تحولت الى اللغة البلغارية كاملة ، وكتاب المقالات فى صحيفة « النور الجديد » والذين كانت أسماؤهم تركية يوقعون الآن مقالاتهم بأسماء بلغارية(٧) •

---

(٧) الشرق الاوسط الصادرة فى ٢٢ يونية ١٩٨٥ .

التعـــليم :

عقد مؤتمر المسلمين البلغار فى « صوفيا » فى ٢٧ سبتمبر ١٩٤٤ ، وحضره أكثر من مئتى مندوب يمثلون الأقلية الاسلامية لوضع أسس تعليم الأقلية الاسلامية وقدم عريضة الى الحكومة البلغارية التى جاء ردها على لسان زعيم الحزب الشيوعى ورئيس الوزراء « جورجى ديمتروف » فى الخطاب الذى ألقاه فى ١٩ فبراير عام ١٩٤٦ قائلا :

« يجب علينا التأكد من أن السلاف لهم دور قيادى فى البلقان وان البلقانيين ينتمون فقط الى شعب البلقان ، وعلينا ازالة الآثار التى تركها العثمانيون فيها » .

وبعد عدة أشهر بدأ الاضطهاد الفكرى وأصدر مجلس بلغـــاريا الوطنى قانون التربية ، وبدأ برنامجا شبيها ببرنامج النازية ، وحل الجمعية الوحيدة التى كانت تحاول المحافظة على هوية وحقـــوق الأقلية الاسلامية وهى الجمعية المعروفة باسم « توران جمعيتى »[٨] .

وأمم قانون التربية كافة مدارس الأقلية الاسلامية التركية التى كانت تتملكها الجمعيات والمؤسسات التركية الاسلامية منذ عدة قرون ، وحولها الى مدارس تابعة للدولة وبذلك أصبحت جميع المدارس ملكا للحكومة بما فيها من أراضى ومبانى وأدوات تعليمية ، ولم يمضى نهاية عام ١٩٤٧ الا وكانت جميع المدارس للاقلية الاسلامية قد أممت وضمت الى المدارس البلغارية ، وهذا يتناقض مع ما تعهدت به بلغـــاريا فى دستورها الجديد لعام ١٩٤٤ بالمساواة لجميع أقلياتها ، وصودق عليها بقرار من اللجنة المركزية الحزب الشيوعى البلغارى والبرلمان البلغارى والمعروف باسم « صوبرانيا » بتأميم جميع مدارس الأقليات برغم النصوص التى جاءت لحقوقهم فى الدستور ثم ضمت المدارس الأقلية الاسلامية الى المدارس الحكومية الأخرى مع الاحتفاظ بحق التدريس باللغات القومية للاقليات ، ومنذ عام ١٩٤٧ منعت تعليم اللغة التركية ،

---

(٨) الشرق الاوسط الصادرة فى ٢٢ يونية ١٩٨٥ .

أعقبها توحيد التدريس باللغة البلغارية عام ١٩٦٠ ، وأحل اللغة البلغارية محل اللغة التركية ، وبعد هذه الخطوة ازدادت نسبة الأمية بين الأقلية الاسلامية ، وتشير الاحصاءات الرسمية الحديثة عن معدل التعليم بين الأقليات البلغارية الى ما يلى :[٩]

اليهود ٧١٫٣٪ ، الأرمن ٥٩٫٥٪ ، البلغار ٥٤٪ ، القوقاز ٤٠٪ ، التتار ٢٧٫٣٪ ، الأتراك ١١٫٩٪ ، الغجر ٨٫٣٪ والبوماك ٦٫٥٪ .

ويمكن القول بأن الأقلية الاسلامية التى عاشت منذ أكثر من خمسة قرون تمر اليوم باضطهاد فكرى ودينى وتشعر بانعزالها ليس عن الأمة الاسلامية وعن المجتمع الاسلامى وانما عن المجتمع الانسانى ، وخاصة بعد أن كانت لديها مئات المدارس الدينية أصبح التعليم اليوم يسير سيرا علمانيا وغير معترف بأى وجود دينى لذلك أصبح أبناء الأقلية الاسلامية ينشأون نشأة غير اسلامية .

وما زالت مناطقهم الى اليوم الأكثر تخلفا فى جميع أنحاء بلغاريا ، وعلى الرغم من محاولة الحكومة اظهار المسلم العازف عن التعليم ، إلا أن الحقيقة هى خططها بتجهيل مقصودة بعدم ايجاد أى مدرسة فى مناطق المسلمين[١٠] .

الأوضاع الدينية :

بالرغم من أن الأقلية الاسلامية التركية قد استوطنت بلغاريا منذ نهاية القرن الرابع عشر الميلادى ، الا أنها حافظت على دينها الاسلامى ولغتها وثقافتها القومية ، فمنذ أن حصلت بلغاريا على استقلالها عام ١٨٧٨ ، ظلت الأقلية الاسلامية متمتعة بحق المواطنة ولكن الادارات الحكومية بعدها بدأت ملاحقة الأقلية الاسلامية وسلبها

---

(٩) الدستور الصادرة فى ١٩ ابريل ١٩٨٥ .

(١٠) القبس الصادرة فى ٥ مارس ١٩٨٥ .

من أبسط حقوقها الانسانية وخاصة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، ولم تبذل جهود حقيقية لحل المشكلة الأساسية باستيعاب وفهم الاسلام والأقلية الاسلامية وانما على العكس بدأت اثارتها واضطهادها .

فى حين استمرت تلك الأقلية تواجه المشكلات والضغوط النفسية والاجتماعية والسياسية والثقافية وتمكنت من الحفاظ على وحدتها وعاداتها وتقاليدها ومعظم تعاليمها الدينية بفضل الدين الاسلامى وتعاليم القرآن الكريم ظلوا متحدين وحافظوا على هويتهم الدينية والوطنية(١١) .

وأمام هذه الظاهرة سلكت السلطات البلغارية شتى أنواع الممارسات التعسفية لمحاولة تذويبهم والقضاء على هويتهم الخاصة ، وقسمت هذه الأقلية بالتساوى بين جنوب البلاد وشمالها الشرقى .

وقبيل سيطرة الحزب الشيوعى على الحكم فى بلغاريا كانت المساجد والمدارس الدينية منتشرة فى كافة انحاء البلاد ، الا أنها بدأت تقل وتندثر ، ورغم أن للمسلمين زعيما دينيا وهو « المفتى العام » والعديد من الأئمة المحليين الا أن السلطات الحكومية تمارس حملة دعائية ضد الدين وتحط من أهميته ، ونتيجة لافتقار التربية الاسلامية الصحيحة ، واستخدام سلاح القانون ، تقلص الى حد كبير عدد الذين يمارسون الشعائر الدينية ، فعلى سبيل المثال ، كان جميع أفراد الأقلية الاسلامية فى عام ١٩٤٦ يؤدون الصلوات الخمسة فى المساجد ، لكن هذا العدد انخفض الى ما نسبته ٥٦٫٣٪ فى عام ١٩٥٦ والى ٣٢٪ عام ١٩٦٢ ، وبحلول عام ١٩٧٣ أصبحت النسبة ٩٪ فقط ، فضلا عن انخفاض عدد المصلين أيام الجمع بنفس النسبة ، كما فرض حظر على المركز الثقافى التركى الوحيد فى بلغاريا ، ومنعت الاحتفالات الدينية فى مناسبات الختان والزواج وأجبرت الفتاة المسلمة على التخلى عن الحجاب(١٢) .

---

(١١) الاتحاد الصادرة فى ٧ مارس ١٩٨٥ .

(١٢) الدستور الصادرة فى ١٩ ابريل ١٩٨٥ .

إغلاق معهد لتدريب الأئمة :

واصلت الحكومة البلغارية عمليات الاضطهاد الدينى ، فأغلقت المعهد التعليمى لتدريب الأئمة فى عام ١٩٥٠ ، مما أدى الى تناقص عددهم بشكل ملحوظ عملا بسياسة الانقراض أو الاندثار الطبيعى ، ولم يعد الآن سوى ٤٦٠ إماما بعدما كان عددهم أكثر من ١٨٠٠ إمام[١٣] .

إغلاق وهدم المساجد :

كما استمرت الحكومة البلغارية فى إغلاق وهدم المساجد ، فقد أوردت مجلة « الشؤون الدولية » اليوغسلافية فى عددها الصادر فى شهر فبراير ١٩٨٥ ، تفيد بأن « الحرب الخفية » بين السلطات البلغارية والأقلية الاسلامية تعود الى أعوام عديدة سابقة ، وأن جميع المساجد فى بلغاريا تم غلقها باستثناء مسجد واحد فى « صوفيا » وانه بالرغم من جدار الصمت الذى أقيم بعناية شديدة إلا أن الأنباء التى تتسرب تكشف، عن وقوع صدامات دموية ، فقد حدث صدام من هذا النوع عام ١٩٧١ ذهب ضحيته عدد كبير من الأقلية الاسلامية وآخر انتفاضة لهم كانت عام ١٩٨١ عندما اعترف بيان رسمى بلغارى بمقتل « سبعة أشخاص من العصابات التركية » حسب قول السلطات البلغارية .

ويجرى تعطيل الشعائر الدينية للأقلية الاسلامية ، فأى فرد مسلم يتوجه الى المسجد يفقد وظيفته ، وقد أغلقت المساجد التى لا تعتبر فقط أماكن مقدسة وجدت للعبادة وإنما كآثار تاريخية قائمة منذ عشرات السنين ، وتركت جميع التحف والآثار التركية الاسلامية تحت رحمة الزمن أو حطمت بموجب ذرائع وحجج مختلفة . كما أن السلطات البلغارية لم تعد تحتمل وجود المساجد المتبقية ولا ممارسة الشعائر الدينية ، وتم تنفيذ حملة دعائية إلحادية مضادة[١٤] .

---

(١٣) الاتحاد الصادرة فى ٧ مارس ١٩٨٥ .
(١٤) الاتحاد الصادرة فى ٧ مارس ١٩٨٥ .

وتم تفجير عشرة مساجد بداية عام ١٩٨٥ فى مدينة « سيمولين » بالديناميت لأن السلطات أرادت بناء فنادق ومواقف سيارات[١٥] .

تدمير المقابر :

وتقرر منع الجنازات طبقا للشريعة الاسلامية ، وان مقابر المسلمين لم تسلم من التدمير ، وهشمت الأحجار التى تحتوى كتابات عربية وإزالة شواهد القبور التى تحمل أحرف أو كلمات عربية .

منع ممارسة العادات والتقاليد الاسلامية :

لم يقتصر الاضطهاد على الشعائر الدينية وإنما امتد الى العادات والتقاليد الاسلامية مثل الزواج وتشييع الجنازات ، فان ممارستها تقابل بعراقيل كثيرة وبالرفض فى معظم الأحيان بل وصل الى درجة فرض الحظر على الحج والختان .

فقد أذاع مجلس المنظمات والجمعيات الاسلامية بالاردن بيانا عن أوضاع المسلمين فى بلغاريا كما قدم نصها الى السفارة البلغارية بعمان مع مذكرة مفصلة عن حالات الاضطهاد التى تعيش فيها الأقلية الاسلامية فى بلغاريا وجاء فى البيان :

« منعت الحكومة البلغارية الأقلية الاسلامية من عملية الختان لأبنائها حسب الشريعة الاسلامية ، وهددت كل مسلم يفعل ذلك بالسجن لمدة تتراوح ما بين خمس وعشر سنين ومنعوا أيضا من عقد الزواج بعقود النكاح الاسلامية وأجبروا على غيرها ... الخ » .

وكرد فعل لمثل هذه البيانات أذاعت وكالة « صوفيا برس » البلغارية تقريرا عن الاسلام والمسلمين فى جمهورية بلغاريا الاشتراكية قالت فيه[١٦] : أن المسلمين فى بلغاريا يقومون بأداء شعائرهم الدينية

---

(١٥) الدستور الصادرة فى ١٩ ابريل ١٩٨٥ .

(١٦) القبس الصادرة فى ٥ مارس ١٩٨٥ .

بحرية كاملة وطبقا لأصول الدين وقواعد الشريعة ، وسيسمح لهم باقامة الاحتفالات بالمناسبات الدينية والأعراس والجنائز .. الـــخ .

وهذه محاولة لتغطية الحقائق الواضحة بمنعها الصحفيين والمحققين من إجراء التحقيقات حول ذلك إذ صح ما تقوله الحكومة البلغارية .

سياسة البلغرة وأحداث ١٩٨٥ :

تواجه الأقلية الاسلامية حرب إبادة جماعية كالتى حصلت للمسلمين فى تركستان ، فهم يعانون من الهجمة الشرسة التى تشنها السلطات البلغارية الرسمية على الاسلام والمسلمين ، الذين واجهوا لعدة سنوات خلت ولا زالوا لحرب إبادة وتصفية لعقيدتهم ولدينهم الذى ارتضوه وارتضاه الله لهم .

وقد صبرت الأقلية الاسلامية التى تعيش هنـــاك منذ مئات الأعوام ، حتى بلغ الأمر مداه من الاعتداءات على فتيات المسلمات ، والقبض على رجالهم والتحرش بأطفالهم حتى اقمة العيش حاربوهم فيها ، كل هذا كان محتملا ، إلا أن تهديم المساجد ، ومنعهم من تأدية الفرائض والصلاة ، وتغيير أسمائهم الى أسماء مسيحية ، ثم يطلبون منهم الاشتراك فى أحزابهم والانخراط فى سلك الشيوعية أو المـــوت والتهديد بالسلاح ، فهذا ما لم تتحمله الأقلية الاسلامية .

فقد قامت الحكومة البلغارية باجراءات تعسفية من اضطهاد وقمع لمحو آثار الاسلام واستئصال شأفة المسلمين ، متمثلة بحملات المطاردة والاعتقالات والقتل الجماعى الذى لا يميز بين طفل وشيخ ولا امرأة ، حتى بات الفرد المسلم لا يسلم على نفسه ولا عرضه وانما يخير بين القتل أو تغيير الاسم والهوية الاسلامية .

وغالبا ما يتم ذلك عن طريق ارسال قوات من البوليس أو الجيش حسب أهمية المنطقة ونوع المقاومة الى احدى القرى أو المدن التى يسكنها المسلمون ، فتحاصرها وتمنع الدخول أو الخروج إليها ، ويحظر فيها منع التجول ثم يستدعى رب الأسرة كى يوقع على استمارة مطبوعة

سلفا ، وتتضمن رغبة رب الأسرة فى تغيير اسمه ولقبه واستبدالهما بأسماء بلغارية ، وكل من يرفض أو يقاوم يتعرض للضرب والسجن والتعذيب والقتل •

وبعد مرور فترة قصيرة من إتمام إجراء « البلغرة » ، يفاجأ رب الأسرة ببطاقة هوية جديدة مرسلة من قبل إدارة النفوس ، وفيها يجد أن اسمه قد تغير من على الى إيفان وحسن الى ديمترى ••• الخ •

وبعد أن تكررت هذه العمليات التعسفية انتشر الخبر بين القرى والمدن التى يقطنها الأقلية الاسلامية ، والتى أدركت أبعاد المخطط البلغارى لمحو الاســلام والمسلمين والمؤامرة التى يواجهونها ، لأن العملية تستهدف بالدرجة الأولى محو شخصيتهم ومسح كيانهم ودمج هذا الكيان فى المجتمع البلغــارى المبنى على التنكير لماضى الأقليــة الاسلامية ، ورفض جميع قيمه وعاداته وتقاليده المتوارثة ، ومن هنا كان رد فعل المسلمين مقاوما لهذا الاجراء التعسفى الذى ينتهك حقوق الانسان مهما كان الثمن ••

ونتج عن ذلك وقوع اشتباكات بين الجيش البلغارى والسكان المسلمين العزل من الأسلحة ، وإنما بالأدوات البدائية كالســكاكين والفؤوس والهراوات ، مما أســفر عن ســقوط عدد كبير من القتلى والجرحى فى القرى والمدن المختلفة • قدرت بعض المصــادر بما لا يقل عن ألفى شخص بينهم عدد من أفراد القوات البلغارية ، كما تعرض الكثير من المسلمين للتعذيب والسجن الانفرادى ولاذ عدد منهم بالجبال بينما فضل البعض الانتحار •

ويقول سعادة « تانر بايتوك » سفير تركيا فى « أبو ظبى » :

لقد قتلوا خلال الثلاثة أشهر الأخيرة فقط (بداية عام ١٩٨٥) أكثر من ٤٠٠ مسلم غير الآلاف الموجودين فى دهاليز السجون ، وما زالت الحكومة التركية تجمع المعلومات بصعوبة شديدة عما حدث فى السنوات الماضــية •

ويضيف سعادة السفير قائلا : أنه من خلال التقرير الرسمى الذى وزعته وزارة الخارجية التركية على سفاراتها فى الخارج ومن خلال القنوات الدبلوماسية فى المحافل الدولية • ومنذ ديسمبر ١٩٨٤ ، يواجه المسلمون الأتراك فى بلغاريا حملة واسعة النطاق بهدف ارغامهم على تغيير أسمائهم الاسلامية التركية الى أسماء غير اسلامية ، ولكى تنجح الحملة أحيطت القرى بقوات الجيش ، واستخدمت الدبابات ، ولقد أنكرت الحكومة البلغارية وقوع مثل هذه الحوادث لفترة طويلة ، كما رفضت السماح للصحفيين والدبلوماسيين فى « صوفيا » بالسفر الى المناطق والأحياء التى وقعت فيها الحوادث •

وعندما اكتشفت السلطات البلغارية بأن الانكار لم يعد مقنعا ، بدأت فى الادعاء بأن الأتراك يغيرون أسماءهم بمحض ارادتهم ، ويبدو من الواضح أنه من غير الممكن ولا حتى من المعقول أن يقدم مليون ونصف المليون شخص طواعية لاستبدال أسمائهم بأسماء بلغارية مسيحية •

ثم يضيف السفير التركى فى أبو ظبى قوله :

الغريب فى الأمر أنهم حينما يقتحمون أى قرية بلغارية ممن تضم كثافة سكانية مسلمة أنهم يعلنون على الملأ ، بأنهم قادمون لقتل الاسلام وأنه لا وجد قانون دولى ولا حماية من أى نوع سوى الرضوخ لتعليماتهم ، ويقولون لهم تستطيعون العيش فى أمان • غيروا ديانتكم وأسماءكم وانسوا حكاية الاسلام واقبلوا الأسماء الجديدة التى نعرضها عليكم •

وبالمقابل نحن فى تركيا عندما جاء « الفاتح » « أوتومان » وفتح استنبول ، كان هناك يعيش عدة ملايين من البلغار تحت الحكم العثمانى فى ذلك الوقت أى قبل ٤٠٠ عام ، ولم يتدخل العثمانيون فى ديانة واحد ولا لغته ولا تقاليده وقالوا الدين لله والوطن للجميع •

والآن ونحن فى القرن العشرين يطلبون من الناس بقوة السلاح

والقتل والبطش تغيير ديانتهم ، اننا لن نقف مكتوفى الأيدى وسنحارب بكل ما نملك من أجل عقيدتنا ودينا وأهالنا المعذبين(١٧) .

وعزلت السلطات البلغارية قرى ومدن التى تسكنها الأقلية الاسلامية بعد أن تسربت أنباء عن ارغام المسلمين الأتراك على تغيير أسمائهم بدعوى « البلغرة » وقامت قوات الجيش والشرطة بفرض رقابة شديدة على الدخول الى المناطق الاسلامية الواقعة قرب مدينة « كاروزالى » فى الجنوب ومدينة « ازجراد » فى الشمال الشرقى ومنعت أى اتصال بين المسلمين والأجانب ، وخاصة الصحفيين الذين حاولوا التحدث مع السكان المسلمين فتعرضوا لتحقيقات مطولة من قبل السلطات البلغارية .

واستهدفت تلك الاجراءات لمنع تسرب أنباء عن عمليات البلغرة التعسفية ، سواء الى بقية أفراد الشعب البلغارى نفسه أو الى الخارج ، وتلك العمليات أدت الى مصادمات التى أودت بحياة الكثيرين . والمسلمون الذين يخاطرون بالتحدث مع الأجانب يتعرضون لتصفيات جسدية أو للسجون الأبدية .

فقد أجبرت الحكومة البلغارية الأقلية الاسلامية على تغيير أسمائها الى أسماء بلغارية مسيحية كمحاولة من محاولاتها العديدة لقطع علاقة الأقلية الاسلامية بالاسلام مستخدمين أساليب وحشية وذرائع مختلفة لا تستند الى الواقع ولا تمت الى احترام قانون حقوق الانسان ، وذلك لازالة التجمع الاسلامى فى المحيط البلغارى السلافى .

وأصدرت لأجلها عدة قرارات من قبل مؤتمر الحزب الشيوعى البلغارى وهو السلطة الحاكمة الذى أقر القوانين واللوائح فى عام ١٩٧١ ، ولا زالت مستمرة فى تطبيقه حتى الآن تحت شعار « برنامج لتطوير الأمة الاشتراكية البلغارية وان هذا البرنامج سوف يمتد الى

---

(١٧) الاتحاد الصادرة فى ٧ مارس ١٩٨٥ .

جميع المواطنين فى بلدنا من مختلف الأصول العرقية وسيكونون أقرب بعضهم الى بعض » •

وبعد مرور عدة سنوات خرجت شعارات أخرى فى الصحف والمجلات الحكومية وكلها تنصب فى نفس الهدف، تحت شعار « الأمة الاشتراكية الموحدة » •

وفى عام ١٩٧٧ ذكر أحد المحررين فى الجرائد البلغارية الرسمية مقالات تحت عنوان : « أن بلدنا هو من أصل واحد ، ويستمر نحو إذابة جميع الفوارق » •

وأكد رئيس الجمهورية « تيودور جيفكوف » عام ١٩٧٩ : « أن المسألة القومية تم حلها نهائيا وبشكل مطلق من السكان أنفسهم وليس لبلغاريا مشاكل داخلية فيما يتعلق بالمسألة القومية » •

وتمشيا مع السياسة الجديدة لم يشير البيانات اللاحقة فيما يتعلق بمسألة القومية منذ احصاء عام ١٩٦٥ ، وبعد عام ١٩٧٥ لم تعد القومية تدرج فى الوثائق الرسمية مثل جوازات وبطاقات الهوية •••• الخ[١٨] •

ورافقت هذه الحملة اشاعات ودعايات ، لايجاد مبرر لتطبيق بلغرة الأسماء وبث الحقد والكراهية فى نفوس الجنس البلغارى السلافى ضد الأقلية الاسلامية ، فى الوقت الذى اشتد التوجس التقليدى لدى البلغار وخاصة فى العاصمة « صوفيا » من أبناء الأقلية التركية الذين حكم أجدادهم فى عهد الحكم العثمانى حتى أصبح أقرب الى الهوس •

وكان البلغار يشعرون منذ فترة طويلة بعدم الارتياح بسبب العادات والتقاليد للأقلية الاسلامية التى تعيش بينهم ، اضافة الى زيادة معدل المواليد بين أفرادها •

---

(١٨) الشرق الاوسط الصادرة فى ٢٢ يونيو ١٩٨٥ •

حد سواء ، الصمت الرسمى بشأن هذه القضية الذى لا تقطعه سوى إشارات مقتضبة فى تصريحات المسئولين لا تقدم سوى مجرد أجزاء متناثرة من الصورة الاجمالية •

ومما زاد من القلق الشائعات التى تصدرها الجهات الرسمية بين الحين والآخر ، وعن انفجارات وهجمات تنصب الى الأتراك ، ومبالغات رائجة وزاخرة بالفظائع كثيفة فى تعاملها ، اضافة الى النكات الساخرة على الأقلية الاسلامية ومنها ما قاله أحد الدبلوماسيين « أنه قيل لبوابى العمارات السكنية أن يغلقوا أبوابها فى وقت مبكر من الليـــل وقيل للآباء أن يرافقوا أبناءهم من والى المدارس •

وثمة علامة تصرفات أخرى على الجو السائد والمتوتر ويتمثل فى تفتيش حقائب زبائن المطاعم ، وزيادة عدد نقاط التفتيش التى يقيمها البوليس لفحص هوية المارة الى حد كبير •

وأنهت السلطات البلغارية فى نهاية عام ١٩٨٤ حملة بلغرة الأسماء فى جوازات السفر والبطاقات الشخصية فى المدن الرئيسية ، وكانت هذه جزء من حملة شاملة تنتهى بنهاية عام ١٩٨٥ ؛ وأعلنت الحكومة البلغارية أنها أنجزت العملية بنجاح فى المناطق الحضرية ثم حاولت توسيع جملتها لتشمل منطقتى « خاسكورو » و « موشلنجراد » جنوبى « دوبردجا » ، إلا أن الأقلية الاسلامية التركية قاومت عملية البلغرة ورفض الأفراد توقيع الأوراق الرسمية لتغير أسمائهم ، مثــلا من « أحمد » الى « بيتر » ، والتخلى بذلك عن ثقافتهم الاسلامية وقوميتهم التركيـــة •

وكان البرنامج اجراء بيروقراطيا مذهلا أعيد فيه اعادة آلاف من البطاقات الشخصية ، ورخص القيادة ودفاتر التوفير وغيرها من الوثائق الرسمية الاخرى بسرعة غريبة •

ويقول الدبلوماسيون : « أنه من الواضح أنه جرى التخطيط للعملية قبل تنفيذها بدقة متناهية بعدة أشهر إن لم تكن سنوات » •

ويقول دبلوماسيون آخرون مستشهدين بالخسائر البشرية الكبيرة بأن السلطات الحكومية ربما أساءت تقدير المقاومة التى قد لقيتها عملية بلغرة الأسماء سواء على الصعيد الداخلى من قبل الأقلية الاسلامية وخاصة الأتراك أو على الصعيد الخارجى من الجارة تركيا وبقيـة دول العالم .

وسوف نتطرق الى الأساليب القمعية التى اتبعتها الحـكومة البلغارية لتطبيق سياسة البلغرة فى الداخل وردود الفعل الخارجية وما قالت عنه وكالات الأنباء والصحافة العالمية .

وهاجمت المليشيات البلغارية فجر ١٢ يناير عام ١٩٨٥ ، قرية « بابلونوفو » الجبلية الواقعة فى الشمال الشرقى من بلغاريا ، وهى جزء من المنطقة التى تستوطنها الأقلية التركية المسلمة لغارات مماثلة لاجبار المسلمين هناك على تغير أسمائهم التقليدية الى أخرى بلغارية ، فحدثت نتيجة ذلك صدامات عنيفة بين الأهالى الذين قاوموا هذه الحملة وبين القوات الحكومية .

وتقول التقارير التى تسربت من تلك المنطقة أن عدد القتلى من المسلمين يتراوح بين ١٠٠ و ٢٠٠ قتيل ، وأوردت تقارير أخرى أن العدد وصل الى ٨٠٠ قتيل فيما بعد . كما دفن آخـرون وهم أحياء تحت أنقاض بيوتهم التى هدمتها الجرارات الثقيلة ، بعـدما كانت الدبابات احتلت البلدة فى صباح ١٢/١/١٩٨٥ ، وأغلقت جميع منافذ البلدة من قبل رجال المليشيات ، أما سكانها فهى تبلـغ (١٨٠٠) نسـمة .

وهاجم رجال المليشيات السكان الى داخل منازلهم وهم يحملون سلاحهم فى يد ورزمة أوراق فى اليد الأخرى ، بينما وقف القرويون أصحاب المنازل وهم فى ملابس النوم مذهولين لا يفهمون شيئا مما يجرى حولهم ، ثم أعطى رجال المليشيات استمارة فى يد كل رب أسرة ، وطلبوا منه أن يغير اسمه واسم أفراد أسرته .

---

(١٩) الشرق الاوسط الصادرة فى ٢٢ يونيو ١٩٨٥ .

وعندما يتململ بعض هؤلاء ويستفسرون عن سبب هذا الاجراء الغير قانونى ، ينلقون سيلا من الشتائم والصفعات والأمر بالاسراع فى تغيير الأسماء ، أما أولئك الذين تجرأوا أكثر وأعلنوا أنهم لن يغيروا أسماءهم وأسماء أفراد أسرهم ، لأن دستور البلد ضمن لهم هـذا الحق ، فيخرجونهم من منازلهم جميعا الى ساحة القرية ، ويعطى لهم الطلب السابق تغيير الأسماء وهم شبه عرايا مع التهديد باستخدام السلاح والضرب الجارح •

ولكن معظمهم رفضوا ذلك مما أدى الى حصد أكثر من ٣٠ مسلما بالرشاشات خارج مكتب العمدة . ثم جلب الجنود الآليات الثقيلة والمتفجرات ونسفوا المنازل القائمة حول الســاحة الرئيسية للبلدة وسووها بالأرض ، ودفن سكان بعض هذه المنازل أحياء تحت أنقاض منازلهم ، كما عمدوا الى تعرية النساء المســلمات واغتصبوهن أمام عائلاتهن ، وأغلقت المدارس والمقابر الاسلامية وحولت بعض المساجد الى مستودعات الخمور ومنها مسجد « كارس » فى « رازغراد » •

وتغير الأسماء هذه هى جزء من حملة واســعة منظمة لتذويب الأقلية التركية هناك مع المجتمع البلغارى الشيوعى أو السلاف •

وقد علق « ديميتار ستانبسيف » ، سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعى عن عمليات البلغرة بقوله :

« أن بلغاريا دولة موحدة الصفوف وذات قومية واحدة ، وقال أن عملية التغيير الجماعى للأسماء تقوم على أساس ما وصفه بنهضة قومية للعودة الى جذور بلغاريا » •

أما التعليق الذى أدلى به « ستانكو تودورف » عضو المكتـــب السياسى للحزب الشيوعى البلغارى ، حول السياسة القمعية دليل واضح على المخطط التعسفى لانتهاك حقوق الانسان عندما قال :

« هؤلاء الذين يريدون أن يرقصوا على موسيقى ودعاية أنقره وعملائها فى الداخل ، ويرغبون فى الهجرة ، عليهم أن يعرفوا أن التعليمات

صدرت للجهات المخولة التحدث بأسمهم أن تكون متأكدة من الموافقة على الهجرة السريعة خلال ثلاثة أو أربعة ساعات » .

وأضاف قوله : لكن الهجرة لن تكون الى تركيا وانما الى مناطق أخرى من بلغاريا حيث سيعيشون فى هدوء أكثر ، ويجدون السعادة ، وكان ذلك تحذيرا بالنفى الداخلى فى أفضل الأحوال أو بالسجن فى أسوائها .

ويلاحظ المراقبون أن الاجراءات الجديدة تأتى فى ذروة نهـج تقليدى طويل ينحو الى قمع الأقلية الاسلامية وبلغرة البلاد .

وهكذا يتعرض المسلمون الى أشكال متعددة من المضايقات وأودع كثيرون منهم معسكرات الاعتقال ، عندما رفضوا أن يستجيبوا لهـذا الأمر ، كما أن السلطات العسكرية كانت تقوم باحضار أعداد كبيرة من قوات الجيش والشرطة الى المناطق التى ترفض التوقيع .

شهادات من بعض الأقلية الاسلامية :

ذكر الدبلوماسيون الغربيون أن عمليات القسر من جانب السلطات البلغارية أودت بحياة الكثيرين من الأقلية الاسلامية ، كما يؤكد ذلك أفراد الأقلية الذين يخاطرون بالحديث مع الأجانب ، سواء الدبلوماسيون أو الصحافيون عن هذه العمليات ، بأن الاشتباكات الدامية وقعت بين القوات البلغارية وأفراد من الأقلية الاسلامية فى أربعة مدن وهى « ماداث » و « موسيلجراد » وأيضا جلون .

نجح بعض الصحفيون فى كسر حاجز الاتصال بالوصول الى المناطق المحاصرة برغم فرض الحظر ، والتقوا مع بعض من استطاعوا الهروب من المناطق المحاصرة وقد وافق أحد الناجين أن يتحدث عما يجرى هناك بشرط عدم ذكر هويته ، وهو من سكان مقاطعة « قاردزلى » فى مقتبل العشرين من العمر إذ قال :

« جاء البوليس الى منزله قبل شهر وطالبـه بتسـليم هويته

الشخصية ، ثم أعطاه بدلا منها قصاصة ورق عليها اســمه البلغارى الجديد • وأخرج الشاب الورقة من جيبه وهزها فى الهواء • وكان الاسم الجديد مكتوب بخط يد وقلم حبر وعلى الورقة الختم الرسمى والتاريخ وقال أيضا :

أن البوليس أرغمه على ملء استمارة طلب تغيير الاسم للاحتفاظ بها لدى السلطات المحلية ، وأنه حين تردد فى التوقيع عليها ، ضربه رجل البوليس على رقبته وطلب منه التوقيع • وأن أسماء والديه قد تم تبديلها مثل بقية الأتراك هناك ، وقال وهو ينتحب : « حين تجردونى من اسمى يعنى أننى لم أعد حيا » •

« خليل أوزنوعلو » : رئيس الرابطة الثقافية للأتراك البلغار السابق قال :

أن ثمانين قرويا من « أجريدير » قرب « كرسالى » لاقوا حتفهم خلال الشهرين الماضيين ، وقال أيضا بأن مجازر أخرى ارتكبت بصورة سرية فى عدة قرى أخرى •

« رحيم مؤمينوت » ضابط الشرطة السرية البلغارية السابق الذى طلب حق اللجوء السياسى الى تركيا أثناء الأحداث عام ١٩٨٥ ، أفاد :

أن السيد « جميل » رئيس بلدية « سيمولن » دفع فى شــهر أكتوبر ١٩٨٤ الى تغيير اسمه لكنه رفض ذلك ، وفى اليوم التالى داهمته شاحنة وأردته قتيلا ، وفى نفس البلدة ، أقدم أربعــة من مسلمى « بوماك » على الانتحار فى نطاق حملة الاحتجاج على تغيير الأسماء ومنعهم من ممارسة شعائرهم الدينية[٢٠] •

« رحيم سـليمان » :

أوردت وكالة « اسوشيتد برس » فى مارس ١٩٨٥ نقلا عن صحيفة « عالم الشباب » الالمانية الشرقية التى نشرت بتاريخ ٢٥

---

(٢٠) الدستور الصادرة فى ١٩ ابريل ١٩٨٥ •

فبراير ١٩٨٥ ، أن بطل العالم البلغارى فى رفع الأثقال للوزن الخفيف « رحيم سليمان » قد غير اسمه التركى الى اسم سلافى ، وأن البطل الشاب يقوم الآن بجولة رياضية فى المانيا الشرقية باسمه الجديد « ناعوم شالامانوف » . وقالت أيضا :

« إذا لم تتعرف أيضا على صاحب الاسم الجديد شالامانوف فهو نفس الصبى الذى سجل الرقم القياسى العالمى وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، وأصبح بطلا عالميا فى السادسة عشرة وفى الثامنة عشر من عمره سمى باسم « ناعوم شالامانوف » .

وفى نفس خبر وكالة « أسوشيتدبرس » جاء أيضا أن الصحيفة الرسمية للحزب الشيوعى الالمانى الشرقى « نيوز دويتشلاند » ، قد نشرت بتاريخ ٢٥ فبراير أيضا ، موضوعا عن الجولة الرياضية فى « ميسيين » جاء فيه عن أن « ناعوم شالامونوف » (المعروف سابقا باسم سليمانوف) هو أحد المشتركين فى هذه المسابقات الرياضية ، وأوردت وكالة المانيا الغربية الرياضية SID تعقيبا حول تغيير اسم سليمانوف قالت فيه : أن لغة الأمم لسليمانوف هى التركية وهو من قرية « بينتشار » القريبة من الحدود التركية .

أحمد « أندريه » :

وأن الاستياء الغاضب بين كثير من أبناء الطائفة التركية إزاء اضطرارهم للتخلى عن الأسماء الاسلامية لأجدادهم يكاد يكون ملموسا . ويقول أحمد وهو صبى فى العقد الثانى من عمره يعرف الآن رسميا باسم « أندريه » فى تعليق متسم بالمرارة مثل الكثير من تعليقات أبناء طائفته بهذا الشأن : « أن القوة فى جانبهم بينما نحن محرومون منها »[٢١] .

---

(٢١) الاتحاد الصادرة فى ٨ ابريل ١٩٨٥ .

شـــهادات وسائل الاعلام العالمية :

يقول أحد الصحفيين والذى اختلس الى قرية « منستر » ، دون علم السلطات البلغارية ، وعند دخوله القرية ، وجد امرأتين أمام أحد المنازل يغسلان الملابس ، وخاطبهما بالتركية « أريد كوبا من الماء » •

وعندما سمعانى أتحدث بالتركية غمرتهما الفرحة والسرور ، وقالا لى مرحبا ••• يمكنك أن تشرب من الطامبة « الماسورة » فقلت لها أنا صحفى ، وهنا أصابهما الذعر فجأة ، وأمرنى بضرورة الابتعاد عن المكان بسرعة ، وذلك لوجود أحد قادة الشرطة فى البيت المقابل ، وهذا سيعرضهما للمساءلة والتعذيب بعد رحيلى •

وأكدا لى بأن البوليس البلغارى سيمارس ضدهما أبشع صور التنكيل وسيحملهما مسئولية إيوائى والتحدث معى ، وأكدتا لى ، بأن موقف الأقلية الاسلامية متردية للغاية ، وبأنها تتعرض للضـــغوط لاســتبدال الأسماء الاسلامية التى يحملها أفــراد الجالية بأخرى مسيحية •

كما أبلغانى بأن رجال البوليس يقتحمون البيــوت ببنادقهم ويرغمون السكان على التوقيع على أوراق تنص على أنهم قد استبدلوا أسماءهم الاسلامية بأخرى مسيحية ، وفى الأسبوع الماضى اعتقل رجال الشرطة سبعة أشخاص ستة رجال وامرأة واحدة ، لأنهم رفضـــوا التوقيع على الورقة الخاصة بتغيير الأسماء[٢٢] •

ويتابع الصحفى قوله : ثم توجهت لقرية أخرى لن أذكر اسمها حفاظا على أرواح الناس وأمن القرية ، وهناك عرض على رجال القرية أيادى أطفالهم وقد ختم عليها العلم التركى والاسم الاسلامى ، بشكل لا يقبل الزوال (بالنار) • وذلك لمواجهة حملة تغيير الأســماء الى المسيحية البلغارية •

---

(٢٢) الاتحاد الصادرة فى ٧ مارس ١٩٨٥ •

وبما أن كل من يرفض الانصياع لأوامر السلطات البلغارية ، يواجه الطرد ، ويترك عائلته ، فهذا من شأنه إذابة العائلة وسط جموع الشعب البلغارى ، وبعد جيل لا يمكن التعرف على الأولاد ، لأنهم يكونون قد أصبحوا بلغاريين .

ومن هنا أدرك الأتراك المسلمون أهمية هذا الختم الذى يقوم مقام الماركة المسجلة للتعرف على أبنائهم حتى بعد عشرات السنين ، كما أبلغنى سكان القرية بأن المسجد قد خرب ودمر . وبعد أن التقطت مجموعة من الصور لسكان القرية ، وأهم الأماكن فيها . تركت القرية وتوجهت بسرعة للطريق الدولى حتى لا ينكشف أمرى من قبل السلطات البلغارية .

وقبل وصولى الى مفترق الطرق الذى يؤدى الى الطريق الدولى ببضعة كيلومترات ، قطعت طريقى إحدى سيارات الشرطة ، حيث خاطبنى أحد أفرادها بالتركية قائلا :

ماذا تفعل هنا ؟ فأجبته : « لقد ضللت الطريق وأنا فى طريقى لصوفيا » . فطلب منى جواز السفر ، وعندما علم بأن مهنتى صحفى بعد أن نظر لجواز السفر تحول وجهه الى اللون الأحمر القانى ، وغضب وطلب منى على الفور إبطال السيارة والانتظار ، ثم أخذ جواز السفر وذهب الى مكان لا أعرفه ليعود الى بعد ٢٥ دقيقة .

وفى هذه الاثناء قمت باتلاف كل الأفلام التى صورتها عن القريتين ، وابتلعت كل المذكرات التى كتبتها ، ثم أقلتنى سيارة الشرطة الى مدينة أخرى تسمى « خسكو » ، حيث توجهنا لأحد مراكز الشرطة بالمدينة لاجراء تحقيق معى ، وقد استمر لمدة سبعة ساعات ، حيث سألونى عن كل شىء ، وأثناء التحقيق قاموا بتجريد السيارة من كل شىء وتفكيكها وفحصها جيدا ، ثم أطلقوا سراحى ، وقد تبعتنى احدى سيارات الشرطة الى أن وصلنا الى الحدود اليوغسلافية[٢٣] .

---

(٢٣) الاتحاد الصادرة فى ٧ مارس ١٩٨٥ .

« الاسوشيتدبرس » :

قالت وكالة « الاسوشيتدبرس » تقاوم الأقلية التركية فى بلغاريا الضغوط التى تفرضها السلطات، على أفراد الجالية بهدف استبدال أسمائهم الاسلامية بأخرى مسيحية ، وذكر الدبلوماسيون الأجانب فى صوفيا : بأن تلك الحملة قد أسفرت عن موت العشرات ممن رفضوا الانصياع للضغوط •

ولكن لم تتوفر بعد أية معلومات أكيدة حول الحجم الحقيقى للخسائر ، وورد فى أحد التحاليل الاخبارية ، بأن أربعين شخصا على الأقل قد قتلوا خلال الأسابيع الاخيرة ، لأن المجتمع مغلق ، من الصعب التأكد من صحة المعلومات ، ولكن بدون شك ، هناك مشكلة ، وقد حدثت المواجهة فى منطقة « جاسكون » على بعد سبعين كيلومترا الى الشمال من الحدود التركية واليونانية ، طبقا للتقارير الواردة من صوفيا ، وتعتبر هذه المنطقة موطنا لعدد كبير من أفراد الجالية التركية •

صحيفة « الجارديان » :

أما صحيفة « الجارديان » البريطانية فقد علقت على الموضوع بقـــولها :

بأن الجنود ورجال الشرطة يحاصرون القرى ليلا ، ثم يقومون بعمليات تفتيش من بيت الى بيت ، ويسلمون السكان نماذج بخصوص تغيير أسمائهم التركية بأخرى بلغارية مسيحية ، وأضاف المصدر ، لو قبلوا تكون المشكلة قد حلت ، أما لو رفضوا فانهم يتعرضون للضرب والتهـــديد •

« راديو لنـــدن » :

أما « راديو لندن » فقد أشار :

ذكرت مصادر دبلوماسية عربية فى العاصمة البلغارية « صوفيا » بأن مائتى شخص على الأقل قد قتلوا فى المناوشات التى جرت بين

قوات الأمن والأقلية التركية فى الاسابيع الاخيرة • وذكر بأن قوات الأمن قد حاصرت القرى الآهلة بالسكان وأجبرت القرويين على اعادة جوازات سفرهم ، وتبنى أسماء بلغارية ، مما دفع الجانب الآخر الى فتح النيران عليهم ، وتسبب فى حدوث مناوشات ، وأشار شهود العيان بأن السكاكين كانت من بين الأسلحة التى استخدمت فى المناوشات •

ويقول الدبلوماسيون ، استنادا الى مصادر معلومات موثوقة ، بأن قوات الأمن تقوم فى بعض الأحيان بممارسات وحشية ضد المسلمين الأتراك ، وهذا من شأنه زيادة حدة المقاومة •

وفى نفس الوقت ، ما زالت وزارة الخارجية البلغارية تنكر هذه الاتهامات ، وتصفها بأنها من نسج الخيال ، وتدعى بلغاريا بأن الموقف كان نتيجة لحملة الغرض منها هز علاقاتها بتركيا ، التى شهدت فى الفترة الأخيرة تحسنا ملحوظا بالنسبة لما كانت عليــه فى الماضى ، واتهمت الصحافة التركية بترويج الأكاذيب بالادعاءات حول هــذه المســألة •

« نيويورك تايمز » :

أشارت صحيفة « نيويورك تايمز » قائلة :

أعربت وزارة الخارجية عن قلقها العميق للتقارير التى أفادت بتعرض الأقلية التركية فى بلغاريا لممارسات قمعية وأعمال وحشية ، وذكر متحدث رسمى باسم وزارة الخارجية قائلا :

« لقد قرأنا باهتمام بالغ التقارير التى أفادت بقيام بلغاريا بشن حملة الهدف منها إرغام الأقلية التركية على قبول أسماء مسيحية ، كما أننا ننظر بنفس الاهتمام للتقارير التى أفادت بوقوع حوادث عنف ضد الذين يرفضون تغيير أسمائهم » •

وتضيف الصحيفة :

ويقول الدبلوماسيون بأن عددا من رجال الأمن قد قتــلوا فى

المناوشات القائمة منذ ديسمبر الماضى • وذكر بأن عددا كبيرا من الأتراك المسلمين قد جرحوا ، بينما تعرض عدد كبير منهم للتعذيب والاعتقال • وذكر بأن الحكومة البلغارية قد نقلت حملتها قبل أيام للمناطق الرئيسية التى تقيم فيها الجالية التركية ، فى السهول الشرقية جنوب حدود « الدانوب » مع « رومانيا » • كما أفادت التقارير الواردة من هناك بوقوع أحداث شغب فى كل من « شومين » و « راذجراد » و « تورجو ميدشت » وقد أسفر اشتباك وقع قبل أيام عن وفاة ما يزيد على ثلاثين شخصا •

« راديو صوت أمريكا » :

أما راديو « صوت امريكا » فقد علق على الحوادث بقوله :

لقد جمع مراسلنا الذى عاد الى « فيينا » بعد زيارة « لصوفيا » المعلومات التالية حول الصعوبات التى تواجهها الأقليـــة التركية فى بلغاريا : يدعى الدبلوماسيون بأن الحملة ستنتهى فى الشهر الأخير من العام الجارى ، عندما لا يكون هناك أى مواطن بلغارى يحمل اسما تركيا •

وأن الأتراك يتعرضون للقمع الدينى ، وأنهم غير قادرين على ممارسة شعائرهم الدينية بحرية ، وبأنه لا يسمح لهم بدفن موتاهم فى المقابر الاسلامية ، وطبقا لما ذكره دبلوماسيون فى « صوفيا » فان الأتراك يواجهون بتهديد التعرض لأحكام بالسجن لفترات طويلة ، وبضياع أعمالهم لو مارسوا شعائرهم الدينيـــة بحـــرية كما أفادت التقارير ، بأن الأقليـــة التركية المسلمة فى بلغاريا تتعرض لضـــغوط اقتصادية ، وأشارت الدوائر الدبلوماسية بأن الأتراك لا يؤدون الخدمة العسكرية ، وانما يرغمون بدلا من ذلك ، على العمل فى الفرق المدنية العاملة فى حقول البناء ، كما أن قادة الحزب الشيوعى البلغارى تستبعد الأتراك ، كما لا يسمح لأى تركى بأن يشغل منصـــبا حكوميا مهما ، وما عدا بعض الاستثناءات التى لا تذكر •

وبات من المؤكد ، أنه لا يسمح للصحفيين الأجانب بدخول المناطق الناطقة باللغة التركية ، وقد تم وضع المتاريس والحواجز على الطرقات ، كما أنه لا يسمح باصدار تصاريح السفر الضرورية ، هذا بالاضافة الى أن الكليات التى تفد للقيام بجولة سياحية لتلك المناطق توضع على الرف ! ويكرر المسئولون بشكل دائم على أن الدستور البلغارى يضمن للمواطنين حق تغيير أسمائهم ، ولكنهم لم يشرحوا السبب الذى يدعوا ما يزيد على المليون شخص لتغيير أسمائهم فجأة !!

وتوقع دبلوماسى غربى بأنه بعد عشر سنوات لن يسمح باستخدام اللغة التركية ، وهو يعتقد أنه بحلول ذلك الوقت ، ستكون المعـالم الثقافية للأقلية التركية قد ذابت ، كما أن المعالم والتقاليد التركيـة والطقوس الاسلامية ستكون قد اختفت •

صحيفة « الصندادى تايمـز »

أما صحيفة « الصنداى تايمز » ، فقد علقت بقولها :

فى حادث دموى وقع مؤخرا ، لم يكشف عنه النقاب إلا فى الأيام الأخيرة ، هاجمت الدبابات مدينة « يوبلونوفو » فى الطرف الشرقى من جبال البلقان ، ثم قام رجال الميليشيا التابعين للحكومة باقتحام المدينة ، وكان سكان المدينة قد اجتمعوا قبل الهجمة الحكومية وقرروا رفض عملية استبدال الأسماء ، التى تصعدت بهدف تقليل عدد وحجم الأقلية التركية قبل إجراء احصاء للسكان فى وقت لاحق من العام الجارى •

وطبقا لما ذكره شاهد عيان موثوق ، فان ما يقرب من ثلاثين تركيا كانوا مسلحين بالبنادق الأتوماتيكية ، وبعد تبادل اطلاق النار ، أحضر رجال الجيش الرجافات والمتفجرات ودمرت بيوت الذين رفضـوا التعاون مع السلطات حيث انهارت على رؤوس ساكنيها •

وحادث « يوبلونوفو » يعد واحدا من الكثير من التقارير التى وردت بخصوص حوادث عنف من قبل الدبلوماسيين الغربيين الذين يعتقدون بأن معدل الوفيات قد وصل الى خمسمائة •

« جــريدة النــور » :

طالبت صحيفة « النور » رجال الدين وعلماء الأزهر الشريف بالتدخل لوقف مذبحة المسلمين الأتراك ، وعلقت الصحيفة بقولها :

كيف ونحن فى القرن العشرين نسمح لاخوة لنا كان لهم فتوحات إسلامية كبرى ، ولم يذكر التاريخ أنهم أساءوا لأى ديانة أخرى ، أو تعرضوا لغير المسلمين بأذى ••• وكان هذا منذ قرون عديدة مضت ، الآن ونحن فى عصر التمدين والرقى نسمع عن التعذيب والقتل من أجل ردة اناس آمنوا بربهم وتمسكوا بعقيدتهم السمحاء •

صحيفة « منبر الاســلام » :

هاجمت صحيفة « منبر الاسلام » قوى الطغيان التى تطالب المسلمين الأتراك بترك ديانتهم والعودة عن الدين الحنيف والدخول فى الشرك بالقوة ، وطالبت الصحيفة أعضاء الهيئات الاسلامية المهتمين بالأمر باتخاذ موقف محدد من بلغرة الأسماء واصدار بيان رسمى بــذلك •

« صحيفــة تايم » :

فى تقرير من مراسل « جون مودى » فى « صوفيا » أشارت مجلة « تايم » الأمريكية : بدأ العساكر البلغاريون فى الفترة الأخيرة بمهاجمة بيوت القرويين الأتراك فى بلغاريا فى الساعة الثالثة صباحا •

وطبقا للتقارير التى تسربت من هناك فان المهاجمين يرغمون رب كل أسرة على توقيع نموذج ، بهدف تغيير اسمه وأسماء أفراد عائلته ، ويضم النموذج سطرا لكل زوج وزوجة ليكتبا عليه اسميهما الاسلامى القديم ، وعلى سطر آخر ، يجب عليهما كتابة الأسماء البلغارية الجديدة ، وأسفل النموذج وضعت خانات لكتابة الأسماء الجديدة لما يزيد على خمسة أطفال •

وذكر بأن الرجال الذين يرفضون توقيع النمــاذج يتعرضــون

لتشويه فى وجوههم ، وبعضهم يرغمون على مشاهدة رجال الشرطة وهم يتقدمون نحو زوجاتهم وبناتهم البالغات ، وفى بعض الأحيان ترغم النساء على تجريد ملابسهن كاملة وذكر بأنه قد تم اغتصاب بعضهن أمام عائلاتهن • ولو لم تجد هذه الممارسات فاعلية ، يحمل الجنــود المسدسات على حد زعم المسافرين الذين حضروا من هناك ، ويوجهونها الى رؤوس أسراهم ، ويكررون مطلبهم « وقع النموذج ! » وقد اضطر معظم القرويين للاذعان للأمر فى النهاية •

الموقف التركى تجاه الأقليــة :

تصدت تركيا شعبا وحكومة لأوضاع الأقلية الاسلامية ، التى تتعرض لانتهاك لحقوقه الانسانية ، وذلك بعدما نشبت أعمال عنف دموية وقتل فيها مئات من المسلمين الأتراك لمقاومتهم حملة « البلغرة » بالقوة ، بعدما استهدفت السلطات البلغارية ارغام الأقلية الاسلامية على تغيير أسمائها لتعكس هوية بلغاريا القومية كدولة سلافية •

ونتج عنها مقتل ثمانمائة مسلم على أيدى قوات الأمن البلغارية لمعارضتهم حملة لاذابة هويتهم الاسلامية وقوميتهم التركية فى القومية السلافية ، مما أسفر عنه قيام حملة دبلوماسية نشــطة واتصالات لاحتواء الموقف بين الحكومتين التركية والبلغارية بهذا الصدد ، إلا أن ذلك فشل فى تخفيف التوتر بين البلدين لتعنت الحكومة البلغارية وعدم استعدادها للتفاهم حول أوضاع الأقلية الاسلامية •

وقد سارعت الحكومة التركية إزاء هذا الوضــع الى اجــراء اتصالات مع السلطات البلغارية على أعلى مستوى ، فتبادل الرئيس « كنعان افرين » الرسائل مع الرئيس البلغارى « تيودور جيفكوف » : ناشده فيها المساعدة على ضمان الحرية والحقوق الأساسية للطائفة التركية البلغارية ، كما حدث « ايفرين » الحكومة البلغارية على إعادة النظر فى مسألة تغيير الأسماء واغلاق المدارس التركية وحظر استخدام اللغة التركية فى الأماكن العامة ، وداخل المناطــق التى يكثر فيها

الأتراك • وقد وعد « جيفكوف » فى رده على « ايفرين » ببحث تلك المسائل بروح ايجابية نظرا العلاقات الطيبة وحسن الجوار الذى يجمع البلدين •

ثم استدعى السفير التركى فى صوفيا للاطلاع على المعلومات المتوفرة لديه بعد تدهور أوضاع الأقلية الاسلامية ، نتيجة للممارسات اللاانسانية للحكومة البلغارية ، ويبدو أن السفير أيد صحة المعلومات المتوفرة لدى المصادر التركية ، فعقد مجلس الأمن القومى برئاسة الرئيس « ايفرين » ، اجتماعا طارئا ، لبذل جهود حثيثة من أجل حل لأوضاع المسلمين مع بلغاريا •

وتقدمت تركيا باقتراح لدى الحكومة البلغارية بهدف عقد اجتماعات على مستوى وزارى لمناقشة مجمل القضايا القائمة بين الجانبين ، ومن ضمنها توقيع اتفاق موسع بخصوص الهجرة ، ومن شأنه تخفيف حجم المعاناة التى تتعرض لها الأقلية الاسلامية التركية(٢٤) •

وقرر توجيه مذكرة عاجلة الى الحكومة البلغارية تضمنت رغبة تركيا فى حل المشكلة بالطرق الودية ، فطلبت اجراء حوار مباشر بين وزيرى خارجية البلدين ، مع التأكيد على استعداد تركيا لاستقبال فوج جديد من المهاجرين • وأن تشمل اتفاقية الهجرة الجديدة أكبر عدد ممكن من الراغبين فى الهجرة من بلغاريا الى تركيا • وجدير بالذكر أن عدد المهاجرين من الأقلية الاسلامية التركية فى بلغاريا بلغ أكثر من ٥٠٠ ألف نسمة من خلال اتفاقيات مماثلة خلال الفترة من عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٧٨ •

وتجدر الاشارة الى أن حقوق ووضع الأقلية الاسلامية فى بلغاريا قد استمدت من الاتفاقيات الدولية بموجب شروط البروتوكول الذى ضم لمعاهدة الصداقة التى وقعت بين تركيا وبلغاريا فى الثامن عشر من

---

(٢٤) الاتحاد الصادرة فى ٧ مارس ١٩٨٥ •

أكتوبر لعام ١٩٢٥ ، تعهدت بلغاريا بتطبيق جميع البنود التى وردت فى معاهدة « نيدلى » عام ١٩١٩ بخصوص الأقليات ، من أجل حماية الأقلية المسلمة فى بلغاريا • كما أن بلغاريا ملتزمة بنفس القدر باحترام حقوق الأقلية بموجب المادة رقم « ٢ » من معاهدة سلام باريس المبرمة فى العاشر من فبراير لعام ١٩٤٧ ومرسوم هلسنكى الأخير لعام ١٩٧٥ •

وبالاضافة الى ذلك فان المادتين ٤٥ و ٤٧ من الدستور البلغارى تقران للمواطنين ممن هم ليسوا من أصل بلغارى حق تعلم لغة موطنهم الأم • وبموجب المادة ٥٣ من الدستور ينبغى السماح للمواطنين بممارسة طقوسهم وشعائرهم الدينية ، وتؤكد مجمل الظروف والأوضاع والأحوال التى تمر بها الأقلية الاسلامية فى بلغاريا ، بأن هذه الحقوق قائمة فقط على الأوراق وليس على الطبيعة أو بالفعل •

كما أشارت المذكرة الى أن تركيا لا ترغب فى تصعيد التوتر ولكن إذا أصرت بلغاريا على التمسك بموقفها ، فستكون هى الخاسرة ، موضحة بهذا الصدد بأن الردود البلغارية من خلال الاتصالات التى جرت بين المسؤولين فى البلدين والمتضمنة أن بعض حوادث تغير الأسماء الاسلامية مبالغ فيها وان المواطنين البلغار يقدمون على عملية تغيير الأسماء بمحض إرادتهم ، أمر أبعد من أن يصدق •

ويبدو أن الحكومة التركية لم تقتنع بمضمون المذكرة البلغارية الجوابية التى لم يكشف النقاب عن فحواها ، فاردفت ذلك بمذكرة عاجلة أخرى تستوضح فيها بعض النقاط الغامضة التى وردت فى المذكرة البلغارية ، وان كانت المصادر المطلعة تعتقد بأن المذكرة تحتوى على عبارات عائمة يقصد منها التهرب ومحاولة « تمييع » الموقف •

وحينما تستفسر السلطات البلغارية عن حقيقة ما يجرى هناك فتبادر بابراز هذه الورقة المطبوعة سلفا ، وفيها يطلب المواطن عن طواعية تغيير اسمه واستبداله باسم بلغارى !! الأمر الذى أثار سخرية

الكثيرين حتى ان الصحافة البلغارية نفسها تمتنع عن نشر مثل هذه المبررات خوفا من تهكم القراء وفقدان الثقة بجديتها •

وأصدر زعماء الأحزاب السياسية الثلاثة فى تركيا وهم « برتيف ازغلو » الناطق بلسان حزب الأم الحاكم ، و « يلمازها ستورك » سكرتير عام حزب الشعب المعارض و « أولغوزد طيزلو » أمين عام الحزب الوطنى الديمقراطى فى ٢١ يناير عام ١٩٨٥ ، بيانا مشتركا نشرته صحيفة « تركمان » اليومية التى تصدر فى « استانبول » ، جاء فيه أن تركيا تشعر بألم عميق إزاء الأعمال المناهضة للأقلية الاسلامية التركية فى بلغاريا •

وردت السلطات البلغارية على ذلك بارسال احتجاج شديد اللهجة ضد ما سموه « الحملة المناهضة لبلغاريا » ، التى تشنها الصحافة التركية ، ثم أغلقت « صوفيا » حدودها المشتركة مع تركيا وفرضت حظرا على دخول السياح الأتراك اليها ، الا أن القرار لم يشمل العمال الأتراك الذين يعملون فى دول أوربا الغربية وينتقلون من والى تركيا عن طريق بلغاريا ، فضلا عن أن صوفيا لم ترغب فى اعاقة سير الشاحنات المتجهة من أوربا الى الشرق الأوسط عن طريق تركيا وبلغاريا ، لعلمها بانه لو تم اغلاق الحدود بصورة كاملة فستتضرر تجارتها مع الشرق الأوسط •

وكانت الحكومة البلغارية تأمل بهذه الطريقة أن تنجح فى منع الأقلية الاسلامية فى بلغاريا من الاتصال بالطريق الوحيد لهم بالعالم الاسلامى عن طريق تركيا ، ومنع تسرب المعلومات التى تثير المسلمين خارج بلغاريا •

وبذلك يتوقف تدفق المزيد من المعلومات عن الاضطرابات هناك ، ولكن تدهور أحوال المسلمين لفت الأنظار فجأة ، حينما اكتشف أن أعداد المهاجرين « غير الشرعيين » القادمين الى تركيا قد ارتفع بشدة ، وانكشفت الأوضاع بعدما طردت السلطات البلغارية ثلاثة صحفين

كانوا يحاولون التحقيق من الحملة المناهضة للاقلية الاسلامية[٢٥] .

ويبدو من ذلك أن بلغاريا فقدت التوازن بسبب الضجة التى ثارت فى تركيا ، وفى الاعلام الغربى ، فى حين بدأت تركيا تعالج الموقف ، بانتهاج سبيل الدبلوماسية الهادئة ، ولكنها شددت موقفها فيما بعد عندما لم تبدى تلك السياسة الى نتائج تذكر ، فقد اتهم وزير خارجيتها بالنيابة « مسعود يلماظ » ، بلغاريا بالعنصرية ، وقال أن « أنقرة » ستواصل الدفاع عن الأقلية التركية فى بلغاريا وقال :

علينا أن نفعل شيئا فهناك الكثير منهم لكننى لا أريد العنف بالطبع .

وزاد من حساسية الوضع بين البلغار والأتراك الصمت الرسمى بشأن القضية التى لا تقطعه سوى اشارات مقتضبة فى تصريحات المسئولين لا تقدم سوى مجرد أجزاء متاثرة من الصورة الاجمالية .

وطالبت تركيا بوضع نهاية لكافة الضغوط المفروضة على الأقلية الاسلامية ، وبما أن الحكومة البلغارية لم ترد على المقترحات التركية ، فان المشكلة جاوزت نطاق العلاقات التركية — البلغارية لتصبح قضية تستحق اهتمام العالم الاسلامى ككل ، وشرعت الحكومة التركية فى اجراء اتصالات مع بعض الدول الاسلامية التنسيق معها بشأن أوضاع الأقلية الاسلامية فى بلغاريا الذين يتعرضون لضغوط وممارسات للحد من حرياتهم الدينية من قبل الحكومة البلغارية ، وتأتى هذه الاتصالات فى نطاق رغبة تركيا فى الحصول على دعم اسلامى لمواجهة انتهاك حقوق الأقلية الاسلامية .

التبريرات البلغارية :

وضحت الحكومة البلغارية موقفها الرسمى عن حقيقة أوضاع الأقلية الاسلامية فيها ردا على الحملة التركية التى اتهمت بلغاريا

---

(٢٥) الدستور الصادرة فى ١٩ ابريل ١٩٨٥ .

بقمعهم واجبارهم على تغير هويتهم وأسمائهم الاسلامية ، فى الرسالة التى وجهتها الى جريدة السفير بقولها :

بدأت الحملة الهستيرية التركية ، منذ مطلع هذا العام ١٩٨٥ ، وهى تهدف الى التدخل فى الشئون الداخلية لبلغاريا ومواطنيها ، وتتناقض مع المبادىء الدولية والوثائق التى تنظم العلاقات بين البلدين لا سيما اعلان حسن الجوار الموقع عام ١٩٧٥ •

وانه منذ اعلان الأحكام العرفية فى تركيا عام ١٩٨٠ ، فأنها سمحت بتظاهرات معادية لبلغاريا فى مدنها الكبيرة ، ورفع المتظاهرون لافتات فاضحة ، ورددوا شعارات مهينة حتى لرئيس الدولة البلغارية ، وان تركيا اقترحت اجراء محادثات حول وضع الأقلية الاسلامية والتوصل الى اتفاق لترحيلهم •

وأشارت الحكومة البلغارية أن الحملة التركية تهدف الى ممارسة ضغوط على بلغاريا بهدف خدمة المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة ، وحلف شمال الأطلسى ، باعتبار أن بلغاريا حليف وثيق للاتحاد السوفيتى وعامل بناء فى البلقان ، ويهدف الى زعزعة استقرار الموقف فى المنطقة •

والهدف الثانى للحملة هو تحويل الأنظار التركية والعالمية عن المشاكل الوطنية الخطيرة ، والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتناقضات التى يواجهها النظام الحالى فى تركيا ، وعن سياسة المذابح الرسمية المنفذة ضد اثنا عشرة مليون كردى مسلم ، وكذلك ضد العرب وغيرهم من المقيمين فى الأراضى التركية وعن الذكرى السبعين لمذبحة الأرمن •

وبعدما أشارت الرسالة الى تأكيدات تركيا بأن المسلمين البلغار تحولوا بالقوة الى المسيحية ، قالت انها ليست المرة الأولى التى تدعى تركيا الحق بالتحدث باسم الاسلام ، وأعادت الى الأذهان أن الدول العربية وغيرها من الدول عانت من القمع التركى السياسى والاقتصادى والثقافى التام ، والمذابح الوحشية فى القرنين الثامن والتاسع عشر فى

سوريا والعراق ولبنان ، وقالت أن تركيا ما زالت تحتل أراضى عربية شرعية وتخدم المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة واسرائيل والصهيونية العالمية •

كما أعادت الرسالة الى الأذهان دور تركيا خلال أزمة السويس ١٩٥٦ وأزمة ١٩٥٧ فى سوريا ، والثورة العراقية فى عام ١٩٥٨ ، والاعتداءات ضد لبنان والاردن فى عام ١٩٥٨ ، والاعتداء الامريكى ضد لبنان فى عام ١٩٨٣ ، وقالت أن لقاءات رئيس الوزراء التركى مع ممثلى الوفد الصهيونى الاسرائيلى فى أثناء زيارته الاخيرة الى الولايات المتحدة ، تمثل بشكل واضح استمرار لهذه السياسة • وأشارت الى الاحتلال التركى للجزء الشمالى من قبرص منذ أكثر من عشر سنوات •

ويتضح من الذكرة البلغارية عدة نقاط أهمها ، يجب على الحكومة التركية الا تطالب بتحسين أوضاع الأقلية التركية فى بلغاريا ، أن تحسن أوضاع الأقلية الكردية والعربية ، وأن تعطيهما على الأقل الحكم الذاتى ، لأن الأقليتين من قوميتين مختلفين ولكنهما مسلمتين على المذهب السنى أى نفس المذهب التركى •

ومع ذلك فانها تقوم بقمعهما بشدة وبعنف فى الوقت الذى تطالب من بلغاريا عدم منع التعليم والتحدث باللغة التركية لأقليتها هناك ونفس هذا الحق على الاكراد والعرب ، ولذا يجب عليها ألا تمنع التحدث أو التعليم أو الثقافية باللغة الكردية والعربية •

ويجب على تركيا اعطاء الحقوق الانسانية والتى كفلها الاسلام قبل اعلان حقوق الانسان والمواثيق الدولية الأخرى ، وأن لا تتحدث عن أقليتها فى بلغاريا ، وتنسى أو تتناسى أفعالها وانتهاكها لحقوق الانسان الكردى والعربى فى أراضيها •

وهذا ما يؤسف لها وخاصة مجيئها على لسان الحكومة البلغارية ، وكأنها تذكر العرب بما فعلته تركيا وتفعله حاليا ، وخاصة مواقفها العلمانية ضد الاسلام ، وتعاونها مع اسرائيل وأمريكا ، والسماح

باستخدام أراضيها وقواعدها لضرب الأمة العربية ، واقامتها علاقات دبلوماسية مع الكيان الصهيونى وتواطئها مع القـــوى الاستعمارية والصيلبية الغربية فى ضرب الاسلام والمسلمين وخاصة جيرانها العرب .

ولا نطالب بعودة أو استقلال الاقاليم العربية والكردية ، وانما نطالب اعطاء الحقوق الانسانية للانسان المسلم العربى والكردى ، وأن تظهر الحكومة العلمانية التركية التجاوب وحسن النية أمام هذه النقاط التى أثارتها دولة شيوعية بلغارية .

وهذا لا يعنى أننا مع بلغاريا ، بل اننا ضد ممارسة العنـــف والاضطهاد وانتهاك حقوق الانسان المسلم فى كل مكان من العالم ، لأن المسلم أخو المسلم فالاجدر بالاتراك أن يهتموا بحقوق الأقليـــة الكردية والعربية قبل أن يشير اليها أعداء الاسلام .

وتنكر الحكومة البلغارية تماما بأن الأقلية المسلمة فى بلغاريا قد أجبرت على تغير أسمائها الاسلامية ، وتقول أن هذه « التهمة » مفتعلة من قبل أولئك الذين يريدون الاساءة الى العلاقات التركية — البلغارية ، وتدعى بأن عملية تغير الأسماء ، قد حدثت طوعا من قبل أبناء الأقلية المسلمة خدمة الوحدة الوطنية .

فقد قال « ليبومير شويوف » الناطق باسم وزارة الخارجيـــة البلغارية ، أن التقارير التى وردت حول ارغام أبناء الأقلية التركية على تغيير أسمائهم ، ما هى الا « محض هراء » وقال أيضا :(٢٦)

أن القوانين الديمقراطية فى بلغاريا تعامل المواطنين جميعـــا بالمساواة وتضمن لكل واحد منهم حق اختيـــار اسم لنفسه ، ويتغير هذا الاسم متى ما رغب فى ذلك أما عن منع الصحافيين والدبلوماسيين من الوصول الى المناطق المحاصرة ، فقد قال « شويوف » : « أن الظروف المناخية تجعل هذا الأمر طبيعيا فى موسم الشتاء » .

---

(٢٦) الشرق الاوسط الصادرة فى ٢٢ يونيو ١٩٨٥ .

انه ادعاء ساذج حين نفترض أن أكثر من مليون مسلم قد هبوا دفعة واحدة وأعلنوا تغيير أسمائهم التقليدية الى أسماء بلغارية خدمة للوحدة الوطنية والامة السلافية ، وكذلك الظروف المناخية التى تمنع الصحفيين الذين يتوجهون الى قلب المعارك والظروف الغير طبيعية . ويقـول مسـئول الحـزب الشـيوعى أن ذوى الاصـول التركية الذين غيروا أسماءهم فى الأشهر الأخيرة ، فعلوا ذلك طواعية ، ويحاول المسئولون فيما يراه الدبلوماسيون تفسيرا مشكوكا فى صحته من الناحية التاريخية بأن أبناء الأقلية التركية فى البلاد بغض النظر عن لغتهم التركية وازيائهم وعاداتهم الاسلامية هم بلغار تطبعوا بالطابع التركى فى العهد العثمانى ويعودون الآن الى الحظيرة البلغارية !!

ونفى بيان رسمى بلغارى وزع بالكويت بأن تكون بلغاريا قد مارست ضغوطا على المسلمين فيها لارغامهم عن التخلى عن أسمائهم الاسلامية .

وقال بيان لوزارة الخارجية البلغارية وزعته السفارة البلغارية فى الكويت أن التشريع البلغارى ... يخول لكل مواطن بلغارى اختيـار اسمه بنفسه وتبديله اذا رغب فى ذلك ، ولا يمكن تجريد أى مواطن بلغارى من هذا الحق .

وأضاف البيان أنه فيما يخص مسلمى بلادنا فانه يجرى تبديل الأسماء كل حسب رغبته واختياره ، وذكر أن المسلمين فى بلغاريا يمثلون جزءا لا يتجزأ من الشعب البلغارى ودولته ، وجميع المحاولات الخاصة بانتساب المسلمين البلغار الى مواطنى تركيا ... خالية من أى قاعدة قانونية ... وان حالة هذا الجزء من الشعب البلغارى لا يمكن أن تكون موضوعا للمناقشة مع أية حكومة أخرى » .

وكانت مصادر دبلوماسية تركية فى أبو ظبى قد ذكرت أن المسلمين

---

(٢٧) الاتحاد الصادرة فى ١ ابريل ١٩٨٥ .

الذين يرفضون الامتثال لقرار الحكومة البلغارية بتغير دينهم وأسمائهم يحرمون من كل المزايا وفى مقدمتها فرص التعليم .

واستطاعت بلغارية تجنيد بعض رجال الدين المسلمين ولو أننا نشك كذلك فى اسلامهم وفى كونهم من الأقلية التركية عندما نفى سبعة رجال الدين البلغاريين المسلمين اتهامات « أنقرة » التى قالت أن السلطات البلغارية ترغم بالقوة أبناء الأقلية الاسلامية على تغيير أسمائهم أو أنها تمنعهم من تأدية شعائرهم الدينية .

وفى رسالة سلمت الى وكالة الأنباء البلغارية كتب رجال الدين السبعة الذين يحملون جميعهم أسماء بلغارية « توبشيف » و« كوردوف » و« اميروف » و« كوبيتوف » و« جورجيف » و« هاجيف » و « ايلييف » انه لم يكن بوسعهم الا الرد فورا على هذه الاتهامات والشائعات الباطلة المتعلقة بالمسلمين البلغاريين وبالوطن .

وأضاف رجال الدين السبعة أن المسلمين البلغاريين يمارسون شعائرهم الدينية وان جميع المساجد فى الدولة مفتوحة .

ولابد أن الحكومة البلغارية استخدمتهم لأغراض دعائية ولايجاد مبررات لتدبر عمليات الابادة والبلغرة .

الاستنتاج والخلاصة :

بعد تلك الدراسة سوف نطرح بعض الأسئلة ونحاول الاجابة عليها وهى :

أولا — ما هو أثر الحضارة العربية — الاسلامية فى المجتمع البلغارى :

نجد أن الحضارة العربية — الاسلامية قد أثرت فى المجتمع البلغارى ولو لم يتحول هذا المجتمع الى الاسلام ، ومن خلال زياراتنا العديد واقامتنا فيما بين الجنس السلافى البلغارى لفترات متتالية ، وجدنا أنهم أخذوا الكثير من الحضارة العربية — الاسلامية خلال فترة الحكم العثمانى الذى استمر حوالى خمسة قرون ، ومنها كلمات عربية وتركية

كثيرة ، كما تأثروا بالعادات والتقاليد والملابس والفنون وخاصة الأغانى وأدوات الموسيقى والرقصات الشعبية وغيرها من شئون الحياة اليومية ، والدور البارز للرجل فى حياة الأسرة ، وحتى من الناحية الدينية بمذهبهم المسيحى الارثوذكسى ، ولكنهم دائما يحاولون الرفض أو الاعتراف بأن ذلك من الحضارة العربية — الاسلامية وانما يعتبرون من الثقافة القومية السلافية البلغارية .

ثانيا — هل يوجد مسلمون من الجنس البلغارى السلافى ؟

رغم أن بعض البلغار كان قد اعتنق الاسلام منذ فترة طويلة بعد اختلاطهم بالمسلمين سواء عن طريق التجارة أو بعض الدعاة قبل مجىء العثمانيين ، فهل هذا يعنى وجود مسلمين من الجنس البلغارى السلافى حاليا ؟

يعتبر البلغار من بين أوائل القوى الاوربية التى هاجمت الجيش الاسلامى فى محاولاتها الأولى الدخول الى القارة الاوربية أثناء حملة مسلم بن عبد الملك عام ٧١٧ ، الذى استطاع أن يحاصر القسطنطينية ، وفى تلك الأثناء استمروا البلغار فى هجماتهم ضد الجيش العربى الاسلامى بشكل منتظم ، وبذلك يكونوا قد أخذوا موقفهم من الاسلام منذ البداية .

وفى الوقت نفسه اعتبروا أنفسهم قبل الروس حماة الكنيسة الشرقية الارثوذكسية خاصة بعد سقوطها فى أيدى العثمانيين ، ولهذا كان من الصعب ادخالهم الى الاسلام لأنهم كانوا قد فضلوا المسيحية على الاسلام .

وهذا أشبه بما حدث لحملة عبد الرحمن الغافقى ، ومعركة بلاط الشهداء فى بواتية عام ٧٤٢ فى الغرب ، بعد خمسة وثلاثون عاما من حملة مسلم بن عبد الملك فى الشرق ، وهى تعتبر من محاولات الاختراق لأوربا من الجناحين الشرقى والغربى ، ولو نجحوا المسلمون فى الغرب ، لكان أيضا من الصعب ادخال الفرنجة الى الاسلام ، لأنهم كانوا قد

اعتنقوا المسيحية قبل مجىء المسلمين ، ولكن اذا ما دخل المسلمون قبل اعتناقهم المسيحية اكان الأمر تغير لشعوب الفال والجرمان الوثنية .

وبتطبيق هذا على حملة مسلم بن عبد الملك اذا ما نجحت ، فكان من السهل ليس على البلغار ، وانما لبقية شعوب البلقان الأخرى التقبل ، لأنهم كانوا وثنيون ، مما يسهل دخولهم الاسلام حتى البلغار أنفسهم كانوا فى بداية عهدهم بالمسيحية ، وأما قد مضى أكثر من ستة قرون على دخولهم المسيحية ، فانه كان من الصعب أن لم يكن مستحيل ادخالهم الى الاســلام .

ليس الأن الاسلام دين القناعة والعقل والفطرة واليسر ، ولكن لأسباب قومية وعرقية ، والأهم من ذلك أن العثمانيين لم يكونوا دعاة للاسلام أكثر من كونهم فاتحين بحد السيف ، وعدم اهتمام العثمانيين بنشر الاسلام باللغة البلغارية أو ارسال الدعاة ونشر اللغة العربية لغة القرآن التى تساعد على فهم الاسلام أكثر ، كان له دورا فى عــدم اعتناق البلغار الاســلام .

ولم يحاول العثمانيون التقرب أو النزول الى تلك الشعوب أو تحبيب وتقريب الاسلام عن طريق المعاملة الحسنة ، وانما كان على العكس من ذلك ، استخدموا العنف أكثر من التسامح ، ونفروهم من الاسلام ، مما أدى الى ردة الفعل ليس ضد العثمانيين وانما ضــد الاسلام أيضا ، مما احجمهم من الدخول فيه ، وحتى بعض البلغــار الذين دخلوا الاسلام قبل مجىء العثمانيين فانهم ارتدوا الى المسيحية ، عندما شاهدوا التصرفات العثمانية ، فى الوقت الذى كانت تصرفاتهم طبيعية لدى الشعوب العربية المسلمة . الذين اعتبروا هذا طباعهم لأنتمــائهم للقومية التركية المعروفة بهذا الطبــاع ، واعتبــروهم حماة الاسلام لعدة قرون ، ولكن العرب لم يحاولوا تحييد الأتراك أو تركهم لهذا الطباع أو أن يوضحوا لهم أنه يجب أن يميلوا أكثر الى العلم الدينى والدنيوى وأن يشجعوا العــلم والعلماء ، وأن لا يتعالوا على الشعوب المحكومة ، بل يجب أن يتسموا كما كان

العرب الأوائل بعدة صفات مثل التسامح والتواضع والحلم مما دفع شعوب وسط آسيا المساهمة فى الحضارة العربية — الاسلامية بطريقة فعالة .

فقد أوفدوا هذه الحضارة بفيض هائل من العلم والعلماء والتقدم الفكرى والتطور الادارى للدولة الاسلامية ولا ننسى أنهم أيضا كانوا من الجنس التركى وتأثرا بصفات العرب الذين كانوا لهم القدوة الأولى .

ونعتقد تلك الأسباب التى ذكرناها أثرت سلبا وحالت دون دخول الجنس البلغارى الى الاسلام ، خاصة بعد انفصالها عن الدولة العثمانية ، مارست الحكومة البلغارية الجديدة ، ضغوط كبيرة لتخليص البلاد من آثار الحكم العثمانى ، مما جعل البلغار المسلمون يتخلون عن اسلامهم برغم أنهم كانوا أقلية اعتنقوها أثناء الحكم العثمانى ، وتحولوا الى المسيحية ، نتيجة لهذا الضغط ، أو أنهم تحولوا واندمجوا الى العنصر التركى لتقارب فى اللهجة والشكل والجنس وأصبحوا من الأقلية الاسلامية .

ثم ازداد هذا الاضطهاد فى عهد الشيوعية البلغارية وانتقامها من المسلمين والدعوة الى الوطنية وسيادة الجنس السلافى البلغارى ، واذابة الأقلية الاسلامية ذات الجنس التركى فى المجتمع السلافى بالقوة .

ثالثا — لماذا اتبعوا سياسة البلغرة ؟

اتبعت الحكومة سياسة البلغرة وفرض الأسماء البلغارية ، وأن أى مواطن لا يحمل اسما سلافيا يصبح « نكرة » بالمعنى القانونى الكامل للكلمة ، فلا يحصل على أية وظيفة ، ولا تصدر له وثيقة أو شهادة أو ورقة رسمية ، وحتى الشهادات العلمية تحجب عن الذين لم يغيروا اسمهم الأصلى أو الاسلامى .

وبالتأمل فى الأسباب التى تكمن وراء هذه التصرفات التى تقوم

بها السلطات البلغارية ضد الأقلية الاسلامية ، فان الانسان يمكن أن يهتدى الى بعض الأبعاد التى يمكن الاشارة اليها فيما يلى :

(أ) أن ارغام الأقلية الاسلامية على تغيير أسمائها من جهة ، ثم التخلى عن انتمائها الاسلامى ، هو جزء من حملة شاملة ومدروسة تهدف الى تذويب هذه الأقلية داخل العنصر السلافى البلغارى ، لأن هذه الدولة واحدة من الدول الاوربية الشرقية التى لا تعترف بوجود أقليات ، وتعود فكرة ضرورة تبنى الأقلية الاسلامية اسماء بلغارية لصالح أمة واحدة الى بداية السبعينات •

(ب) وهناك عدة آراء بلغارية لهذه الحملة وفيما يلى بعضها :

١ ــ يرى البعض أن هذه الحملة تجرى بمناسبة الذكرى المئوية لانتهاء حكم الدولة العثمانية لبلغاريا •

٢ ــ وترى جهات أخرى انها تهيئة للاحصاء السكانى العام الذى سيجرى فى بلغاريا بتاريخ ٤ ديسمبر ١٩٨٥ •

٣ ــ أما آخرون فيرون انها بمناسبة انعقاد الدورة العامة للحزب الشيوعى البلغارى فى عام ١٩٨٦ •

٤ ــ وهناك رأى آخر هو أن الحملة هذه جاءت عقب الانفجارات التى حدثت فى « بلوفوف » مركز المقاطعة التى يعيش فيها المسلمون فى صيف عام ١٩٨٤ •

أبعاد وأسباب هذه التصرفات أعمق بكثير من هذه الآراء ، فالحكومة تواجه نفس المشكلة التى واجهها الاتحاد السوفيتى ، بسبب معدلات النمو السريعة بين أفراد الأقلية الاسلامية • ففى بلغاريا تصل نسبة النمو الى حد الثلاثة أو حتى أربعة أضعاف تلك النسبة بين السلاف البلغار •

ولهذا توقفت الحكومة البلغارية نشر الاحصائيات السكانية منذ احصاء عام ١٩٦٥ ، بالرغم من أن الاحصاءات المتعاقبة والتى أعلنت

رسميا تظهر تناقصا كبيرا فى حجم السكان المسلمين ، ففى احصاء عام ١٩٤٦ ، كان عدد السكان المسلمين حسب البيان الرسمى ربع مليون نسمة . وفى الاحصاء الثانى الذى جرى عام ١٩٥٦ تناقص عددهم الى (١٨٧٫٧٨٩) نسمة ، وحين وصل الأمر الى احصـــاء ١٩٦٥ لم يظهره سوى رقم رمزى للمسلمين وهو (٧٫٨٠٠) نسمة فقط ، رغم أن الواقع يثبت عكس ذلك تماما ، اذ لو تم احصاء السكان للاقلية الاسلامية فى عام ١٩٨٥ بشكل أمين لوصل عددهم الى أكثر من مليون ونصف أو المليونين نسمة والأظهر الاحصاء القادم اختلالا فى التوازن السكانى لصالح الأقلية الاسلامية .

ولهـذا فان سـبب اضطهاد الأقلية الاسلامية ، والتعجيـل « بسياسة البلغرة » يرجع الى ارتفاع نسبة المواليد ، فعلى الرغم من سياسة تشجيع زيادة عدد السكان ، فان المخططين البلغار يخشون من التركيبة السكانية فى ظل نسبة الزيادة فى المواليد ، والبالغة ١٢٫٩ للألف ، بأن تصبح بلغاريا مهددة بزيادة السكان المسلمين ، لأن نسبة المواليد بين الأقلية الاسلامية تقريبا ٢٠ للألف ، اذ أن العائلات الاسلامية تنجب من الأبناء أربعة أمثال ما تنجبه العائلات البلغارية .

وبذلك يتسبب نمو السكان للاقلية الاسلامية فى مشاكل للنظام البلغارى فى المستقبل ، وان سياسة فرض الأسماء البلغارية على الأقلية الاسلامية يمكن أن ينظر اليه كعامل بيطا، مفعول هذه الزيادة فى السكان عن طريق الاذابة ولتخفيض أرقام المسلمين التى تظهر فى الاحصاءات لأقل قدر ممكن ، أما بالنسبة للأقلية الاســلامية فسيستمر المشكلة ، إلا أن سياسة المراقبة المتصلة لانتهاكات حقوق الانسان وأوضاعها من قبل تركيا يمكن أن تحد من تطور المشكلة .

وهناك سبب آخر للمعاملة السيئة التى تلقاها الأقلية الاسلامية بأنها عميقة الجذور ، وترجع الى فترة الحكم العثمانى لبلغاريا ، التى امتدا خمسمائة عام ، وهى فترة تصفها الحكومة البلغارية بمعايير الحقد ، اذ تقول عنها انها « أفجع فترة » فى تاريخ بلغاريا .

ويمكننا أن ننظر الى مجريات الأحداث حول بلغاريا فنجد أن الحزب الشيوعى البلغارى الحاكم يحاول توجيه أنظار شعبه الى الأقلية الاسلامية ، حتى لا يكون هناك مطالب بالتغير والحرية والديمقراطية على غرار الحركات فى دول أوربا الشرقية المجاورة ، مثل بولندا والمجر ، وابعاد الشعب البلغارى عن المشاكل الاقتصادية والديون المتراكمة ، ودكتاتورية الحزب الشيوعى البلغارى الحاكم بقيادة « تيودور جيفكوف » على غرار ما حدث « لنيكولى شاوشيسكو » فى رومانيا المجاورة — علما بأن « تيودر جينكوف » قد أسقط والآن يوجد فى مصحة حكومية تحت الاقامة الجبرية ٠

رابعا — عدم اندماج العنصر التركى مع البلغارى :

خلقت الحملة البلغارية لتذويب الأقلية الاسلامية فى القومية البلغارية مرارة وامتعاض لدى المسلمين ، وحدة وعصبية لدى كثير من الجنس البلغارى ، وقد قاوموا المسلملون « بلغرتهم » بكل الوسائل ، واشتبكوا مع رجال الأمن والشرطة مما أوقع ضحايا كثيرة ، وزاد فى المدى القصير على الأقل من حدة الانفصال بين أفراد الأقلية الاسلامية والمواطنين السلاف البلغار ٠

واذا كان هدف الحكومة من هذه السياسة خلق قومية سلافية بلغارية متجانسة ، فأنها أدت الى نتائج عكسية ، وجعلت الأقلية الاسلامية أكثر اغترابا عن ذى قبل ، وزادت من التوجس عنهم لدى البلغار ، وان الاستياء الغاضب بين كثير من أفراد الأقلية الاسلامية ازاء اضطرارهم التخلى عن هويتهم الاسلامية يكاد يكون ملموسا ٠ ويقول « أحمد » وهى صبى فى العقد الثانى من عمره يعرف الآن رسميا اندرية فى تعليق متسم بالمرارة مثل الكثيرين من تعليقات أبناء الطائفة بهذا الشأن : « القوة فى جانبهم بينما نحن محرمون منها » ٠

كما تتجه عنه اساءة العلاقات ليس مع أهم جارة لها وهى تركيا ، وانما مع دول العالم الاسلامى ، اضافة الى تشويه صورتها وسمعتها الخارجية ، لانتهاكها لحقوق الانسان أمام الرأى العام العالمى ،

والمنظمات القومية والاقليمية والدولية ، واثارة الشعوب الاسلامية ووقوفها لمساعدة الأقلية الاسلامية من جهة ومطالبة الحكومة البلغارية تحسين أوضاع الأقلية الاسلامية والمحافظة على حقوقها الانسانية •

ويمكن القول أيضا ، بأنها أدت الى تظاهرات فى فصل الربيع سقط فيها قتلى وجرحى ، وفى أواخر صيف ١٩٨٩ ، عبر مئات الألوف من الأقلية الاسلامية الحدود جريا الى تركيا من القمع والاضطهاد ، مما أثار توترا شديدا بين البلدين ، وأدى الى ظهور مشكلة لاجئين فى « انقــرة » •

وتلك الحوادث كانت من العوامل التى أدت الى اسقاط حــكم « تيودور جيفكوف » فى نوفمبر ١٩٨٩ ، وبعدها عادت الغالبية العظمى من الأقلية الاسلامية الى ديارها فى بلغاريا[٢٨] •

وفى ظل اطلاق الحريات فى بلغاريا شاركت ، حركة « الحقــوق والحريات » التى تمثل الأغلبية الاسلامية فى الانتخابات التى جرت فى صيف ١٩٩٠ ، وحصل مرشحوها على أكثر من عشرين مقعدا ، مما جعلها الكتلة الثالثة فى البرلمان بعد الحزب الاشتراكى الحاكم وهو « الحزب الشيوعى السابق » ثم اتحاد القوى الديمقراطية المعارض •

وثار جدل من جديد فى البرلمان البلغارى ، عندما اكتشف النواب أن التعديل المطروح لقانون الأسماء يتضمن نصا يسمح صراحة للاقلبة الاسلامية بأستعادة أسماءها الاسلامية الأطية ، ليست خالية من النهايات البلغارية السلافية مثل « اوف » أو « يف » التى اجبروا على تبنيها بالقوة ، ليس ذلك فقط وانما أيضا فى صيغتها الأصلية ، أى من حرف اسمه الى « ماميدوف » سيعود الى أصله أى محمد ، و« الييف » الى على وهكذا •

وهذا ما أثار ردود فعل غاضبة من جانب النواب البلغار القوميين ،

---

(٢٨) الحياة الصادرة فى ١٧ نوفمبر ١٩٩٠ •

وأعلن النائب أحمد دوغان زعيم حركة « الحقوق والحريات » التى تمثل الأقلية الاسلامية ، اذا رفض البرلمان اقرار التعديل فى صيغته المطروحة فان حركته ستنظم حملات احتجاج واسعة ، وما أن أنهى كلمته حتى غادر البرلمان هو ومعه جميع النواب الممثلين للأقليـة الاسلامية ليجدوا فى انتظارهم خارج المبنى مظاهرة لقوتين بلغـار قدموا من المناطق الجنوبية للاحتجاج على التعديل .

وتطالب حركة « الحقوق والحريات » الجـديدة ، بالاعتراف بحقوق الأقلية الاسلامية ، ومنحها صفة أقلية قومية ، الأمر الذى يثير توترا بينها وبين القوميين البلغار المتشددين الذين يقولون أن ذلك سيعطى تركيا الحق فى أن تعتبر نفسها ضامنة لحقوق هـذه الأقلية[٢٩] . مما يعنى بأن تكون لهذه المشكلة مضاعفات أقليمية ودولية فى حال دعمت تركيا رسميا مطالب هذه الأقلية . ولكن يبدو أن التعقل واستخدام المنطق والحكمة هى الغالبة على معظم النواب والمسئولين فى الحكومة البلغارية لتجاوز تلك المشاكل والتوجه نحـو حل المشاكل الاقتصادية والادارية المستقبلية والعمل معا لتجـاوز هذه المرحلة الصعبة التى تمر بها بلغاريا .

وبهذه الدراسة التى كانت أقرب الى الميدانية منه الى نظرية ، أتمنى أن أكون وفقت فى اعطاء بعض جوانب المعاناة التى يتعرض لها اخواننا فى الاسلام من جانب الحكومة البلغارية .

وأتمنى من الله التوفيق فى دراسات أخرى مماثلة لخدمة الاسلام والمسلمين والله سميع المجيب والصلاة والسلام على نبينا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

د. محمد حسن العيدروس

استاذ التاريخ الحديث المساعد

---

(٢٩) الحياة الصادرة فى ١٧ نوفمبر ١٩٩٠ .

بين مشاهد الإنتقام الإلهى وتأثيراته
فــى
آداب الشــرق الأدنى القــديم

دكتور أحمد عبد القادر جلال
كلية الآثار جامعة القاهرة

بديهى أن الكوارث الطبيعية التى تعرض لها الكون كعقاب ربانى أتت ثمارها المرجوة فى حينه، واستعادت البشرية معطيات الأخذ بأسباب الخير والصواب الذى ترسمه لها مناهج الله سبحانه وتعالى فى خلقه. غير أن متطلبات الأخذ بهذه الأسباب - فى حدود الإمكانات العقلية لإنسان هذه العصور المتعاقبة، ومدى ما أصاب وقائع هذه الكوارث الإلاهية وحاد بها عن جوهرها الحقيقى لأسباب خدمت فى معظم الأحيان أغراضاً كهنوتية ودينية وثنية - تباينت مضامينها ومدلولاتها من موطن لآخر من مواطن العمران الحضارى لإنسان الشرق الأدنى القديم الذى يرجح أنه كان المستقبل الأول والمستمر لهذه الكوارث الربانية كما صورته آدابه المتبقية سواء من مصر القديمة أو من بلاد النهرين .

وتعبير «الإنتقام الإلاهى» يوحى بالنقمة ممثلة فى إيقاع الجزاء كجزء من عقاب يكون دائما شاملا وموجها إلى مجموعة من البشر. فالمنتقم هو الله سبحانه وتعالى الخالق القادر على الإنتقام. كما يتوجب أيضاً وجود المسببات التى تدعو إلى الإنتقام والتى حددها القرآن الكريم بتعدى حدود الله التى تختلف بإختلاف المعصية والجرم المرتكبين. وإذا كان الجزاء الإنتقامى مساوياً لحجم هذه المعصية أو بقدر هذا الجرم فى بعض الأحايين، فإنه فى أحايين أخرى كثيرة يكون العقاب فادحا بالقياس بمدى الإثم والتحدى البشرين.

وأستهدف القرآن الكريم من تقديمه تفاصيل هذه الإنتقامات الإلاهية أن يستلهم بنو الإنسان دروس العبرة والعظة مما أصاب

غيرهم فيؤثرون الأخذ بأسباب البقاء والنجاة. ولتحقيق القدر الأكبر من هذا الهدف، درج القرآن الكريم على تقديم مشاهد إنتقام واحد من هذه الإنتقامات فى أكثر من صورة، إما مفصلة يترسم القارىء بها جلالة الحدث وعبرة الإنتقام، أو فى إشارات مقتضبة تكون تذكرة له تجذبه إلى الحدث برمته. وعلى عكس ذلك، فالتوراة التى إستهدف واضعوها من أحبار اليهود تسجيل وقائع وأحداث نشأة بنى الإنسان الذين مثلوا هم فيها البذرة الأولى، توخت منهاج التتابع التاريخى لتراث هذا الإنسان فى هيئة قصص مسهب مملوء بالوقائع والأحداث التى تستوقف منطقية العقل ورجاحة الفطنة سواء فى مدلولة بعينها من الحدث أو فى الواقعة بأسرها، مما جعل المشاهد تناقض بعضها البعض، أو تصبح عرضة للتقييم والتمحيص البشريين، وهو ما أفقدها فى كثير مما روت إتصالها ككتاب سماوى بالله سبحانه وتعالى.

وإذا كانت مشاهد هذه الإنتقامات الإلاهية كما ذكر القرآن الكريم وأوردت التوراة قد بدأت مع نشأة الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام، إلا أن القرآن الكريم، وتمشياً مع الهدف المرجو منها، لا يستبعد حدوثها فى أى وقت وفى أى مكان. ويقدم دليله على ذلك مشهد الإنتقام الألاهى من أصحاب الفيل فى ربوع مكة المكرمة. وهو مشهد، معيار التصديق فيه أن الله سبحانه وتعالى يتلو فيه وقائع الكارثة على النبى (صلى الله عليه وسلم) فى وقت كان الكثير ممن عايشوا حدوثها لا زالوا على قيد الحياة، وإيمانهم بالدعوة مرهون بمدى تصديقهم لمشاهد ما نقل لهم وشاهدوه بأنفسهم.

ويمكن لمتتبع مشاهد هذه الإنتقامات الإلاهية بصورة شاملة أن يترسم خارطة وقائعها التى شملت الجزء الأكبر من بلادالشرق الأدنى

بحدوده الممتدة من شرق وشمال بلاد العراق إلى وادى النيل، مع الأخذ فى الإعتبار أن هذا الجزء من بلاد الشرق الأدنى القديم هو إمتداد طبيعى لوسط الجزيرة العربية.

ومن بين هذه المشاهد الإنتقامية المتلاحقة وقع الإختيار فى هذا البحث على ثلاثة منها، تميز أولها وهو **مشهد إخراج آدم من الجنة وإخلافه فى الأرض** بتأثيراته المتباينة التى حفظتها الآداب الدينية فى منطقتى بلاد النهرين ووادى النيل. وفى حين ترك المشهد الثانى **وهو كارثة طوفان نوح عليه السلام** ، بصماته الواضحة فى آداب سكان منطقة بلاد النهرين، إكتنف المشهد الثالث، **وهو الإنتقام من فرعون وجنوده فى مصر**، غموض إتصل بتحديد زمن حدوثه والكيفية التى حدث بها، برغم إسهاب التوراة فى تصوير وقائعة.

وفى مقدمته إرتبط **المشهد الأول** بازلية الكون (١) وبالمعصية الأولى التى إقترفها الإنسان الأول، وهو آدم عليه السلام والذى كـــان

---

(١) من الأمور التى حرص المصرى القديم على متابعتها والإلمام بها هى أزلية الزمن التى أطلق عليها «P3 (w) t tpt أزلية الكون» والتى أرتبطت فى مفهومه ب أزلية الأرض «P3 (w) t t3 wp.1,496, lf.» والشىء الملفت للأنظار أنه ورد فى القرآن الكريم مايمكن إعتباره بديلا لتعبير الزمن الأول هذا وهو «القرون الأولى» أولا على لسان فرعون نفسه حينما سأل موسى عليه السلام قائلا «- فما بال القرون الأولى» سورة طه، الآية (٥١)، وثانيا عندما أكد مدلوله لهذا التعبير فى إشارة إلى الأمم الغابرة المكذبة بالله سبحانه وتعالى «ولقد أتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون» سورة القصص، الآية ٤٣. أما عن خلق آدم عليه السلام من طين أو حمأ مســـنون أو صلصال كالفخار - والذى أكــده القــرآن الكريـــم

=

محتماً عليه، مع صلته القوية بالله سبحانه وتعالى أن يكون طائعاً ومدركاً لما سوف يسفر عنه الحيد فى طاعة الله، والذى نتج عنه إخراجه وزوجه من نعيم الجنة إلى عناء الأرض. بينما يصور فى نهايته صراعاً دموياً بين ولدى آدم ينتهى بقتل أحدهما وندم الآخر. وإذا كان القرآن الكريم والتوراة قد تناولا بطريقتهما المتباينتين وقائع هذا المشهد، فإنه لم يكن من الفطنة أن تتجاوزها تصورات المثقفين والكهان من واضعى مناهج ونواميس الديانة الوضعية فى أقدم المواطن الحضارية التى يعتقد أن هذا الإنسان الأول إستقر فيها، أو هاجرها إليها فى بلاد النهرين ووادى النيل.

ومن بين ما ذكر فى القرآن الكريم عن مقدمة هذا المشهد «وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فازلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كان فيه وقلنا إهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين»(٢).

ولا يختلف مغزى ومضمون هذه الواقعة فى التوراة إلا من حيث عرض تفاصيلها الدقيقة تمشياً مع منهج التوراة السالف ذكره. والمدلولات التى يمكن إستخلاصها من هذه الوقائع فى القرآن الكريم

=

فى أكثر من موضع ونسبه إلى الله سبحانه وتعالى «وإذ قال ربك للملائكة أنى خالق بشر من طين - فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين» سورة ص، الايات ٧١ - ٧٢، فإن هذه الحقيقة لم تكن غائبة عن مصر القديمة التى نسب إلى إلاهين من آلهتها هما بتاح وخنوم عملية خلق الإنسان الأول من طين.

V. Ionts, Egyptian Mythologt, Lonodon, 1982, pp. 28f; 33.

(٢) سورة البقرة، الأبيات ٢٥ - ٢٦ .

والتوراة يمكن عرضها فيما أتصل أولا بشجرة ممنوع الإقتراب منها، ويكون إستطعام ثمارها ذريعة لإخراج آدم وزوجه من الجنة(٣) والذى مثل فى القرآن الكريم هبوطاً إلى الأرض حيث أعد لهما المستقر والمتاع. بينما أعتبر فى التوراة طرداً من الجنة حيث أمره الله أن يمضى خارجها إلى حياة شاقة(٤) عقاباً له على معصيته .

وقبل إستعراض تأثيرات وقائع هذا المشهد على المعتقدات الدينية الوضعية لبلاد ما بين النهرين ووادى النيل، تجدر الإشارة إلى رأى راق لبعض الباحثين، مفاده ان قصة إستبقاء آدم وزوجة فى جنة عدن وما تلاها من أحداث الشجرة الممنوعة وما ترتب على إستطاعامها من خروج آدم إلى تية الأرض ومشقتها، هى فى الأصل جزء من تراث الآراميين الفكرى الذى حفظوه فى أذهانهم لما حمله من دلالات رمزية تعكس مغزى هجرتهم من بلاد النهرين الخصبة - والتى مثلت جنة عدن بالنسبة لهم - إلى الاجزاء الصحراوية من شمال شرق بلاد العراق والتى تصوروها بمثابة الأرض التى هبط عليها آدم(٥) . غير أن هذا الرأى وأن كان يعد رفضاًللديانات السماوية، ألا أن ظهور بعض معتقدات وثنية تبلورت فيما يبدو عن واقعة النزاع بين ولدى آدم مثل أسطورة الصراع بين الأخين الإلاهين

---

(٣) وإذا كانت دلالات هذه الشجرة لم ترد بهذه الكيفية فى تراث مصر القديمة الدينى، فإن النصوص المصرية أشارت إلى العديد من الأشجار المقدسة أبرزها تلك التى ذكر أن الثعبان إبيبى (أو أبو فيس رمز الشر) يحاول الإلتفات حولها فيتصدى له هر ضخم يفصل رأسه عن جسده.

Lexikon der Agypt ologyie. I, Kol. 352, 655f.

(٤) W.M. Clow, the old, old story, London, 1946, 6ff.

(٥) J. Gray, Near Eastern Mythology, London, 1982, p.103.

«ست» و «أوزير» فى مصر، وهى الأسطورة التى لم يكن لها وجود فى تراث السومريين والبابليين، أمر يزكى تأثير الديانات السماوية على معتقدات بلاد النهرين ومصر القديمة على خد سواء.

وأبرز ما يلاحظ من تأثير هذا المشهد على أقدم تراث عقائدى لبلاد النهرين خلفه السومريون، هو أن كثيراً من مضامينة الدالة صيغت بما يتناسب ومتطلبات الديانة والكهانة السومريتين. فالجنة التى عرفت بـ «تلمون» أرتبطت ببداية الخلق(٦) مثلما إرتبطت جنة عدن. وفكرة الطرد والهبوط إلى الأرض نسبها السومريون إلى الآله آن أو آنو خالق المعبوات وجدها حينما صوروه فى غضبه على إبنته لاماشتو لسؤ سلوكها يطردها من السماء إلى الأرض(٧) . أما دلالة الهبوط فمثلتها المعبودة إنانا إبنة آنو وزوجته التى ذكرت أنها نزلت من السماء (٨) .

ويبدو أن أحداث الصراع بين ولدى آدم قابيل وهابيل كانت ماثلة أمام الرعيل الأول من المفكرين والكهان المصريين الذين أوكلت إليهم مهمة صياغة تقاليد الملكية المصرية بما ظهرت عليه من مفاهيم دينية رسخت فى أذهان الملوك والكهان وأعتبرها العامة جزءاً من معتقداتهم الدينية.

فالروية التى قدمها كهان وفلاسفة عين شمس عن الكيفية التى خلق بها إلاههم الأزلى آتوم ظواهر الكون الرئيسية كالهواء والرطوبة

(٦) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول ، مصر والعراق، القاهرة ١٩٩٠، ص٥١١.

(٧) المرجع السابق ، ص٥٣٣،٤٧١ .

(٨) المرجع السابق ، ص٥١١،٤٣٨ .

والأرض والسماء(٩) ، لاتختلف كثيراً عما تصوره أحبار اليهود عن بداية الخلق ونسبوه إلى الله سبحانه وتعالى(١٠) . وإذا كان خلق آدم قد تم فى ربوع الملأ الملائكى الأعلى، فإن إستقراره فى بقعة من الأرض مثل بداية إعمار الكون وإنتشار بنى آدم فيه. ومرة أخرى يمكن الربط، ولو من الناحية النظرية، بين دلالة هذا الجزء من مشهد إسكان آدم الأرض وبين ما أدعاه كهان أتوم من أن الاههم أوجد نفسه من العدم فوق ربوة أزلية فى عاصمتهم الدينية أونو ، وهو نفس الإدعاء الذى نسبه كهان بقية الالهة الكونية إلى آلهتهم وعواصمهم الدينية(١١) .

وبينما تتصل أحداث الصراع بين الأخين مباشرة بولدى آدم قابيل وهابيل، جعلها كهان عين شمس فى حفيدى آتوم أوزيروست، فى محاولة منهم لإبراز دولة آتوم فى خلق دعائم الحياة الكونية من ماء ويابس مثلهما على إلتوالى خلق إلهى الهواء والرطوبة شو وتفنوت، ثم إلهى الأرض والسماء جب ونوت والدى الإبنين المتنازعين.

كان مما قدمه القرآن الكريم عن أسباب النزاع بين ولدى آدم صفة التقوى التى إن تحلى بها المؤمن كانت سبيلا لآن يتقبل الله عمله ممثلا فى قربانه. وصفة التقوى هذه ترجمة لجانب الخير الذى أظهره أحد والدى آدم - دونما إشارة إلى هابيل - وكانت سبباًفى حقد أخيه قابيل عليه،يقول الله سبحانه وتعالى «واتل عليهم نبأإبنى

---

(٩) V. Ions, op, Cit; pp. 25ff.

(١٠) سفر التكوين ، الاصحاح الأول ١ - ٣١ .

(١١) Abdel- Aziz saleh, the so- called «primeval Hill» and other Related Elevations in Ancient Egyptian Mythology, in MD AIK, XXV, 1969, 110ff.

آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين - لئن بسطت إلى يدك لتقتلينى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك أنى أخاف الله رب العالمين» (١٢) . وبينما تجاوز القرآن الكريم عن إيضاح الكيفية التى يتقبل بها القربان، تذكرالتوراة ان الله ينظر إلى هذا القربان(١٣)، وهو ماحدث مع قربان هابيل(١٤) .

وفضلا عما ذكره كهان عين شمس عن صفتى الخير والعطاء الذين مثلا جانب التقوى فى أوزير وأكسباه تلك السمعة الطيبة التى تمتع بها(١٥)، فإن هناك ما يمكن إعتباره نقطة إلتقاء بين ما قدمه

---

(١٢) سورة المائدة ، الأبيات ٢٧ - ٢٨ .

(١٣) لعل فى إهتمام المصريين القدماء بالقرابين المقدمة لامواتهم، وما تواتر فى بعض نصوصهم عن القرابين المحترقة صلة ولو غير مباشرة بما تأصل من تقديم مثل هذه القرابين منذ عهد آدم عليه السلام. وتجدر الأشارة هنا إلى ما أورده أبن كثير من أن أحبار اليهود ذكروا أن دلالة تقبل القربان تمثل فى نار بيضاء تنزل من السماء فتلتهم القربان المقبول، وهو ما حدث مع قربان هابيل، تفسير القرآن الكريم، الجزء الأول، ص٥٠٦-٥٠٧.

(١٤) سفر التكوين ، ابصحاح الرابع ٥ - ٦ .

(١٥) إحتفظ المصريون بهذه الصفات لاوزير حتى نهاية عصورهم الفرعونية

S. Perowne, Roman Mythology, London, 1973, pp.84ff. وفى مناسبات عديدة تصر النصوص على أن أوزير ما إكتسب هذه الصفات والجوانب الخيرة إلا بسبب بكورته التى وإن كانت قد هيأت له وراثة أبويه الإلاهين جب ونوت إلا أنها أثارت فى الوقت نفسه الحقد والضغينة فى قلب أخيه الأصغر ست الذى يفهم من النصوص أنه قتل أوزير ومذقه إربا ثم إلقى به فى النهر M. Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, Berdeley, 1975, I, 48,52, 53 II, 121.

مفسرو وواضعوا التوارة عن أسباب حقد قابيل على هابيل وبين ما تواتر عن كهان عين شمس وأتصل بدوافع النزاع بن الأخوين ست واوزير وأصبح ركيزة هامة فى تصورات المصريين عن طبيعة ملكيتهم المقدسة. فهناك تصور بدهى قدمه مفسرو التوراة عن كيفية تناسل أبناء آدم تمثل فيما ذكر بالولادة التوءمية التى تشتمل على بكر ذكر تتمثل بكورته فى أنه يسبق ولادته أحته من نفس البطن، ويحق له فقط الزواج باخته من ولادة أخرى(١٦) . وإذا كان هذا التصور التواراتى قد تبلور أساساً عن إيجاد السبيل لتكاثر أبناء آدم مع تحريم زواج الأخ بأخته من نفس ولادته - أى شقيقته - ، فإن مثل هذه الولادة التوأمية إستهدفت فى مصر إيجاد جيل من الأرباب البشريين بعد تزاوج عناصر الطبيعة سالفة الذكر، وأصبح ميسرا - بعد زواج أوزير بكر جب بشقيقته إيزه وست الابن الأصغر بشقيقته نبت حوت أونفتيس - إيجاد جيل من أنصاف الآلهة خرج من أنسالهم الفراعنة البشريون(١٧) . وتبلور عن هذه المفاهيم تصور أخر عرف بحق الميلاد Birthright إلا الإبن البكر The First - born son وإذا كان مثل هذا التصور لم يتضح إلى الحد الذى يمكن إعتباره سبباً جوهرياً(١٨) لما نشب من نزاع بين

---

(١٦) كثيرا ما رددت كتب التفاسير القرآنية مثل هذه الإدعاءات التى نسبتها إلى أحبار اليهود، تفسير ابن كثير، المجلد الأول، ص٥٠٦، تفسير القرطبى، دار الشعب، ص٢١٢١، تفسير المنار. الجزء السادس، ص٢٨٣.

(١٧) A. Gardiner, Egypt of the pharaos, Oxford, 166, p.400

(١٨) هناك حادثة مفصلة ذكرتها التوراة عن ولدى إسحق التؤمين عيسو ويعقوب إعتمد جوهرها على أهمية حقى الميلاد والبكورة سالفى الذكر ولا يستبعد أنها تمثل صورة لما كان عليه أمر قابيل وهابيل. فعيسو بوصفه المولود

=

قابيل وهابيل فإنه من الصعب تجاوزه فى ضوء ما قدمته تفاسير التوراة - وتواتر كما مر فى بعض تفاسير القرآن الكريم - من أن زواج قابيل بكر آدم من شقيقته ذات المظهر الحسن إصطدم بشريعة تحريم زواج الأخ بتوءمته والتى يرجح أنها إستنت كشريعة يهودية فى وقت متأخر وحرص كاتبو التوراة على الصاقها بآدم الذى رفض ذلك وطلب من ولديه تقديم تلكم القرابين - أو القربان - والذى تحدد نتيجة قبوله فوز أى منهما بتلك الأخت.

وليس بمستبعد أن محاولة كهان عين شمس إظهار جوانب الخير فى أوزير، والوفاء فى زوجته الطيبة الجميلة إيزه كانت بمثابة مقدمة لحتمية إنتقال إرث مصر إلى بكرهما الاله حور، وهو التصور الذى من أجله حاك واضعوا أسس الملكية المصرية(١٩) أسطورة صراع ينشب بين الأخوين ست وأوزير لم تحدد أسبابه الرئيسية،

=

الأول تمتع بحق الميلاد من إرث نبوة أبيه إسحق وجده إبراهيم عليهما السلام. ولما كان يعقوى يرغب فى إكتساب ذلك الحق - وهو ماتمنته له أمه - فلقد سعى كلاهما إلى سلبه من عيسو. وتزعم التوراة أن عيسو باع يعقوب هذا الحق مقابل وجبة مرينة لحظة جوع طائشة. فى حين أوحت الأم إلى إبنها يعقوب أن يتقمص شخصية عيسو ويسلب منه البركة التى كان إسحق قد قرر منحها له. ولم يدرك إسحق الذى إبيضت عيناه من شيخوخته هذه المؤامرة إلا بعد أن منح بركته ليعقوب، وأصبح من المستحيل - كما تزعم التوراة - أستردادها منه. وهناك إشتط غضب عيسو وأقسم أن يقتل أخاه يعقوب، ألا إنه أمهله حتى وفاة أبيه إسحق، وهو مالم يحدث حيث عاش يعقوب حتى إستقر به المقام فى مصر.

W.M. Clow, op. cit., pp. 24ff.

(١٩) M. Moret; du Caractere Religieux de la Royate Pharao-nique, paris, 1902, p. 6; H.W. Fairman. the Kingship rituals rituals of Egypt, Oxford, 1952, p. 75.

إنما حسمت نهايته بما قدمته النصوص المصرية من تدخل أبيها الاله جب الذى منح كلا منهما جزءاً من مملكته، فكان الجنوب من نصيب ست، والشمال من حق حور. وليس بمستبعد أيضاً أن مثل هذا التقسيم كان لمثابة تصور نظرى يتحتم على جب إنكارة، إذا أضافت النصوص أن جب أيقن أنه أغبن إبن إبنه حور الذى يحق له بوصفه بكراً لأبيه أوزير، وحاملا لحق البكورة إرث مملكة جب بشقيها. وتذكر النصوص فى هذا الشأن أن جب عقد جلسة خاصة أعلن فيها أنه منح حور كل مملكته لأنه أى حور إبن إبنه البكر(٢٠)أى أوزير.

وثمة لفته طريفة تثير الدهشة تتمثل فيما يمكن إعتباره تشابهاً لفظياً لا يخلو من مغزى يربط إسمى آتوم بوصفه رأس الآلهة وكبيرهم وآدم بوصفه أول البشر. فمن الناحية اللغوية يشتمل الإسمان على ثلاثة أحرف رئيسية تبدأ بحرف العلة «ألف» ثم حرف الـ «دال» الذى يتحول فى كثير من القراءات إلى «تاء»(٢١) ، ثم حرف ال «ميم» مسبوقاً بحرف علة يكتفى بنطقه «الف» قصيرة فى معظم اللغات السامية(٢٢) ، وهو ما يرجح قراءة آتم - على غرار آدم -

---

(٢٠) K. Sethe, Der drabatische Ramessum papyrus, in unter-suchungen zur Geschichte und Altertumskunde Agyptens, X, Leipzig, 1928, 27-28, Anm. 17a; M. Lichtheim, op. cit., I, p.52, note (3).

(٢١) A. Gardiner, Egyptian Grammar, 3rd ed., Oxford, 1966, s19; J.M. plumley, An Introdictory Coptic Grammar, (Sahidic Dialect), London, W.D., p.2.

(٢٢) A. Bakir, An Inrtoduction to the study of the Egyptian Language «A Semitic Approach» Cairo, 1978, p.11; A. Gardiner, op. cit., s3.

بدلا من أتوم(٢٢) . وتزداد الدهشة عندما يلاحظ أن أحد أبناء أدم الذى ذكرت التوراة أن الله أعاض به حواء من إبنها المقتول هابيل سمى بأسم شيث(٢٤) ، وهى القراءة التوراتية للإسم المصرى الشهير ست(٢٥) .

* * *

مثل **المشهد الثانى وهو الطوفان النوحى** أول عقاب ربانى شامل تتعرض **له السلالة البشرية التى عمرت الكون منذ عهد آدم وحتى** ظهور نبى الله نوح عليه السلام. وشمولية العقاب هنا تقاس نسبيا بالفناء التام الذى اصاب هذا الجزء من منطقة الشرق الأدنى التى شهدت تكاثر ذرية آدم، والتى مثلت فيما يرجح الجزء المعمور فى كوكب الأرض(٢٦) .

وأبرز ما يستخلص من مشهد الطوفان النوحى هو إستبيان الأسس الثابتة التى شكلها هذا الإنتقام الإلهى ممثلة فى **الأسباب التى**

---

(٢٣) Wb. 1, 144,5-6; A. Gardiner, op. cit., sign-list, d38.

(٢٤) سفر التكوين ، الإصحاح الرابع ٢٥ - ٢٦ .

(٢٥) الكتابة الأفرنجية للإسمين هـى The New English, seth Bible, Exford, 1985 Genesis 4, 25-26; A. Gardiner, Egypt of the pharashs. ,pp. 224 ff.

(٢٦) تواصل التوراة نسب نوح عليه السلام بإبن آدم شيت، سفر التكوين ، الإصحاح الخامس ٦-٣٢. ويذكر القرآن الكريم أن هذا الطوفان إستهدف قوم نوح خاصة. وإذا ما أخذ فى الإعتبار أن الله سبحانه وتعالى لا يعاقب قوما بجريرة غيرهم، فإنه من الأرجح إعتبار الطوفان النوحى حادثة كونية إقتصرت على المنطقة التى سكنها قوم نوح وما حولها، وهم الذين يرجح أنهم مثلوا وقتئذ غالبية سكان الأرض .

أغضبت الله سبحانه وتعالى ، ودفعته إلى الإنتقام. ثم قرار الإنتقام العادل الذى لايصيب إلا من يستحقه . ثم بعد ذلك **الوسيلة التى يمكن بها إنقاذ من أخذوا بأسباب البقاء البشرى الإعمار الكونى، ليكونوا البذرة المومنة المتبقية على سطح الأرض .**

وإذا كانت التوراة ـ ولنفس الأسباب سالفة الذكر ـ قد أسهمت فى روايتها عن هذه الأسس التى شكلها هذا الإنتقام الإلهى(٢٧) ، فإن القرآن الكريم الذى تناول هذا الحدث فى أكثر من موضع، ذكر أن قوم نوح بتكذيبهم نبيهم وكفرهم بربهم سلط عليهم طوفاناً كاسحاً قضى عليهم ولم ينج منهم سوى من آمنوا بالله مع نوح وركبوا السفينة التى أمر الله تعالى ببنائها(٢٨) .

ومرة أخرى يمكن القول أن الديانتين العراقية والمصرية القديمتين قد إستفادتا من الدلالات الدينية والمضامين الروائية لهذا الإنتقام الألهى سواء من حيث إلصاق تفاصيله الدقيقة بكبار آلهتهم كما ورد فى نصوص الطوفان السومرية والبابلية، أو الأخذ بالاسس الثابتة التى إعتمد عليها هذا العقاب الإلهى وعرضها فى ثوب روائى جديد كما حدث فى مصر القديمة.

---

(٢٧) سفر التكوين ، الإصحاح السادس - الإصحاح التاسع .

(٢٨) ورد ذكر نوح عليه السلام فى كثير من السور القرآنية، بعضه مفصل كما فى سور الإعراف، الأبيات ٥٩-٦٢، ٦٩ ، يونس الأبيات ٧١-٧٤، هود البيات ٢٥-٤٨، الشعراء الأبيات ١٠٥-١٢٢، نوح الأبيات ١-٢٨. وبعضه مختصر كما فى سور العنكبوت الأبيات ١٤-١٥، الصافات الأبيات ٧٥-٨٢، القمر الأبيات ٩-١٦. وبعضه فى آيات قرآنية قصد بها العبرة والعظة كما فى سور النساء الآية ١٦٣إ الإعراف الآية ١٣٣، التوبة الآية ٧٠، الفرقان الآية ٣٧، ص الآية ١٢، غافر الآية ٥، ق الآية ١٢، التحريم الآية ١٠ .

وأثار التشابه الواضح بين الرؤية القصصية لهذا الطوفان النوحى فى التوراة، وما ذكر فى النصوص السومرية والبابلية عن طوفان كاسح أفنى الكون وأهلك البشرية، تساؤلات عديدة عن مدى علاقة السومريين - أو بالأحرى أجدادهم - بالطوفان النوحى، وهل هم الذين تعرضوا له؟ أم أنهم نقلوا المشاهد القصصية من تراث الآراميين الذين ورثوه عن أجدادهم الأولين؟ والذين - كما مر - يغلب على الظن أنهم كانوا أنفسهم قوم نوح. والمتتبع لكل من الرؤيتين التوراتية المسهبة والقرآنية الموجزة عن طوفان نوح ، والتفاصيل المطولة التى أوردتها النصوص السومرية والبابلية عن الطوفان العراقى القديم، يدرك على الفورأن الأخذ بالرأى الأخيرأمر لامفر منه(٢٩).

قدم المثقفون من الكهان والفلاسفة السومريين والبابلين آلهتهم الكبرى أمثال آن - أو أونو - وأنليل على أنها هى التى إنتقمت من البشر بسبب إشتداد صخبهم وتضخم سرورهم. وتذكر النصوص البابلية التى غالبا ما ترد إلى أصول سومرية ، أن الآله أنليل نفسه حاول فى واقعتين متتاليتين الإنتقام من البشر، إلا أنه يستمال فى كليتهما ويركن إلى المهادنة والتردد، مما يدفعه فى نهاية الأمر إلى إحتيار الطوفان كوسيلة تردع البشر وتفنيهم أجمعين(٣٠) .

وتظهر التفاصيل الدقيقة لرواية الطوفان البابلى نقاط التقاء متعددة بينها وبين ما قدمته التوراة فى روايتها عن الطوفان النوحى،

---

(٢٩) يمكن الأخذ بهذا الرأى لإعتبارت منها، أن إبراهيم عليه السلام الذى ينسب دائماً إلى أحدى طوائف الآراميين فى مدينة أور العراقية يعتبر الجد الأكبر لبنى إسرائيل W.M Clow, op. cit, pp. 13ff. ويذكر القرآن الكريم عن بنى إسرائيل أنهم «ذرية من حملنا مع نوح أنه كان عبداً شكورا» سورة الإسراء، أية٣ .

(٣٠) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق، ص٥٤٢ وما بعدها .

سواء من حيث التقيد بأسس الإنتقام الآلهى سالفة الذكر ، أو من حيث عرض المضامين القصصية الثانوية(٣١) . فالبطل فى الرواية البابلية وهو أوتانبشتيم - والذى حل محل زيوسدرا بطل الرواية السومرية - يقوم بدور نوح عليه السلام فيما يتعلق بإختيار الآلهة له لقيادة فلك النجاة التى أمر ببنائها بوحى من الآلهة ورعاية منها. كما أن مظاهر الطوفان الكاسح المتمثلة فى أمطار السماء الغزيرة والمستمرة، وفى تفجر ينابيع الأرض وعيونها تتشابه فى الجانبين إلى حد كبير. أما من حيث الفترة الزمنية التى إستغرقها الطوفان، والكيفية التى إهتدى بها كل من أوتانبشتيم ونوح عليه السلام لمعرفة إنحصار الفيضان خارج السفينة فتكاد تكون واحدة من النصين البابلى والتوراتى(٣٢) .

---

(٣١) منذ أن ترجم نص الطوفان البابلى مع بداية الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، ظهرت عدة دراسات مقارنة بين الطوفان البابلى والطوفان النوحى فى التوراة. ومن بين هذه الدراسات فى اللغة العربية، إسماعيل مظهر، قصة الطوفان وتطورها فى ثلاث مدنيات قديمة، القاهرة، ١٩٢٩، ٦٥ وما بعدها، فاضل عبد الواحد على، الطوفان فى المراجع المسمارية، بغداد ١٩٧٥، ١٧٨ وما بعدها، محمد بيومى مهران، دراسة حول قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - العدد الخامس، الرياض ١٩٧٥ ص٣٨٣-٤٥٧.

(٣٢) أعتمدت الرواية البابلية ، وربما الرواية التوراتية، على فكرة أن الطير لا يحط إلا على الأرض اليابسة، وهو الأمر الذى كان مستحيلا والمياه تغرق ما حول السفينة. ويذكر النص البابلى أن أوتانبشتيم أطلق حمامة ثم سنونو فعادا من فورهما حينما لم يجدا مكانا يحطان عليه، فى حين لم يعد الغراب الذى رأى الماء يتناقص فأكل وعب ودار ولم يعد، عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص٥٥٠. وعلى العكس من ذلك يلاحظ إضطراب على الرواية التوراتية التى ذكرت أن الغراب أرسل أولا فلم يعد. ثم أرسل نوح حمامة فعادت متعبة، أرسلت الحمامة مرة أخرى فعادت تحمل غصن زيتون أخضر كان بمثابة دليل على ظهوراليابسة وسط المياه،سفر التكوين، الاصحاح الثامن،٦-١٢.

وبينما يصدق القرآن الكريم فى وصفه البليغ المعجز بعضاً مما ذهبت إليه التوراة فى سردها عن أحداث الطوفان(٣٣)، يلقى الضوء على ما ورد فى النص البابلى من علامة بدء إجتياح الطوفان ، وهى كما حددها الآله شمس بوقت معين «يرسل - فيه - من يبعث القلق بالليل رذاذاً من المن»(٣٤) ، أو مطرا مهلكا(٣٥) . وبرغم إختلاف الرؤية ، فإن هناك ما يدل على وجود علامة معينة حددها القرآن الكريم ب «فوران التنور» كإشارة يستدل بها نوح على مقدم الطوفان «حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا إحمل فيها من كل زوجين إثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل»(٣٦). وفوران التنور يمكن تفسيره فوارة بركانية، أو اشارة ضوئية دل عليها لفظ تنور وهو الموقد(٣٧) . وفضلا عن ذلك، يصور القرآن الكريم نهاية الطوفان بصدور الأمر من الله سبحانه وتعالى إلى الأرض بإبتلاع مائها، وإلى السماء بالإقلاع عن مطرها «وقيل يا أرض أبلعى ماءك ويا سماء اقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى ...»(٣٨) ، وهو ما جعل السفينة

---

(٣٣) مثل عدم معرفة نوح بصناعة السفن وأن وحياً من الله سبحانه وتعالى قد ألهمه ذلك «وأصنع الفلك بأعيننا ووحينا..» هود الآية ٣٧، والكيفية التى حدث بها الطوفان «ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر - وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر» القمر، الآيات ١١-١٢، والطريقة التى تم بها إنقاذ البشرية وأصناف الحيوانات والطيورالمختلفة «حتى إذاجاءأمرنا وفار التنوير قلنا أحمل فيها من كل زوجين أثنين» هود الآية ٤٠، الخ...

(٣٤) عبد العزيز ، المرجع السابق ، ص٥٤٩ .

(٣٥) فاضل عبد الواحد على ، المرجع السابق، ص١٧٩.

(٣٦) سورة هود ، الآية ٤٠ .

(٣٧) سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، الجزء الثانى عشر، ص١٨٧٧.

(٣٨) سورة هود ، الآية ٤٤ .

ترسو رسواً طبيعياً يدركه من فوره من بداخلها دونما حاجة إلى إستطلاع الأمر بالطريقة التى رددتها النصوص البابلية وذكرتها التوراة (هامش ٣٢). فإنحسار الماء يحتم رسو السفينة بالطريقة التى عبر عنها القرآن الكريم بالاستواء ، وهو الإستقرار المأمون .

وبرغم كثرة ما رددته الآداب الشرقية القديمة عن كوارث طوفانية أصابت الحياة فيها(٣٩) ، إلا أن تأثيراً مباشراً لحادثة الطوفان النوحى لم تظهر فى النماذج الأدبية المختلفة لمصر القديمة، برغم ورود نموذج فريد لإنتقام إلهى إستهدف إظهار قوة وبطش أكبر الآلهة المصرية رع ، الذى يقرر الإنتقام من البشرية بنفس الطريقة التى رددتها النصوص العراقية القديمة، وأشارت إلى ظهور من يستميل الإله المنتقم ويثنية عن تنفيذ مخططة(٤٠) .

وفضلا عن ذلك ، هناك بعض معتقدات دينية لا تخلو مضامينها الفلسفية وصورها الروائية مما يمكن إعتباره تأثيراً غير مباشر

(٣٩) يلاحظ على هذه الدول التى تردد فيها مثل هذه الملاحم الشعبية أو الأساطير، مثل الهند وبورما والصين والملايو وإستراليا وجزر المحيط الهادى وغيرها، محمد بيومى مهران، المرجع السابق، ص٣٨٢، أنها عرضة لفيضانات الأنهار وأعاصير الجبال الطوفانية حتى الآن، وهو ما يصعب معه الإفتراض بتأثير مباشر للطوفان النوحى عليها.

(٤٠) من أبرز ما يلاحظ على قصص الإنتقام الآلهى التى ذكرت النصوص البابلية أنها سبقت طوفان أوتانبشتيم، أن إستمالة الاله المكلف بافناء البشر بأساليب معينة تسلبه أرادته وقوته وتثنية عن إنتقامه كانت المغزى الرئيسى لروايتين بابليتين إرتبطتا بنشأة الوجود، وأتخذ قرار الإنتقام فيهما الاله انليل، ووجد شبيه لهما فى أسطورة هلال البشر المصرية هذه التى تضمنت نفس المغزى الدينى والمضمون الروائى، عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص٥٤٤،٢٧٦، مما يدعو إلى ترجيح إتصال شبه مباشر يربط هذا النوع من القصص فى كل بلاد ما بين النهرين ومصر .M. Lightheim, op. cit., II, 198

المشهد الأخير من كارثة الطوفان النوحى، والذى مثل بداية الحياة الجديدة بإستواء سفينة نوح على قمة جبل الجودى وبدأ إنحسار الماء عنها وظهور أول جزء من أرض يابسة هبط عليها نوح ومن معه. ففى واحد من أقدم مذاهب الخلق المصرية، وهو مذهب مدينة الأشمونين ، هناك إشارة إلى أن الحياة الأزلية نشأت أول مانشأت على جزيرة - أو قطعة أرض - إنبثقت عن إنحسار المياه الأزلية، وظهر عليها ثمانية آلهة رمز إليها بحيوانات برمائية كالضفادع التى مثلت الذكور، والثعابين التى مثلت الإناث(٤١) . وبرغم إختلاف المغزى والمضمون. فإن وجود مثل هذه الإزدواجسة بين ذكرأوأنثى - ولو من الآلهة - لا يخلو من دلالات تربطه بالإزدواجية - أو إختيار زوجين إثنين من كافة فصائل الحيوان - التى ميزت إستمرارية الحياة على سفينة نوح.

* * *

ومن أبرز ما يلاحظ على **مشهد الإنتقام الإلهى من فرعون وجيشه بإغراقهم فى اليم ونجاة بنى إسرائيل** ، أن الخدث الذى مثل الحلقة ألأخيرة من سلسلة إنقامات متتالية أغفل ذكره سواء فى الوثائق الملكية الرسمية، أو فى الروايات الشعبية والتسجيلات الشخصية لكبار رجال البلاط، رغم كثرتها فى الدولة الحديثة التى يغلب أن الأحداث وقعت خلالها(٤٢) .

---

(٤١) A.J. Spencer, Death in Ancient Egypt, Harmondsworth, 1948, pp. 27. 150f.

(٤٢) لعل فيما ذكرته التوراة من أن بنى إسرائيل أقاموا بأمر من مسخريهم مدينتين إحداهن تسمى رعمسيس ، الخروج ، الاصحاح الأول، ١١، ما يتفق مع ما ذكرته بعض المصادر المصرية القديمة من تطوير مدينـــة على

=

ويصدق القرآن الكريم ما ذكر فى التوراه من أن رفض أحد فراعنة مصر السماح لبنى إسرائيل الخروج من مصر، وإنكاثه لوعوده بشأن إخراجهم منها، أوقع عليه وعلى قومه غضب الله الذى مثل فيما أقره القرآن الكريم تسع آيات بينات إستهدفت إثنتان منها. وهما معجزتا إخراج يد موسى بيضاء بغير سوء، وتحويل عصاه إلى حية تسعى(٤٣) - تحذير فرعون وإرجاعه إلى رشده بالإقلاع عما يأتيه من جور لحق ببنى إسرائيل، وبمن أمنوا بالله من المصريين(٤٤) .

=

عهد الملك رمسيس الثانى - أو قبله - فى شرق الدلتا عرفت بأسم بر (أو بى) رعمسيس .A.Gardiner, Egypt of the Pharaohs, London, 1966, p. 258 ورعمسيس هى القراءة الصحيحة لرمسيس الذى ذكرته المصادر الكلاسيكية .

(٤٣) يذكر القرآن الكريم فى سورة الإسراء ، الآية ١٠١ «ولقد أتينا موسى تسع أيات بينات ...» وفى سورة الشعراء، الأبيات ٣٢-٣٣ «فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين - ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين وتشير كتب التفاسير إلى أن هذه الأيات هى خروج يد موسى بيضاء من غير سوء (من غير برص)، والعصا، والسنون، ونقص من الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، تفسير وبيان (القرآن الكريم) للسيوطى، ص٢٩٢ .

(٤٤) يشير القرآن الكريم فى سورة يوسف، الأبيات ٣٧-٤٠، إلى أن دعوة يوسف عليه السلام لديانة الإله الواحد الأحد فى مصر، لم تكن غائبة عن قلة قليلة من المؤمنين من آل فرعون أنفسهم ، والذين ما كان من بينهم من جادل ملكة فرعون وقومه، ونهاهم عن تكذيب موسى وإسرافهم فى الكيد به وببنى إسرائيل، سورة غافر، الأبيات٢٨-٣٤. ويذكر القرآن الكريم أن هذا الإيمان تطرق إلى آل فرعون أنفسهم ومن بينهم زوجته التى يقول الله سبحانه وتعالى فيها «وضرب الله مثلا للذين آمنوا أمرأة فرعون أذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين»، سورة التحريم، الآية ١١.

أما التوراة فتعتبر نفوق ماشية المصريين ، وإنتشار الأوبئة وانحسها الدمامل بينهم، الكارثتين الثامنة والتاسعة والمترتبين على سبع مصائب هى تحول ماء النيل إلى دماء، وتكاثر الذباب، والقمل، والجراد، والضفادع، وما تعرض له المصريون من عواطف باردة، وظلمة معتمة (٤٥) . علاوة على ذلك ، ذكرت التوراة إنتقاماً أخر .. لم يرد فى القرآن الكريم - تمثل فى قتل الأبناء البكور لكل العائلات المصرية بمن فيهم أسرة فرعون، مما سبب الخوف والذعر للمصريين والفرعون نفسه، الذى طلب من بنى إسرائيل مغادرة مصر ، وشجعهم المصريون على هذا الخروج بأن حملوهم الكثير من الأمتعة النفيسة كالحلى والموجوهرات والثياب الثمينة(٤٦) .

---

(٤٥) سفر الخروج ، الاصحاح السابع وما بعده W.M. Clow, op. cit., p. 48;

(٤٦) Ibid., pp. 48f. يبدو أن هذه القصة برمتها من صنع أحبار اليهود، الذين قصدوا بتسجيلها أظهار كيف أن الله إنتقم لهم من أعدائهم بنفس الطريقة التى ذبح بها آل فرعون أبناءهم. ويتضح التخبط الذى وقعت فيه التوراة فى أكثر من موضع منها ما ذكر من أن موسى عليه السلام طلب من بنى إسرائيل ذبح أغنام تسيل دماوءها على أعتاب منازلهم كى يميزها ملك الموت عن منازل المصريين الذين ستذبح بكورهم. كما أن هذه القصة - وبرغم أنها أكدت واقعاً ملموساً أبرز مكانة البكور فى الأسر المصرية عامة وبكر الفرعون وولى عهده خاصة - إلا أنه يتعارض مع ما يمكن فهمه من حرص فرعون وزوجته على إقتناء طفل يكون لهما أبناء، حيث يذكر القرآن الكريم فى ذلك «فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين - وقالت إمرأة فرعون قرت عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون» سورة القصص، الأبيات ٨-٩. أما التوراة فتذكر أن إبنة فرعون - وليست زوجته - هى التى حرصت على الإحتفاظ بالطفل - الذى سمى بابن إبنه فرعون - رغم تأكدها أنه إبن من أبناء العبرانيين .

Ibid., p. 44.

ودراسة شاملة للتراث الدينى والسياسى للفترة التى إستغرقتها الدولة الحديثة الفرعونية ترجح ما يمكن إعتباره تجاهلا متعمداً أصاب الوثائق التاريخية الملكية والآداب الشعبية، وأخفى حقيقة هذه الكوارث التى أصابت المجتمع المصرى فى هذه الفترة، والتى إنتهت بكارثة إغراق فرعون وجنوده، سيما وأن القرآن الكريم يؤكد أن فرعون نفسه نجى ببدنه ليكون عبرة وعظة للفراعنة وعامة المصريين من بعده(٤٧) . وإذا كانت محاولات التعرف على حقائق هذه الأحداث فى واقع التاريخ والحضارة الفرعونية لم تصل بعد إلى نهايتها، فإنه تجدر الإشارة إلى مايمكن إعتباره تعقيبات على بعض ملابسات هذه الأحداث، أو إفرازات يمكن ربطها ببعض الدلالات الدينية والإجتماعية التى إنبثقت عن جوهر واقعة الإنتقام الإلهى من فرعون وجنوده ، ووجدت سبيلها إلى نفوس المثقفين من أدباء مصر القديمة .

فمن الوثائق الثورية الهامة التى عالجت تردى الأوضاع السياسية والإجتماعية والاقتصادية فى مصر الفرعونية الوثيقة التى تنسب إلى حكيم مصرى يدعى إبوور عاصر فيما يبدو السنوات الأخيرة من حكم الأسرة السادسة(٤٨) .وإذا كان صدى أحداث هذه الوثيقة قد ظل عالقاً فى أذهان المصريين حتى فترة متأخرة من تاريخهم ، فإنه لا يستبعد أن كاتبى هذه النسخة من وثيقة إبوور، والتى تؤرخ

---

(٤٧) يقول الله تعالى فى سورة يونس، الأبيات ٩٠-٩٢ «وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال أمنت أنه لا إله إلا الذى أمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين الأن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين - فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون» .

(٤٨) M. Lichtheim, op. cit.. 1, pp. 149 ff.

بالأسرة التاسعة عشرة(٤٩) ، قد خلط بين واقع الأحداث السياسية والاقتصادية فى نهاية الأسرة السادسة وبين ما يمكن إعتباره وصفا لكوارث إجتماعية وإقتصادية أصابت الحياة فى مصر بنفس الكيفية التى وصف بها القرآن الكريم آثار الإنتقامات الألهية سالفة الذكر، مما يدعو إلى الإعتقاد بأن أسبابا معينة كانت وراء مثل هذا الخلط بين الواقعين، أخصها محاولة هؤلاء الكتاب إظهار آثار هذه الإنتقامات فى مصر بطريقة لا تثير الشك فى قلوب الكهان والملوك الذين حاولوا من جانبهم التستر عليهاأو طمس معالمهما . فالحديث الذى ذكر كاتب هذه الوثيقة أنه جرى على لسان إبوور ووجه إلى ملكه حديث يتضح منه لجوء الكاتب إلى الإحتيال فى التعبير الذى جعله يتوخى التورية المثيرة للتفكير. فالحديث مرجه إلى الملك دون ذكر إسمه مما يجعله حديثة رمزياً أريد بمعناه أى ملك لأى عصر، مثال ذلك قوله «كان من الممكن أن يرتاح قلب الملك لو بلغته الحقيقة -» ، «ان ما يروى لك هو الباطل، فالبلاد تشتعل ، والناس قد أهلكوا» ، «وليتك تذوقت بعض هذه المصائب واذن لرويت (خبرها بنفسك)(٥٠) . وهذه الجملة الأخيرة تدل بوضوح على محاولة الملك إخفاء هول هذه المصائب. وإذا كان الحديث عن المساوئ الإجتماعية والأمنية، والمحاولات الجماهيرية للتصدى لها أو إستغلالها، يتفق مع ما ذكره إيوور من ضعف الملكية وفساد الحكومات المركزية فى عهده، فإن ورود ألفاظ ترتبط بالكوارث الطبيعية كالبلاء والأوبئة والمصائب والأمراض والإقدام على الموت

---

(٤٩) Ibid., p. 150.

(٥٠) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص١٥٧ .

لايستبعد أنها من تأثير واقع معاصر لم يغب عن ذهن كاتب هذه الوثيقة فى هذا الوقت المتأخر من الدولة الحديثة. وإذا كانت الكوارث التى أشار إليها القرآن الكريم والتوراة كهجمات الجراد وقمل الأرض والفيضانات والضفادع والذباب تتفق من حيث التعميم مع ماذكره كاتب وثيقة إبوور من تعطل الزراعة وبوران الأرض وإحتضار الناس ونفوق الماشية، فإنه من العسير تجاهل العلاقة الوثيقة بين ما رددته هذه الوثيقة من تحول ماء النهر إلى دماء سالت فى كل مكان وبين ما ذكرته التوراة صراحة من أن «نهر النيل تحول إلى دم». وإذا كان من الصعب تخيل الكيفية التى تحول بها النهر - أو نهر النيل ؟ - إلى دماء ، فإن ورود «الدم» كعقاب أصاب آل فرعون فى القرآن الكريم يجعل من غير المقبول تفسير هذا الإنتقام الإلهى على أنه وباء أصاب دماء المصريين(*) ، ولا سيما وأن بعضا من كتب تفاسير القرآن يشير إلى إحتمال تحول النهر إلى دماء(٥١). ولعل التفسير المحتمل لهذه الظاهرة الكونية هو أن ماء النهر تحول إلى مايشبه الدماء الملوثة لوناً(٥٢)وتقيحاً، وهو ما تضمنه وصف

(*) برغم وجود دعاء بالإصابة بالدم يردده العامة فى صعيد مصر الآن.

(٥١) السيوطى «تفسير وبيان القرآن الكريم» (الاعراف١٣٣) أوص١٦٦.

(٥٢) وفى أسطورة «هلاك البشر» ص١١ هناك إشارة إلى مسحوق أحمر طلب الإله «رع» إحضاره من أسوان وخلط بالجعة التى قصد أن تشربها الألهة حتحور لتفقد وعيها وتنسى قضية أهلاك البشر. وتذكر الأسطورة أن الجعة تحولت إلى لون أحمر يشبه الدماء البشرية M.lichtheim, op. cit., 11, p.199 وأعتماداً على ما إفترضه عبد العزيز الصالح من أن هذا المسحوق ربما كان أكسيد الحديد الأحمر المتوافر فى محاجر أسوان، المرجع السابق، ص٢٧٦، فإن أختلاط هذا المسحوق بمياة الفيضان عند أسوان كان كفيلا بتسمم مياه النيل وتحولها إلى لون أحمر يشبه الدماء.

كاتب وثيقة إبوور الذى ذكر أن «مجرى النهر أصبح قبرا وغدا مكان التطهير فيه بلون الدم، وإذا قصده الناس ليرتووا منه عافوا جثث البشر وظلوا على ظمئهم إلى الماء»(٥٢) .

* * *

(٥٢) المرجع السابق ، ص٢٩٢.

الألعاب والجومناسيا فى مصر
بين السياسة والدين
(١)
العصر الهللينستى

د. عبد الحليم محمد حسن

قسم التاريخ ـ كلية الآداب

جامعة القاهرة

لا يفوت الناظر فى آثار مصر القديمة ملاحظة حرص الفنان المصرى على إبراز الإنسان فى هيئة بدنية مثالية، وهو حرص ينبىء بلاشك بإهتمام المصريين برياضة البدن وتقديرهم لكمال الأجسام(١).

---

(١) نلمس صدى هذا الإهتمام وهذا التقدير بصورة جلية فى مناظر مقابر حكام الأقاليم فى عصر الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١ - ١٧٧٨ ق.م.)، وفى مقابر بنى حسن بصفة خاصة، حيث نجد عرضاً رائعاً بحق لألعاب التسلية والألعاب الرياضية التى سبقوا فى ممارستها غيرهم من شعوب البحر المتوسط، فإلى جانب العاب التسلية العديدة التى كانوا يمارسونها قعوداً، مثل لعبة الداما، عرفوا الألعاب البهلوانية التى كانت تعنى بالرشاقة والقوة العضلية وتتطلب تدريباً شاقاً وطويلاً. وكانت هذه تشتمل أحياناً على ألعاب مختلفة بالكرة، كما عرفوا رياضة حمل الأثقال والجرى وما يشبه القفز الطويل. غير أن المصارعة كانت فيما يبدو أكثر أنواع الرياضة العنيفة رواجاً بين المصريين. ففى مقابر بنى حسن نرى مشاهد عديدة ومتنوعة لمجموعات من المصارعين فى أوضاع مختلفة. وعلى جدار واحد فقط صور لنا الفنان المصرى مائتين وعشرين مشهداً تبدو كما لو كانت لوحات إيضاحية لمدرسة فى المصارعة. ذلك أن بعضها يصور أوضاعاً متتابعة مما يدل على أن هذه اللعبة كان لها أصول وقواعد متعارف عليها، وإن كان ليس من اليسير أن نتبين نظامها بشكل محدد تماماً. وكان المصارعون يمارسون رياضتهم عرايا إلا من منزر يستر العــورة .

\-

غير أن الرياضة لم تلعب فيما نعلم أى دور بارز سواء فى الدين أو فى السياسة أو فى الحياة العامة بوجه عام طوال العصور الفرعونية. فلم يقرن المصريون القدماء أبداً بين نشاطاتهم الرياضية وعباداتهم. ولم تتضمن إحتفالاتهم الدينية إقامة مباريات رياضية تكريماً للآلهــة،

=

وكل مسكة أو رمية يمكن تصورها مصورة. فعلى ما يبدو كانت كل المسكات مسموحاً بها، والمصارعة كانت تواصل على الأرض. ويبدو أنه كان من الضرورى تثبيت الخصم على ظهره مع ملامسة كتفيه للأرض. ولكن ليس هناك مايشير إلى إستخدام اللكمات مثلما هو الحال فى لعبة البنكراتيوم الإغريقية. ولا بد أن مشاهد المصارعة هذه كانت تمثل جانباً من تدريب الجند. فهى دائماً ترتبط يالتدريبات العسكرية الأخرى، مثل رمى السهام والتدريب على القتال فى معارك صورية. وفى مثل هذه المعارك الصورية نرى رجالا يقاتلون بعصى قصيرة وتروس. ومن بين رياضاتهم الشعبية ما كان يتبارز فيه الخصمان بعصى طولها نحو قدمين وكل منهما يضع على ساعده الأيسر وقاية خشبية يشدها إليه بشرائط من الجلد ويتلقى عليها ضربات الخصم. واللعبة الأكثر خطورة كانت القتال «بالنبوت» - تلك العصا الغليظة الصلبة التى يتراوح طولها بين ستة وثمانية أقدام ويقبض المبارز على طرفها بكلتا يديه، وكانت تمارس بصفة خاصة بين رجال القوارب المصريين. والجدير بالذكر أن ألعاب المصارعة والمبارزة بالعصى والقتال «بالنبوت»، كانت كلها رياضات عامة الناس ، وأيضاً الجنود الذين كانوا يؤلفون طبقة متميزة. ولكن ليس هناك ما يدل على أنها كانت من بين إهتمامات الطبقات العالية فى المجتمع التى كانت فى الغالب تفضل ألعاب التسلية التى تمارس قعوداً، ومشـــاهدة العروض البهلوانيـــة التى يقدمهـــا المحترفون. أنظر E. N. Gardiner, **Athletics of the Ancient world** (Oxford, 1930, reprinted and corrected 1955). pp. 4-8.

J. Delorme, **Gymnasion** (Paris, 1960), pp. 11-13.

أنظر أيضاً : عبد العزيزصالح، **التربية والتعليم فى مصر القديمة**، (الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٦) الفصل الخامس: «التربية البدنية» (ص١٠٩ -١٢٤)، أحمد بدوى ، **تاريخ التربية والتعليم فى مصر** (الهيئة المصرية العامة للكتاب، الجزء الأول،١٩٧٤) ص٢١١-٢١٢.

توزع فيها الجوائز على الفائزين(١). كما لم تكن لديهم مؤسسات رياضية تلعب دوراً كبيراً أو صغيراً فى الحياة السياسية أو الحياة العامة بأى صورة من الصور .

فالرياضة بوجه عام، على أهميتها فى الحضارة المصرية، لم تكن بالغة الوضوح فيها مثلما كان حالها فى الحضارة الإغريقية، حيث كانت تلقى عناية خاصة من جانب الحكام لما لها من أثر كبير على شعبيتهم، وحيث كانت الإحتفالات الدينية لاتخلو فى الغالب من إقامة المباريات تكريماً للآلهة، توزع فيها الجوائز على الفائزين .

فمهرجان الألعاب الأوليمبية، وهى أهم الألعاب البانهللينية. جميعاً، كان يقام فى نهاية فصل الصيف بعد كل أربع سنوات تكريما للرب زيوس الأوليمبى، بجوار معبده الكبير فى أوليمبيا فى مقاطعة

---

(١) كانت بعض العروض الرياضية تقام أمام المعابد فى بعض الإحتفالات أو المناسبات الدينية الخاصة . ويذكر سترابون Strabo, XVII.31. أن عرضاً لمصارعة الثيران كان يقام أمام معبد هيفايستوس (بتاح) فى منف . ويبدو أن «مصارعة الثيران» كانت من بين العروض التى تلقى إقبالا جماهيريا خاصاً . ولكن مثل هذه العروض لم تكن تتضمن مباريات أو توزع فيها الجوائز على الفائزين. بل من مناظر مقابر بنى حسن يبين لنا أن مصارعة الثيران لم تكن دائماً تجرى بين رجل وثور، وإنما فى بعض الأحيان بين ثورين ، وكان الناس يكتفون بما يصيبونه من متعة مشاهدة الثورين يقتتلان . أنظر Gardiner, **AAW**, p.8 ، قارن : عبد العزيز صالح ، **التربية والتعليم فى مصر القديمة**، ص١٢١- ١٢٢ . ويروى هيرودوت، **الكتاب الثانى**،١٦٠، أن سفراء من «إليس» جاءوا إلى مصر فى عهد أبسماتيك الثانى (٥٩٥-٥٨٩ ق.م.) ينشدون رأى حكمائها فى «عدالة» نظام المباريات الأوليمبية عندهم. ومضمون الرواية يؤكد بجلاء أن «أحكم المصريين» أنفسهم لم يكن لديهم علم من قبل بمثل هذا النوع من المباريات. أنظر أيضا Diodorus, I. 95.2. الذى يجعل السفارة فى عهد أماسيس (٥٧٠-٥٢٦ ق.م) .

إليس Elis بشبه جزيرة البيلوبونيس Peloponnesus . وفى هذا المعبد كانت تكرس تماثيل الفائزين فى المسابقات. وبلغ من أهمية هذه الألعاب فى حياة الإغريق أن صارت مدة السنوات الأربع التى تفصل بين دورة وأخرى وحدة زمنية متعارف عليها، أصطلح على تسميتها أوليمبياس Olympias (أوليمبياد Olympiad) ، وأستخدمها الإغريق فى تأريخ الأحداث وكتابة التاريخ وحساب السنين . وكان عام ٧٧٦ ق.م. يصادف عندهم العام الأول من الأوليمبياد الأول . (وهكذا فى عام ٣٩٣ بعد الميلاد ، عندما حرم الإمبراطور البيزنطى ثيودوسيوس Theodosius الأول إقامة الألعاب الأوليمبية بصفة نهائية، كان قد إنقضى من عمرها الرسمى ٢٩٣ أوليمبياد). وقبل إفتتاح دورة الألعاب بوقت كاف كان المنادون ينطلقون من أوليمبيا بالبشارة ليعلنوا الهدنة المقدسة على العالم الإغريقى. وطوال هذه الفترة كان الذاهبون إلى أوليمبيا يعتبرون مقدسين للرب زيوس وفى حمايته، فلا يجوز التعرض لهم بأذى، وحتى الحرب بين الدويلات الإغريقية كان لاينبغى أبداً أن تعلو فوق هذا الحق الدينى. ومنذ القرن الرابع ق.م أصبحت أوليمبيا ذاتها حرماً مقدساً غير قابل للإنتهاك ويحرم دخولها بسلاح. ولا تبدأ الألعاب إلا بعد تقديم عدد من القرابين وإقامة العديد من الشعائر والطقوس الدينية تكريماًللرب زيوس والرب كرونوس Kronos وأرباب آخرين، وكذلك إحياء لذكرى بيلوبس Pelops وأبطال أسطوريين آخرين . وفضلا عن هذا، ففى منتصف المهرجان كانت تأتى لحظة الذروة فى الإحتفال كله عند تقديم القربان الرئيسى الكبير للرب زيوس. أما الألعاب ذاتها ، فكانت كل لعبة لابد وأن تبدأ بقسم يؤديه المتبارون على مذبح الرب زيوس هوركيوس Zeus Horkios بأن لا يرتكبوا أى غش وأن تكون منافستهم نظيفة. واليوم الأول لإفتتاح الدورة رسمياً كان يستغرق

كله فى تقديم القرابين وإقامة الطقوس التمهيدية. ثم تقام المباريات على مدار الأيام الستة التالية. وكانت هذه تشمل مسابقات فى الجرى Dromos ومباريات فيالمصارعة Pale، والملاكمة Pygme ، والبنكراتيوم Pankration (وهى أعنف ألعاب المنازلات، إذا كانت تجمع ما بين الملاكمة والمصارعة) ، والبنتاثلون Pentathlon أو «المباراة الخمسية» (وكان المتبارون فيها يشتركون فى خمس مراحل على التوالى، تشمل القفز Halma ورمى القرص Diskos والجرى والمصارعة ، والمرحلة الخامسة من المباراة عادة ما كانت إما فى الملاكمة أو فى رمى الرمح akontisis). وفضلا عن هذا كان يقام سباق للخيل وآخر للعجلات .

أما الألعاب البوثية Pythia ، فهى أكثر الألعاب البانهللينية أهمية بعد الألعاب الأوليمبية، فقد كانت تقام فى دلفى تكريماً للرب أبوللون. ودلفى كانت المعقل الرئيسى لعبادته، وفيها كان وحيه المعروف الذى طالما كان له أكبر الأثر فى حياة الإغريق كافة، حتى أنهم كانوا يظنون أن دلفى هى مركز الأرض ونقطة الوسط منها، وفى زعمهم أن الحجر الشهير فيها، الذى أطلقوا عليه إسم «السرة» Omphalos - والذى كثيراً ما كانوا يصورون الرب أبوللون فى أعمالهم الفنية وهو جالس عليه - يشير إلى الموضع بالتحديد. وتقول أساطيرهم ان أبوللون نفسه هو الذى أنشأ تلك الألعاب تخليداً لذكرى إنتصاره على التنين الخرافى بوثونPython . فمنذ فترة مبكرة من التاريخ الإغريقى، كان هناك إحتفال يقام فى دلفى فى إرتباط وثيق مع وحى أبوللون ، تعقد فيه مسابقات موسيقية تتضمن غناء أنشودة (تعرف بالأنشودة البوثية Nomos Pythikos) فى مديح أبوللون، وذلك بمصاحبة عزف على القيثارة. وكان الإحتفال يقام كل ثمانى سنوات، ولكن فى عام ٥٨٢ ق.م. أعيد تنظيمه وأصبح مهرجان ألعــاب كبرى

يقام فى العام الثالث من كل أوليمبياد. والخلفية الدينية لهذه الألعاب تتجلى بوضوح منذ اللحظة الأولى للمهرجان. إذ يستهل بتقديم القرابين وإقامة موكب يشترك فيه ممثلو كل مدينة ، فيسلكون «الطريق المقدس» إلى معبد أبوللون حيث يضرعون للرب ويعلنون خضوعهم وتسليمهم له. وكانت الألعاب البوثية تمتاز بإهتمامها الخاص بالفنون ، فكانت تبدأ فعالياتها بمسابقات متنوعة فى الموسيقى والغناء وفى الشعر والتمثيل، ثم تتبع ذلك بمباريات رياضية فى الجرى والبنكراتيوم وسباق العربات .

أما الألعاب الإسثمية Isthmia، فكانت تقام إحتفاء برب البحر بوسيدون Poseidon فى ساحة معبده الكبير فى الإسثموس Isthmos بالقرب من كورنثا . وكانت تعقد كل عامين ، فى العام الثانى والعام الرابع من كل أوليمبياد. وإلى جانب المباريات الرياضية المتنوعة وسباق الخيول ،كانت فعاليات الحفل تشتمل على مسابقات فى الموسيقى والتمثيل ، كما كانت تنفرد بإقامة سباق للقوارب على صفحة مياه الخليج المجاور.

وأخيراً تأتى الألعاب النيمية Nemea ، وكانت تقام تكريماً للرب زيوس النيمى فى معبده فى وادى نيميا فى إقليم كليوناى Cleonae فى البيلوبونيس. ومثل الألعاب الإسثمية، كانت تعقد كل عامين : فى صيف العام الأول وفى شتاء العام الرابع من كل أوليمبياد. وكانت فعالياتها تشتمل على مسابقات فى الموسيقى إلى جانب المباريات الرياضية وسباق الخيول .

وإذا كان هذا هو حال الإحتفالات البانهللينية الأربعة فإن الإحتفالات الهللينية الأخرى الأقل أهمية ، وكذلك الإحتفالات ذات الطابع المحلى الخالص ، لم تكن تخلو أيضاً من إقامة المباريات

الرياضية على شرف الآلهة، وكانت كلها تحتفظ بطابعها الدينى أو شبه الدينى. فكانت الألعاب فى الغالب تقام فى أيام محددة فى ساحات المعابد، ولا تكتمل إلا بإقامة الحفلات الدينية . فالمباريات الرياضية والفنية العامة عند الإغريق كانت فى الحقيقة نوعاً من الطقوس ، مثل تقديم القرابين أو إقامة المواكب الدينية(١) .

ويمدنا هيرودوت بأقدم إشارة فى مصادرنا لمباريات رياضية من هذا النوع أقيمت فى مصر. فعندما زار وادى النيل فى حوالى منتصف القرن الخامس ق.م. ، خرج بإنطباع عام عن سائر المصريين أنهم يراعون تجنب إتخاذ عادات غيرهم من الشعوب. ولهذا لم يخف دهشته عندما شاهد ظاهرة فيها خروج واضح على هذا العرف، وتمثل فى رأيه، إستثناء صارخاً له. ففى مدينة خميس(٢) فى إقليم طيبة ، رأى هيرودوت معبداً زعم له محدثوه أنه لبرسيوس Perseus . وروى له أهل خميس كيف أن برسيوس كثيراً ما يتجلى لهم، وعند ظهوره تزدهر مصر كلها. ثم يمضى

---

(١) **The Oxford Classical Dictionary,** (second edition, Oxford, 1970), v. Olympic Games, Pythian Games; Isthmia; Nemean Games; Festivals; Zeus; Apollo; Poseidon; **Dictionnaire de la Civilisation Grecque,**(ed. par G. et M.F. Rachet, Paris, 1968). v. Olympique, (jeux); Pythiques (jeux); Isthmiques (jeux); Nemeens (jeux); Fetes.

(٢) «خميس» أو خم - مين (مقصورة المعبود مين)، هى بانوبوليس Panopolis (مدينة المعبود «بان») فى العصرين البطلمى والرومانى. وكان الإغريق قد شبهوا معبودهم «بان» بالإله المصرى «مين». وفى موقع خميس الآن مدينة أخميم .

هيرودوت فى روايته لما سمع ورأى فى خميس فيذكر لنا معلومات لها أهمية خاصة :

«وفيما يلى ما يفعلون - على الطريقة اليونانية - تكريماً له . يقيمون مباريات رياضية تشمل جميع ضروب المسابقات، ويقدمون جوائز من الأغنام والأردية والجلود. ولما سألتهم لماذا تعود برسيوس أن يتجلى لهم وحدهم، ولماذا يقيمون المباريات الرياضية مخالفين بذلك سائر المصريين، ردوا على بأن برسيوس أصله من مدينتهم... وأنه قد أمرهم بإقامة المباريات الرياضية من أجله»(١) .

وعبارات هيرودوت واضحة جلية فالمصريون عامة كانوا لا يقيمون المباريات الرياضية ، وإذا كان أهالى «خميس» بالتحديد يقيمون مثل هذه المباريات، فإن ذلك كان جرياً على النهج الإغريقى وفى مخالفة صريحة لسائر المصريين . كما أن الطابع الدينى للألعاب يتأكد فى كل عبارات الفصل من بدايته إلى نهايته. ويعتقد «لويد» Lloyd بأن المعلومات الميثولوجية التى يرصدها هيرودوت فى هذا الفصل والخاصة بأسطورة «برسيوس»، وكذلك ممارسات العبادة فى «خميس» ، لا تدع مجالا للشك فى أن مصدر معلوماته كانوا من الإغريق المولدين Mixellenes . فصحيح أن أنواعاً من المباريات الرياضية كانت معروفة فى مصر الفرعونية ، ولكن لا توجد أية إشارة فى مصادرنا لألعاب دينية منظمة على هذا النحو. ويبدو أن «خميس» كانت منطقة جذب للمستوطنين الإغريق (ربما لأنها كانت مركزاً هاماً لتجارة المنسوجات) فى وقت ما بين عهد بسماتيك الأول Psammetichus (٦٦٤-٦١٠ ق.م.) وبداية القرن الخامس ق.م.

---

(١) هيرودوت ، **الكتاب الثانى**، ٩١ (الترجمة العربية للدكتور محمد صقر خفاجه ، **هيرودوت يتحدث عن مصر**، مكتبة دارالقلم، القاهرة ١٩٦٦).

ويبدو كذلك أن هؤلاء المستوطنين تزوجوا من مصريات . وجلى مما ذكره هيرودوت أنهم كانوا يدركون علاقة برسيوس بمصر طبقاً للأسطورة الإغريقية المعروفة. وسرعان ما لاحظوا بعض التشابه بين هذا البطل وبين أحد أرباب «خميس»، ويظن «لويد» أنه الرب حورس. كان طبيعياً أن يوحى لهم هذا بأن «خميس» كانت موطن برسيوس . وأدى ذلك إلى إنشاء عبادة للبطل ، وكما هو معتاد أصبح للمباريات الرياضية دور بارز فيها ، ويبدو ان عبادة برسيوس هذه كانت تمارس فى إرتباط وثيق جداً مع عبادة الرب المصرى الذى شبه به لدرجة أن الناس من ذوى الأصول الإغريقية، وربما أيضاً بعض المصريين الخالصين، إعتبروها جزءاً لا يتجزأ من عبادة «حورس» نفسه . وعندما زار هيرودوت «خميس» كانت عملية التمصير قد إكتملت إلى حد أن السكان من ذوى الأصول الإغريقية كان يمكن أن يحسبهم الناس مصريين. فى حين كانوا مايزالون يقيمون الطقوس الدينية القديمة، وكانوا ما يزالون يستطيعون أن يتذكروا وأن يرووا لهيرودوت حكايات أسطورة برسيوس التى رواها لهم أجدادهم قبل ذلك بسنين طويلة(١) .

أما أول إشارة لمباريات رياضية تقام فى وادى النيل تحت رعاية الحاكم وبمبادرة منه ، فتعود إلى عام ٣٣٢ ق.م. ، عقب فتح

---

(١) A.B. Lloyd, 'Perseus and Chemmis (Herodotus II. 91)', **The Journal of Hellenic Studies,** LXXXIX(1969), pp. 81-86. Cf. W.Van Rengen, 'Les Jeux de Panopolis', **Chronique d'Egypte,** XLVI (1971), p. 137: "Il n' y a aucune raison de mettre en doute le temoignage d'Herodote sur l'existence de jeux de type grec a Chemmis en l'honneur de Persee."

الإسكندر الأكبر لمصر. فحسبما يروى لنا أريانوس ، لم يكتف الإسكندر بتقديم القرابين للأرباب المصرية، وعلى وجه الخصوص «أبيس» Apis ، الفحل المقدس فى منف، وإنما أقام كذلك حفل ألعاب على النهج الإغريقى تكريماً لها، إشتمل على مسابقات رياضية وأدبية إشترك فيها أشهر مشاهير الإغريق فى الفنون المختلفة الذين حضروا إلى مصر لهذا الغرض(١) . غير أن الإسكندر لم ينشىء فى تلك المناسبة ألعاباً دائمة تعقد بصورة دورية وفى مواعيد محددة على نمط الألعاب الهللينية، فلم تشهد منف فيما نعلم مهرجانات ألعاب أخرى مماثلة لسنوات طويلة بعد ذلك.

وإذا كانت الهرجانات الرياضية والفنية تتم فى إطار دينى، فإنها، نظراً لأهميتها ، كانت دائماً عرضة لأن تستغل لتحقيق أغراض شخصية أو أهداف سياسية أو مصالح إقتصادية، فمهرجانات الألعاب كانت دائماً مناسبات هامة، ليس فقط لعروض الألعاب التى تقام فيها، وإنما أيضاً لأنها مناسبات تجتمع فيها وتختلط جماهير غفيرة من بقاع العالم الإغريقى المختلفة. ومثل هذه التجمعات كانت فرصاً طبيعية للتجارة وعقد الصفقات، فلا عجب أن الكتاب الرومان كانوا يصفون مهرجان الألعاب الأولمبية بأنه دورة «سوق أوليمبيا» Mercatus Olympicus(٢) . كما أن رجال السياسة الطوحين، أمثال الكيبياديس Alcibiades (٤٥٠ - ٤٠٤ ق.م.)، سعوا إلى تحقيق مآربهم والفوز بشعبية بين مواطنيهم عن طريق عروضهم الباهرة فى

---

(١) Arrian, **The Campaigns of Alexander,** III, I. 4
(ما لم ينص على غير ذلك، فإن جميع الإشارات إلى كتب التراث اليونانى والرومانى تعتمد على « طبعة لويب » **The Loeb Classical Library**).

(٢) Gardiner, **AAW,** p. 44 .

أوليمبيا(١) . كما أن المفكرين السياسيين الإغريق وجدوا فى مهرجانات الألعاب الأوليمبية منبراً عظيماً لنشر أفكارهم والترويج لها.بل أن قضية محورية فى تاريخ الإغريق والعالم المتحضر القديم، ونعنى بها قضية بعث روح الوحدة القومية الإغريقية فى مواجهة الإمبراطورية الفارسية، وجدت الدعوة لها أول مرة على نطاق واسع أثناء إحتفالات الألعاب الأوليمبية عام ٤٠٨ ق.م. عندما ناشد الفيلسوف السفسطائى جورجياس Gorgias (٤٨٣ - ٣٧٦ ق.م.) الإغريق أن ينبذوا خلافاتهم وأن يتوحدوا ضد عدوهم المشترك . وفى إحتفالات عام ٣٨٤ ق.م. أعاد لوسياس Lysias (٤٥٩ - ٣٨٠ ق.م.) إثارة القضية مرة أخرى. وفى إحتفالات الدورة الأوليمبية التالية (٣٨٠ ق.م.) نشر إيسوكراتيس Isocrates (٤٣٦ - ٣٣٨ ق.م.) خطابه المعروف (Panegyricus) الذى تغنى فيه بأمجاد أثينا ودعا جميع الإغريق إلى ضم الصفوف من ورائها بهدف شن حرب مقدسة على الإمبراطورية الفارسية. وعندما أثبتت الأيام والأحداث أن أثينا، وإن كانت ينبوع الفكر الإغريقى، لم تكن فى الحقيقة مؤهلة لتوحيد الإغريق فى مثل هذا المشروع القومى الكبير، لم ييأس إيسوكراتيس من تحقيق حلمه. وفى عام ٣٤٦ ق.م. عاد المفكر المخضرم إلى أوليمبيا وهو فى سن التسعين، وأذاع هناك أهم أعماله (Philippus) ، ذلك الخطاب الشهير إلى فيليب الثانى، والذى دعا فيه الملك المقدونى إلى قيادة الإغريق فى الحرب المقدسة ضد الفرس. وبهذا الخطاب زود إيسوكراتيس، دون أن يدرى، الملك المقدونى بأقوى مادة دعائية له. فمنذ ذلك الوقت حرص فليب الثانى

---

(١) Plutarch, **Alcibiades,** 11-12.

(وابنه الأسكندر الأكبر من بعده) على أن يلبس طموحاته وأطماعه الملكية المقدونية ثوب القومية الإغريقية(١) .

ولا مراء فى أن ظهور مقدونيا بوصفها الدولة المهيمنة فى عالم بحر إيجة قد هدد إستقلال المدينة الدولة الإغريقية، وربما كان من المتوقع تبعاً لذلك أن تفقد الإحتفالات الرياضية أهميتها ومغزاها السابقين. ولكن النتيجة كانت على خلاف ذلك إلى حد بعيد . ذلك أن فيليب الثانى وإبنه الإسكندر الأكبر من بعده، أدركا قيمة الإحتفالات الرياضية الشعبية فى ترويج سياساتهما، فعمدا إلى تشجيعها ورعايتها وإستغلالها لتحقيق مقاصدهما. وقد أظهر فيليب الثانى إهتماماً كبيراً بأوليمبيا منذ فترة مبكرة من حياته. ففى عام ٣٥٦ ق.م. فاز شخصياً بنصر فى سباق الخيول، وفى مناسبتين تاليتين فاز فى سباق للعربات، وأحيا ذكرى إنتصاراته الأوليمبية هذه بأن صور عربته على عملته(٢) . وفى دلفى جعل فيليب من نفسه رئيساً للألعاب البوثية فى دورة عام ٣٤٦ ق.م.، بعد أن كان قد أعان الدلفيين فى «الحرب المقدسة»(٣) . وإهتمامه بهذا النوع من

(١) P. Green, **Alexander of Macedon,** (Penguin Books, 1974), pp. 47-50.

(٢) Plutarch, **Alexander,** 4, Green **AM,** pp. 2-3 .

(٣) جذور هذه الحرب قديمة ، إذا ترجع إلى أوائل القرن السادس ق.م. ولكن فى عام ٣٥٦ ق.م. عادت فإشتعلت من جديد عندما عمدت فوكيس Phocis إلى إستعادة حقها السابق فى السيطرة على دلفى، بل واستباحت لنفسها الثروات الهائلة المكدسة فى معبد وحى أبوللون، وبنت قوة حربية كبيرة من المرتزقة أرهبت بها جيرانها، الأمر الذى أفضى إلى صدامات عنيفة وتحالفات متشابكة اشتركت فيها مدن إغريقية عديدة. وسنحت الفرصة أمام

النشاطات الإنسانية دفعه إلى أن ينشيء فى مقدونيا ذاتها مهرجانات ألعاب على نمط الألعاب الأوليمبية فى آيجاىAegae وفى ديون Dion . وبعد إنتصاره على الإغريق فى موقعة خايرونيا (٣٣٨ ق.م.)، شرع فى عام ٣٣٧ ق.م. فى بناء معبد الفيليبيون Philippeion فى أوليمبيا، وهو معبد جميل صغير من الرخام، أكمله إبنه الإسكندر الأكبر، وكان يضم تماثيل من العاج والذهب لشخصيهما ولأفراد آخرين من أسرتهما(١) أما الإسكندر الأكبر فلم يعلن عن نفسه مثل أبيه بإرسال خيوله وعرباته لتشترك فى المباريات الأوليمبية، ناهيك عن أن يشارك بنفسه فى الألعاب. والقصة المعروفة التى يرويها عنه بلوتارخ تقول أنه عندما سأله بعض أصدقائه إن كان يوافق على الدخول فى سباق للجرى، إذ كان معروفاًعنه سرعة القدمين، أجابهم: «نعم ، إذا كان منافسونى ملوكاً»(٢) . غير أن الإسكندر كان يدرك تماماً الأهمية السياسية والإجتماعية لمهرجانات الألعاب ، وكان يعرف كيف يستغلها إلى أبعد حد. فقد اعتبر أوليمبيا بمثابة المركز الإعلامى الرئيسى فى العالم الإغريقى. فهناك درج على نشر التقارير الخاصة بحملته وإنتصاراته فى الشرق، والتى كانت تدون فى سجلات أوليمبيا الرسمية . وإلى هناك أرسل مبعوثه الخاص نيكانورNicanor (ابن أرسطو بالتبنى) فى عام ٣٢٤ ق.م. لكى يقـرأ على الجماهيـر

مقدونيا للتدخل خاصة عندما طلبت «طيبة» العون من فيليب ضد الفوكيين . وفى عام ٣٤٦ ق.م. تمكن فيليب من سحق قوات فوكيس وتأمين إستقلال دلفى، وتصادف أن كان العام نفسه موعد دورة ألعاب بوثية جديدة. فكافأ الدلفيون نصيرهم بإنتخابه رئيساً للدورة، فى الغالب بإيعاز منه هو نفسه.

(١) Green, **AM,** p. 81 .

(٢) Plutarch, **Alexander,** 4, Green, **AM,** pp. 56, 85.

المحتشدة فى الإحتفال مرسومين ملكيين خطيرين، أحدهما كان المرسوم الذى ألزم فيه المدن الإغريقية بإعادة المنفيين السياسيين من مواطنيها، والمرسوم الآخر كان يتعلق بالدعوة إلى الإعتراف بألوهيته. ويقال أن عشرين ألفاً من المنفيين السياسيين كانوا حاضرين، وهو رقم يعطينا فكرة عن حجم التجمع البشرى فى مثل هذه المهرجانات(١) ولا شك أن الاسكندر الأكبر عندما أقام الإحتفالات الرياضية فى منف تكريماً للآلهة إنما كان فى الحقيقة يهدف، فى أقل القليل، إلى الدعاية لمنجزاته وإنتصاراته وترويج أنباء فتحه لوادى النيل، فضلا عن إضفاء لمسة من البهجة على تلك المناسبة حتى بالنسبة لأهالى العاصمة المصرية ، منف .

* * *

كانت اللياقة البدنية عنصراً أساسياً فى حياة الإغريق. وفى العصور الإغريقية الباكرة كانت ضرورة من الضروريات الأولية لتحقيق الأهداف الحربية ، فهى فى الحقيقة كانت من أساسيات الإستعداد الحربى. ولهذا درج الإغريق على إرسال أولادهم إلى معلم رياضى مختص بالتدريبات البدنية يسمى بايدوتريبيس Paidotribes، وذلك، كما يقول أفلاطون ، حتى يمكن لأجسادهم أن تخدم العقل الفاضل بصورة أفضل، وحتى لا يدفعهم الضعف الجسدى إلى الجبن فى الحرب أو فى أى مناسبة أخرى(٢). فاللياقة البدنية كانت عند الإغريق وسيلة جوهرية تساعد على تنمية روح الشجاعة.

---

(١) Green, **AM,** pp. 451, 462; E.N. Gardiner, **Olympia, its History and Remains** (Oxford, 1925), pp. 129-130.

(٢) Plato, **Protagoras,** 326 b-c.

فمنذ أن يبدأ الطفل الإغريقى تعليمه فى حوالى سن السابعة كان يقضى معظم يومه فى البالايسترا ، ثم فى الجومناسيوم حتى يبلغ سن الرجولة، وفى كثير من الأحيان كان يستمر فى مزاولة تدريبات حرة لسنوات أخرى بعد ذلك. والبالايسترا Palaestra كانت على ما يبدو أسبق فى نشأتها، وهى فى جوهرها معهد للمصارعة يتكون من بناء بسيط منخفض يحتوى بصفة أساسية على ساحة تدريب مكشوفة يحيط بها عدد من الحجرات لخلع الملابس وللإغتسال. أما الجومناسيوم فقد بدأ ظهوره خلال القرن الخامس ق.م. ومع بداية القرن الرابع ق.م. كانت جذوره قد تعمقت واكتسبت أهمية جوهرية فى حياة الإغريق. وهو معهد أكبر كثيراً من البالايسترا، وفى الحقيقة كان يضم بداخله بالايسترا ضمن ما كان يشتمل عليه من تسهيلات. وكان يستخدم بصفة رئيسية لتدريب الفتيان Epheboi . ولكن كان يمكن للرياضيين أيضاً أن يتدربوا فيه إستعداداً لأحتفالات الألعاب العامة، كما كان بوسع الرجال من جميع الأعمار أن يمارسوا التدريب الذى يناسبهم. وفى جميع الأحوال كان الجومناسيوم الإغريقى التقليدى ساحة رياضية فى المقام الأول ، وظل كذلك طوال حقبة ما قبل العصر الهللينستى. وبسبب حجمه وحجم النفقات التى كان يتطلبها كانت الدولة تموله، وبالتالى كانت تسيطر عليه، غير أن هذا لم يمنع ظهور جومناسيا خاصة، أصغر حجما، يمتلكها أفراد .ويرأس الجومناسيوم الجومناسيارخوس Gymnasiarchos، ومنذ القرن الرابع ق.م. كان يساعده الكوسميتيس Kosmetes ، وهو مسئول شئون التعليم. أما التدريب الفعلى فكان يقوم عليه البايدوتريبيس (مدرب الصبية)، وكان يتولى تدريب الفتيان Epheboi الجومناستيس Gymnastes ، وهو مدرب المصارعة، وكان فى الغالب ملاكماً أو مصارعاً متقاعداً. وأبرز معالم الجومناسيوم كان

البارادروميس Paradromis ، وهو مجاز مكشوف مجهز لسباق الجرى، وفى بعض الجومناسيا كان ينشأ مجاز آخر معمد ومسقوف يعرف بإسم كسوستوس Xystos . أما الأبودوتيريون Apodyterion ، فكانت غرفة خلع الملابس ومخزن الأشياء الضرورية (مثل الأدوات الرياضية المختلفة وجرار الزيت)، وكانت تقع عند المدخل. وكل الغرف الملحقة الأخرى، كانت تقوم حول الفناء الأوسط الذى تغطى أرضه رمال ناعمة ، حيث تجرى التمرينات الأساسية. وكان المتدرب، سواء كان يتدرب عارياً تماماً (كلمة جومنوس Gymnos اليونانية التى أشتقت منها كلمة جومناسيوم تعنى «عار»، أو كان يكتفى بإرتداء مئزر، يستخدم الزيت ليس فقط للتدليك وإنما أيضاً للتنظيف العام للجلد. وبعد التمرين كان المتدرب يأخذ حماماً بارداً فى حمام سباحة(١) .

وما لبثت الجومناسيا أن حظيت بشعبية كبيرة ، فكان الأباء يحاولون أن يوفروا لأولادهم مثل هذا التدريب حيثما كان ذلك ممكناً. والتمرينات كانت فى بعض الأحيان تتم فى شكل نشاطات رياضية جماعية ، ولكنها فى الغالب كانت تمرينات فردية . وكان المدربون يتحركون هنا وهناك بين المتدربين يشرحون بالحركة والتمثيل مختلف طرق الإمساك بالخصم أو طرحه أرضاً فى المصارعة، أو المهارات المختلفة فى النشاطات الرياضية الأخرى ، مثل القفز الطويل ورمى الرمح ورمى القرص، وربما كانت تتضمن أيضاً السباحة ومختلف أنواع الرياضة المائية. وبدهى أن الصحة كانت تعتبر مسألة ذات أهمية خاصة. ولهذا كانت تغرس فى المتدربين مفاهيم الإعتدال فى الأكل والشراب. ذلك أن مفهوم الإعتدال فى كل

---

(١) Delorme, **Gymnasion**, pp. 19-30.

شيء كان مثلا أعلى فيما يتعلق بالجسد تماماً مثلما كان أمره فى الحياتين الاجتماعية والسياسية.

ومع نهاية القرن الخامس ق.م. وبداية القرن الرابع ق.م. تطورت الجومناسيا فى بلاد الإغريق وأصبحت مؤسسات فى غاية الأهمية، بل أصبحت من أبرز ملامح الحضارة الإغريقية. فكان الرجال يجتمعون هناك لمشاهدة الصبية فى تدريباتهم. وقد أدى هذا إلى تطوير جديد فى الجومناسيوم، فأصبح يشتمل على مكان يوفز لهؤلاء الرجال الراحة ويقدم لهم وسائل التسلية. وبالتدريج أصبح المعهد الرياضى أيضاً منتدى يؤمه الكبار لقضاء وقت الفراغ والترويح. وفى غضون القرن الرابع ق.م وجد المعلمون والفلاسفة فى الجومناسيا أنسب الأماكن لإنشاء مدارسهم بجوارها.

ولم تكن تدريبات الجومناسيوم مرتبطة فى الأصل بالخدمة العسكرية، ولكن فى القرن الخامس ق.م. صارت الجومناسيا الأماكن الطبيعية التى يمكن أن تقوم فيها مثل هذه الإستعدادات. وكانت المدينة الدولة الإغريقية، مثلما كان الحال فى أثينا، تلزم مواطنيها أن يتلقوا تدريباً عسكرياً. وهكذا فى سن الثامنة عشرة كان الشاب المواطن يصبح من الوجهة القانونية إفيبوس Ephebos ، وفى هذه السن يبدأ الشبان فى تلقى تدريبات جومناسية جادة ويبدأون فى إتخاذ الخطوات اللازمة للحصول على مواطنة مدينتهم(١).

* * *

من بين كل خلفاء الإسكندر الأكبر كان بطلميوس بن لاجوس الوحيد الذى ترك أى أثر فى أوليمبيا . وكان بوسانياس Pausanias

(١) Gardiner, **AAW**, pp. 72-90 .

لا يزال فى القرن الثانى الميلادى يستطيع أن يشاهد التمثال الذى أقامه بطلميوس لنفسه هناك وأن يقرأ النقش المسجل عليه والذى يصف فيه بطلميوس نفسه بأنه مقدونى (١) وكان بن لاجوس يدرك أهمية المشاركة فى مهرجانات الألعاب الأوليمبية ، فكان يرسل فرقاً رياضية تمثله فيها(٢) .

والميل إلى تكريم بعض الأشخاص تكريماً يتجاوز التكريم الإنسانى العادى إلى حد إضفاء صفات البطولة الخارقة أو حتى الألوهية الصريحة، كان إحدى السمات الأصيلة فى الشخصية الإغريقية. فمنذ فترة مبكرة من التاريخ الإغريقى نصادف أشخاصاً معتبرين فى مجتمعاتهم، رفعهم مواطنوهم فوق مستوى البشر . وبمرور الوقت إمتدت هذه التشريفات إلى الحكام والفاتحين المظفرين. وكما يظهر من الأمثلة المبكرة لعبادة البشر، فإن الدافع الأصلى لهذا النوع من التكريم لم يكن على الأرجح الإحساس بالخضوع السياسى، وإنما كان نزعة أصيلة للتعبير عن الإعجاب والإمتنان بهذه الطريقة. غير أن هذه النزعة كانت دائماً عرضة لإستغلالها وتسخيرها لتحقيق أغراض سياسية وشخصية. وهكذا فإن الإسكندر الأكبر عندما طالب مدن عصبة كورنثا بتأليهه، لم يكن فى الحقيقة يسلك طريقاً جديدة تماماً ، وإنما كان يحاول أن يستخدم تياراً موجوداً بالفعل فى حياة المدينة الإغريقية بهدف تحقيق مقاصد سياسية(٣) .

---

(١) Pausanias, VI. iii. 1.

(٢) Gardiner, **Olympia,** p. 140 .

(٣) P.M. Fraser, **Ptolemaic Alexandria** (Oxford, 1972), I, pp. 213, 294; II, pp.362 n. 197, 455 n. 834.

وجرياً على هذه السياسة حرص ملوك البطالمة ، خاصة منذ عهد بطلميوس الثانى فيلادلفوس (٢٨٢ - ٢٤٦ق.م.) ، على إقامة عبادة عامة لهم . وطبيعى أن يكون من بين وسائلهم لترويج هذه العبادة والدعاية لها، إقامة الإحتفالات العامة تكريماً للمؤلهين من أعضاء البيت المالك. وكانت هذه الإحتفالات تستمد أسماءها من أسماء أفراد الأسرة المالكة الذين أنشئت تلك الإحتفالات لتكريمهم. وغنى عن البيان أنه كان من بين مستلزمات هذه الإحتفالات تنظيم مباريات رياضية . ومع أن معلوماتنا محدودة فيما يتعلق بتنظيم هذه الإحتفالات، إلا أنها تكفى لنتبين أن المباريات كانت من النمط الإغريقى المعتاد فى الإحتفالات البانهللينية، على الرغم من أنها كانت لتكريم شخص أو آخر من البيت المالك وليس إلها أوليمبيا. ومعظم شواهدنا ترجع إلى القرن الثالث ق.م. وتتعلق ببطلميوس الأول سوتير Soter وإبنته أرسينوى Arsinoe الثانية، أخت وزوجة بطلميوس الثانى فيلادلفوس، ومنها نتبين بوضوح أنه كانت توجد إحتفالات وألعاب منفصلة، على الأقل لبعض أعضاء الأسرة المالكة ، تقابل العبادات المختلفة والمعابد الخاصة بكل منهم. وهذه الإحتفالات كانت تقام فى الإستاد الرئيس فى الإسكندرية، وكانت تشتمل على مباريات رياضية وموسيقية ومسابقات أخرى[١] .

وهناك ظاهرة عامة فى العصر الهللينستى فى كل البلاد التى إنتشرت فيها مظاهر الحضارة الإغريقية، وهى الميل إلى رفع شأن وسمعة الألعاب المحلية وذلك عن طريق مساواتها فى المكانة بواحدة أو أكثر من الألعاب البانهللينية الكبرى، فتوصف بأنها«إيسوليمبية» Isolympios، أى مساوية للألعاب الأوليمبية،أو «إيسوبوثية» Isopythios،

---

(١) Fraser, **PA**, I, p. 230; II, p.379 note 320.

أى مساوية للألعاب البوثية، أو «إيسونيمية»Isonemeos، أى مساوية للألعاب النيمية. وفى الإسكندرية نجد أن أكثر الألعاب أهمية كانت عادة «خمسية» Penteteris ، يقع الإحتفال بها كل خامس عام، فيفصل بين دورة وأخرى أوليمبياد كامل، مثلها مثل الألعاب الأوليمبية، بل وفى نفس السنوات الأوليمبية، وكان ينظر إليها على أنها «إيسوليمبية». وفى المواكب المقدسة التى كانت تقام ضمن فعاليات مهرجانات الإسكندرية، كان يجسد هذه الألعاب البنتيتيريس (الخمسية) فتاة طويلة القامة جميلة الملامح تمسك فى إحدى يديها إكليلا وفى اليد الأخرى غصن النخيل وتسير بجوار شاب يمثل «إنياوتوس» ، أى «العام» Eniautos. وهذا الرمز يعبر بلا شك عن الأهمية التى كان القائمون على تنظيم المهرجانات يعلقونها على المكانة الأوليمبية للألعاب. وكان يدعى لحضور مثل هذه المهرجانات ممثلون من أقاليم الإمبراطورية البطلمية ومن أماكن أخرى من آسيا الصغرى ومن بلاد الإغريق وجزر بحر إيجة(١) .

لا توجد لدينا شواهد على ألعاب لتكريم مؤسس الإسكندرية ، الأسكندر الأكبر، الذى أنشأ بطلميوس الأول عبادة عامة له كانت فى الحقيقة البداية التى تولدت عنها «عبادة الأسرة» فى دولة البطالمة. وأقدم الألعاب المعروفة لنا (وان كان هذا لايعنى بالضرورة أنها كانت أول الألعاب التى أقيمت فى الإسكندرية) كانت ألعاب البطوليمايا Ptolemaieia التى أنشأها فيلادلفوس فى أوائل عهده (فى حوالى عام ٢٨٠ ق.م. أو ربما فى عام ٢٧٩ / ٢٧٨ ق.م.) تكريماً لأبيه. وكان فيلادلفوس قد أقام عبادة لأبيه وكرس لها معبداً تمارس فيه شعائرها،

---

(١) Fraser, **PA**, I. pp. 230-231; II, pp.380 note 322, 381 note 335.

وهو معبد البطوليمايون Ptolemaieion . وفى هذه المناسبة وجه الدعوة إلى مجتمعات إغريقية فى بلاد الإغريق الرئيسية وفى جزر بحر إيجه لإرسال ممثلين عنها للمشاركة فى الإحتفالات. وقد حفظت لنا الصدفة رد عصبة أهل الجزر Nesiotae (وهى إتحاد جزر الكوكلاديس Cyclades الذى كان قد أنضوى حديثاً تحت السيادة البطلمية) على هذه الدعوة فى شكل مرسوم صدر عنها فى هذه المناسبة. والمرسوم يسجل بالتفصيل مناسبة إنشاء هذه الألعاب. فنعرف منه أن فيلادلفوس، عن طريق مبعوثيه، كان قد كتب إلى الأعضاء المكونين للعصبة يطلب منهم إرسال ممثلين عنهم إلى ساموس Samos ، وذلك للتداول «بخصوص القربان والسفراءالمقدسين Theoroi ، والمهرجان الذى يعتزم الملك بطلميوس إنشاءه بمكانة إيسوليمبيه فى الإسكندرية تكريماً لأبيه» ، وأن مندوبى العصبة، بعد ديباجة طويلة مهذبة ومتقنة الصياغة ، قد أقروا بالقربان وقرروا أن يرسلوا فى كل مرة سفراء مقدسين بحسب أوامر الملك ، وأعلنوا إعترافهم بمهرجان الألعاب المزمع إقامته بوصف كونه مساوياً فى المكانة لمهرجان الألعاب الأوليمبية ، وبأن جوائز الفائزين فى المسابقات تكون مثل تلك التى تقدم للفائزين فى الألعاب الأوليمبية. وأخيراً فإن مندوبى العصبة وافقوا على إنتخاب ثلاث سفراء مقدسين بكون من أولى واجباتهم عند وصولهم إلى الإسكندرية تقديم القرابين للإله بطلميوس سوتير نيابة عن العصبة. ومن المرسوم يبين لنا أن ألعاب البطوليمايا هذه كانت تشتمل على مباريات رياضية ومسابقات موسيقية وفروسية متنوعة. ولم تكن هذه الألعاب هى الوحيدة التى أنشأها البطالمة ، ولكنها كانت أهمها بلا ريب ، فهى وحدها فيما نعلم التى كانت تتمتع بمكانة إيسوليمبية، وكان يكفى الإشارة إليها فى بعض الوثائق البطلمية بكلمة «بنتيتيريس» Penteteris (الخمسية)

دون حاجة إلى ذكر إسمها. وعلى الرغم من مبدأ العبادة الفردية الذى ميز عبادة الحاكم فى مصر البطلمية، فإن إحتفال البطوليمايا إمتد بمرور الوقت حتى شمل كل ملوك البطالمة(١) .

لم يكن أمراً يسيراً بأى حال فى العصر الهللينستى أن ترفع ألعاب محلية قديمة إلى مكانة الألعاب البانهللينية الأربعة الكبرى، أو أن تنشأ ألعاب جديدة بمكانة مساوية لها. فلم يكن فى وسع ملوك البطالمة، مثلما لم يكن فى مقدور غيرهم من حكام العالم الهللينستى أن يتخذوا إجراء من هذا القبيل من تلقاء أنفسهم وإن رغبوا فى ذلك. فجوهر الأمر كله كان فى أن تلقى الألعاب إعترافاً دولياً بأنها جديرة بالمكانة المقدسة، وعلى وجه الخصوص كان لابد أن تقبل مدن العالم الإغريقى المختلفة الإلتزام بأن تمنح الفائزين فى مسابقات الألعاب المعنية نفس الإمتيازات التى كان يحصل عليها الفائزون فى الألعاب البانهللينية. ولهذا فقد كانت الطريقة الوحيدة لإنشاء ألعاب مقدسة جديدة هى إرسال سفارات إلى كل ملوك وإتحادات ومدن العالم الإغريقى إبتغاء الحصول على إجماع دولى بالموافقة. وجلى أن مثل هذا الإجراء كان شديد التعقيد ويستغرق وقتاً طويلا ويشكل عبئاً ثقيلا، وقد لا يسفر آخر الأمر عن نتيجة إيجابية. فلا عجب أنه فى ظل هذه الظروف لم تنشأ العاب مقدسة جديدة كثيرة فى العالم الهللينستى(٢) ، وفى مصر أكتفى البطالمة بألعاب البطوليمايا. غير أنهم أنشأوا ألعاباً أخرى محلية الطابع، لعل أهمها ما كان يرتبط

---

(١) Fraser, **PA**, pp. 218, 224, 231- 232; II, pp.372-373, 379-381.

(٢) A.H.M. Jones, **The Greek City from Alexander to Justinian** (Oxford, 1940, 1971), p. 232.

بإحتفالات الأرسينويا Arsinoeia التى أنشأها بطلميوس الثانى إجلالا لزوجته وشقيقته أرسينوى الثانية بعد وفاتها بوصف كونها «الربة أرسينوى فيلادلفوس». ولدينا شواهد على أن فعاليات الإحتفال كانت تقام فى مدينتى الإسكندرية والفيوم فى شهرميسورى (يولية/ أغسطس) من كل عام(١) . والجدير بالملاحظة فى هذا السياق أن مصادرنا نادراً ما تشير إلى مهرجانات ألعاب أقيمت فى مصر فى عصر البطالمة تكريماً لأرباب الأوليمب أو للآلهة المصرية. فمما لا شك فيه أن الإحتفالات العامة المرتبطة بالعبادات الملكية المختلفة كانت تستأثر بجل الإهتمام على المستويين الرسمى والشعبى ، فلا عجب أنها كانت تشكل المعالم البارزة للحياة الدينية فى عاصمة البطالمة(٢) , ومع ذلك فإن الشاعر ثيوكريتوس Theocritus (الذى عاش فى النصف الأول من القرن الثالث ق.م.) يخبـرنا بوضـوح أنه منذ عصر بطلميوس الثانى كان يقـام سـنوياً فى مدينة الإسكندرية مهرجان ألعاب Agona تحت رعاية الملك تكريمـاً للـرب

---

(١) P. Col. Zen. 56; P. Cairo Zen. 59096.

(جميع الإختصارات المستخدمة فى الإشارة إلى الوثائق اليونانية المنشورة تتبع النهج الشائع بين الدارسين - انظر :

M. David and B. A. Van Groningen, **Papyrological Primer** (Leyden, 4th edition, 1965), pp. 6-13; E.G. Turner, **Greek Papyri** (Oxford, 1968), Chapter IX (pp. 154-171).);

Fraser, **PA**, I, pp. 229-232.

(٢) Fraser, **PA**, I, p. 288.

ديونيسـوس (١) . ومن مصدر أخر نعرف أن ضاحية اليوسيس Eleusis الواقعة شرقى الإسكندرية كانت تحتضن كل عام إحتفالا Panegyris إجلالا للربة ديميتر Demeter ، تنظم فيه مسابقات موسيقية ومسرحية، ولعل فعالياته كانت تشتمل كذلك على مباريات رياضية(٢) .

* * *

كان طبيعياً أن يحمل المهاجرون الإغريق معهم فكرة الجومناسيوم إلى مراكز إستيطانهم الجديدة خارج الحدود الجغرافية للعالم الإغريقى. حيث إحتفظوا لهذه المؤسسات الإجتماعية فى حياتهم بنفس الأهمية التى كانت لها فى موطنهم الأصلى. وقبل عصر الإسكندر الأكبر كانت مدينة نقراطيس المركز الرئيسى للحياة الإغريقية فى وادى النيل، ومن المحتمل جداً أنها كانت تضم جومناسيوم لتلبية إحتياجات سكانها من الإغريق. وفى جميع الأحوال ليس هناك من شك فى أنها كانت تضم على الأقل بالايسترا واحدة. ففى أواخر القرن الماضى عثر العلماء بين آثار المدينة على لوحة من الرخام الأبيض تحمل نقش إهداء باللغة اليونانية للرب أبوللون ، يرجع تاريخه أغلب الظن إلى اوائل القـرن الرابـع ق.م.،

---

(١) Theocritus, XVII.112-114.

منذ فترة مبكرة من تاريخهم أرجع البطالمة نسبهم إلى إبنى زيوس هرقل وديونيسوس، الأول فى خط الذكور والثانى فى خط الإناث فى سلسلة الأنساب. غير أن ديونيسوس احتل مكانة سامية خاصة فى مجمع آلهة البطالمة. انظر :

Fraser, **PA**, I, p. 203; II, p. 344 not 105.

(٢) Fraser, **PA**, I, pp. 200-201.

ولا بد أن هذه اللوحة كانت مثبتة على جدرا مبنى بالايسترا فى المدينة، إذ نقرأ عليها النص التالى :

«كليانيتوس Kleainetos بن أريستوثيميس Aristothemis (و) مياندريوس Meandrios بن ستراتونيديس Stratonides أوقفا هذه البالايسترا لأبوللون». (١) .

وفى عصر البطالمة تفشت ظاهرة بناء الجومناسيا فى مصر بالجهود الذاتية، بوصف كونها مؤسسات خاصة لا تتبع الدولة. وفيما نعلم فإن أقدم وثيقة تتعلق بالجومناسيا فى مصادر العصر البطلمى هى تلك التى نشرها جيرو Gueraud ضمن مجموعة بردى الشكاوى والإلتماسات(٢) فعلى الرغم من أن تاريخ تحريرها هو عام ٢٢١ ق.م. إلا أنها تشير إلى أمور وقعت قبل ذلك بسنوات طويلة .

وكاتب الشكوى هو أريستوماخوس Aristomachos ، مدير ممتلكات شخص يدعى بولوكليتوس Polycleitos فى قرية ساماريا Samaria فى إقليم الفيوم. ومن بين هذه الممتلكات يبرز بصفة خاصة جومناسيوم كان قد أنشأه ، على ما يبدو فى أواخر عهد بطلميوس الثانى فيلادلفوس، أخد أرباب الإقطاعات العسكرية، وأسمه أبوللودوروس Apollodoros ، ثم آلت ملكيته بطريق الميراث إلى بولوكليتوس. وبعد أن يذكر أريستوماخوس بإسهاب الإصلاحات التى أنجزت فى الجومناسيوم بفضل مساعيه الحميدة، يعرض شكواه ضد شخص يدعى داللوس Dallos وزوجته. ولا نعرف على وجه اليقين

---

(١) S.B. 355 : "Kleainetos Aristothemios, Maiandrios Stratonideo tem palaistren anethekan Apolloni". Cf. Delorme, **Gymnasion**, p. 90 with note 1.

(٢) P. Ent., 8.

ما أخذه عليهما، إذ أن هذا الجزء من الوثيقة غير كامل وأتلفته مادة لاصقة تلفاً شديداً. ولكن الناشر يظن أن داللوس وزوجته ربما إتخذا دون وجه حق سكناً دائماً لهما فى الجومناسيوم أو فى أحد المبانى الملحقة به. ولعل ما يؤيد هذا الظن أن أريستوماخوس يطلب فى شكواه طردهما ومعاقبتهما بغرامة مالية(١) .

كانت الجومناسيا أول الأمر مؤسسات خاصة، غير أنها كانت موضوع إهتمام ورعاية الحكومة البطلمية، وسرعان ما أكتسبت صفة شبه رسمية(٢) . وما من شك فى أن عبادة الأسرة الحاكمة قامت بدور هام فى هذا التحول. ويتكشف هذا بوضوح فيما نعرفه عن جومناسيوم ساماريا. إذا كان مؤسسه قد كرسه قبل وفاته للملك بطلميوس الثالث بورجيتيس الأول (٢٤٦ - ٢٢٢ ق.م.)، وسجل هذا فى نقش إهداء خاص أقامه فى صدر الرواق عند المدخل(٣) . وبالرغم من إستمرار ملكيته للجومناسيوم بعد هذا الإجراء، وإنتقال هذه الملكية إلى ورثته بعد وفاته، فإنه لم يعد فى واقع الأمر يملك سلطة التصرف الكاملة فيه، وإنما أصبح ملزماً هو وورثته من بعده بالرجوع إلى الدوائر الحكومية للحصول على إذن صريح قبل الشروع فى أى عمل يمس المنشأة. وهكذا نرى أريستوماخوس،

(١) O. Gueraud, **Enteyxeis: Requetes et plaintes adressees au roi d Egypte au III siecle avant J.C.** (Cairo, 1931-2), Vol. I, pp. 20-21.

(٢) Gueraud, Ibid., p. 21: "... les gymnses furent d`abord des fondations privees, mais vues d`un oeil tres favorable par le pouvoir central et vite revetues d`un caractere semi-officiel.

(٣) P. Ent. 8. 3-4.

بوصف كونه مدير ممتلكات بولوكليتوس، يكتب إلى الإستراتيجوس ملتمساً السماح له بالقيام ببعض أعمال الصيانة والإصلاحات اللازمة فى مبنى الجومناسيوم(١) .

وبوجه عام يبدو أن الجومناسيا كانت تنشأ ويتم التصرف عليها عن طريق الإكتتاب العام . وأوضح دليل على ذلك يأتى ليس من مصر ذاتها، وإنما من الممتلكات البطلمية فى ثيرا Thera ، حيث عثر العلماء عى نقش يسجل أنه قد تم إصلاح الجومناسيوم وصيانته بواسطة تبرعات من أفراد الحامية، وأن الملك بطلميوس (لعله بطلميوس الأول) أوقف عليه أراضى ملكية بحيث يخصص دخلها لمواجهة نفقات القرابين ومؤن الزيت(٢) . ومعظم الجومناسيا كانت أغلب الظن تحصل بنفس الطريقة من الملك أو من الأثرياء الجود على هبات يغطى دخلها جانبا من نفقات الصيانة والتشغيل ، بل أن المبادرة فى إنشاء الجومناسيا ذاتها كثيراً ما كانت تأتى من أفراد ينتمون إلى الطبقات الحاكمة وبعضهم كانوا يحملون لقب «الأصدقاء الأول» للملك (٣). أما الجومناسيوم الرئيسى فى الاسكندرية فقد

---

(١) P.Ent. 8. 10-11. Cf. Gueraud, op. cit.: "Le gymnase est, a ce point de vue, soumis au meme regime que les tissages et les sanctuaires, parce que l'education hellenique de la jeunesse concerne l'interet public tout comme l'industrie et la religion.

(٢) A.H.M. Jones, **The Cities of the Eastern Roman Provinces** (2nd edition, Oxford, 1971), pp. 308, 475-6 note 14.

(٣) Delorme, **Gymnasion**, pp. 199-201, 429.

الإسكندرية فقد كان مبنى هائلا، له رواق معمد يزيد طوله عن «أستديوم» (أكثر من ستمائة قدم)، وبلغ من روعته وبهائه أن عده سترابون أجمل مبانى المدينة جميعاً(١) ومن الصعب أن نتصور أن مثل هذا الجومناسيوم أمكن إنشاؤه أو تشغيله بدون تمويل ورعاية ملكية(٢) .

وفى هذه الجومناسيا كان أبناء المستوطنين الإغريق والمتأغرقين يتلقون التدريب البدنى والعقلى الإغريقى التقليدى. وإلى جانب هذا كانت الجومناسيا تزود السكان الإغريق والمتشبهين بهم بمظاهر الحضارة الإغريقية ، ولاسيما إقامة الأحتفالات الرياضية والموسيقية، فضلا عن الإشراف على تدريب الفتيان (الإفيبوى Epheboi) وتوفير التعليم الإغريقى الراقى لأبنائهم. وكانت الجومناسيا هامة فى حياة البالغين من الإغريق والمتشبهين بهم مثلما كانت هامة فى حياة أولادهم. فقد كان يجتمع فيها كل من تلقوا من قبل تعليماً جومناسيا إغريقياً ، فنشأت بذلك جماعات «رجال الجومناسيوم» hoi ek tou gymnasiou ، واتخذ أعضاؤها من الجومناسيوم مركزاً لنشاطاتهم الشخصية العقلية والترويحية ومكاناً للتسلية وتجديد الحيوية. ولهذا كان الجومناسيوم يلعب فى حياتهم

---

(١) Strabo, XVII. I. 10 : "Kalliston de to gymnasion, meixous e stadiaias echon tas stoas.,,

(٢) Fraser, **PA**, I, p. 29 : "The gymnasion was one of several in the city, but it was presumably the most important, and perhaps founded or supported by royal patronage, whereas the others were probably due to private initiative .,,

دور المنتدى الدائم وأصبح بالتالى مركزهم الإجتماعى الرئيسى. وكانت جماعات رجال الجومناسيوم الكبيرة تضم داخلها جماعات فرعية ذات أنماط مختلفة، أبرزها «رابطة الشبيبة»، أو ما كانت تعرف بإسم «هايريسيس» hairesis ، وكان ينتظم فيها خريجو سنوات بعينها من دفعات الإفيبوى، وكل منها كانت تسمى بإسم قائدها(١) .

ومنذ بداية نشأتها وإنتشارها فى مصر، لم تقم الجومناسيا أبداً على الروابط العرقية أو العصبيات القومية الضيقة، وإنما كانت دائماً تضم أمشاجاً من الإغريق وخليطاً متباين الأعراق من المتشبهين بهم والمنتسبين إلى ثقافتهم(٢) . ومع ذلك ، فمن خلال الجومناسيا

(١) M. Rostovtzeff, **The Social and Economic History of the Hellenistic World** (2nd impression, edited by P. M. Fraser, Oxtord, 1953), pp. 324, 1058-1060, 1395, 1588 note 23;

H. Henne, Decret des Membres d`un Gymnase d`Epoque Ptolemaique (Stele Graux), **Bulletin de l'Institut Francais d'Archeologie Orientale**, XXII (1923), pp. 193--201.

(٢) Henne, 'DMGEP', p. 201: "Pour l`acces au gymnase, on n`exigeait pas strictement le statut hellenique, mais seulement tout status plus ou moins assimile"; Rostovtzeff, **SEHHW**, p. 1060 : "IT is certain that hoi ek tou gymnasiou consisted exclusively of men of Greek education, though not exclusively of Greek nationality"; Delorme, **Gymnasion**, p. 427: "A cote des Grecs, les autres races... y ont penetre et ont meme fini par y occuper des postes de direction. ... ces indications permettent de croire a une importante participation des differentes nationalites installees en Egypte a la vie des gymnases. .... cette classe de Grecs et d`assimiles remplacait l`aristocrtie locale disparue.,,

والمنظمات الإجتماعية والرياضية التى كانت تنبثق منها وتدور فى فلكها، أخذت تتبلور بالتدريج من هذا المشيج طبقة أرستقراطية تمكنت من شغل الفراغ الذى تركته الإرستقراطية الوطنية القديمة التى كانت قد أندثرت(١) . وقد تميزت الأرستقراطية الجديدة بحضورها الواضح فى الحياة العامة، وبتشجيع من ملوك البطالمة جعلت من «المكانة الهللينية» قيمة إجتماعية عالية فى وادى النيل. فلا عجب أن رؤساء الجومناسيا فى الأقاليم كانوا شخصيات قيادية بارزة فى مجتمعاتهم المحلية(٢) . أما فى العاصمة، الإسكندرية، فالذين كانوا يشغلون منصب رئيس الجومناسيوم كانوا بالفعل من أقطاب القوم البارزين . ففى نقش يعود تاريخه إلى القرن الثانى ق.م. نجد سليل أسرة من أعيان الإسكندرية، يدعى لوكاريون Lycarion ، ويحمل اللقب الفخرى «قريب الملك» Syngenes ، وهو أسمى الألقاب الفخرية فى مصر البطلمية، يشغل منصب الجومناسيارخوس Gymnasiarchos ، رئيس الجومناسيوم ، فى المدينة . ومن بين قائمة المناصب التى شغلها من قبل فى سجل حياته العامة نجد منصب الديويكيتيس Dioiketes والإكسيجيتيس Exegetes «وقائد المدينة» epi tes poleos ، فضلا عن منصب أرخيجيرون archigeron فخرى kata teimen أى رئيس فخرى لمجلس الجيروسيا gerousia ، أى مجلس الشيوخ (ولعل المقصود هنا هو هيئة من الكبار لها علاقة بالجومناسيوم وليس مجلس محلى المدينة)(٣) وهذه كلها كانت من أعلى الوظائف المرموقة ، سـواء ما

---

(١) Delorme, **Gymnasion**, pp. 427-430.

(٢) F. Zucker, 'Gymnasiarchos Komes', **Aegyptus**, XI (1930/31), nos. 7, 9.

(٣) Fraser, **PA**, I, pp. 97, 105; : II, pp. 177 note 16, 193 note 94.

كان منها فى سلك وظائف الدولة أو من مناصب المدينة. وبوجه عام صار أعضاء الجومناسيا يشكلون جمعيات بالغة الأهمية فى مجتمع مصر البطلمية حتى أنها كانت تتبادل الرسائل مع الملك ذاته(١) .

ولا شك فى أن المكانة الإجتماعية والمستوى الإقتصادى الذى تمتع به أعضاء هذه الطبقة أعطاهم ثقلا سياسياً. وحتى نهاية القرن الثالث ق.م. على الأقل كان هذا الثقل السياسى يوظف على الدوام فى خدمة الأسرة المالكة والملك الجالس على العرش. ويبين من وثائق العصر أن ملوك البطالمة كانوا يتلقون عبادة خاصة فى الجومناسيا التى كانت فى الغالب تشتمل على محراب لممارسة طقوس تلك العبادة(٢) . وهكذا كانت الجومناسيا تقوم بدور بارز فى ترويج عبادة الأسرة الحاكمة فى جنبات الوادى .

كانت الجومناسيا مؤسسات تدار ذاتياً. والقائمون عليها معروفون لنا من الوثائق ، وكانت مدة خدمتهم سنوية ، ربما بالأنتخاب بواسطة الأعضاء ، «رجال الجومناسيوم»، الذين كانوا يصدرون قرارات يطلقون عليها «مراسيم».

وجلى من وصف فتروفيوس لمبنى الجومناسوم النموذجى ، أنه لم تطرأ على تصميم بنائه تغييرات جوهرية كثيرة نتيجة إنتشاره فى العالم الهللينستى. ومع ذلك فقد أدخلت عليه بالتدريج تحسينات عديدة. فالبالايسترا المكشوفة ظلت تقع فى الوسط، يحيط بها رواق كبير على شكل مربع أو مستطيل. وفى داخل ثلاثة أضلاع منه كانت تنفتح الإكسيدارى exhedrae ، وهى قاعات فسيحة مزودة بمقاعد، حيث كان يمكن للفلاسفة ومدرسى علم البيان وغيرهم من

---

(١) Delorme, **Gymnasion**, p. 199.

(٢) Delorme, **Gymnasion**, pp. 200, 220, 343.

الدارسين أن يجلسوا ويتناقشوا. أما الضلع الرابع فكان عادة يتوسطه من الداخل الإفيبيوم ephebeum ، وهو قاعة واسعة بها مقاعد للشباب، وعلى أحد جانبيه كانت تقع الكوريكيوم Coryceum ، حيث كان يمكن مزاولة التدريب الفردى على الملاكمة، ويليها الكونيستيريوم Conisterium حيث كان المتدربون يعفرون أجسامهم، ثم حوض الغطس البارد، وعلى الجانب الآخر كانت تقع غرفة التزييت elaethesium ، حيث كان الرياضيون يدلكون أجسامهم بالزيت. وبجوارها كان يقام جناح كامل للإغتسال باقسامه المختلفة. وكان هذا بلاشك بدعة هللينستية. فإلى جانب الحمام البارد أصبح هناك ترف حمام البخار والحمام الدافىء(١) وهذه الظاهرة تعكس بطبيعة االحال مفهوماً لم يعد يهتم بفكرة الإستعداد الحربى، وإنما بات يهتم بأسلوب قضاء وقت الفراغ وطريقة صقل «السيد» الهللينستى .

* * *

أدى إنتشار الجومناسيا فى مصر إلى تزايد مطرد فى عدد الناس المهتمين بالألعاب والعروض الرياضية. ومما تجدر ملاحظته فى هذا السياق أن سجلات أوليمبيا منذ القرن الثالث ق.م.، ومصادرنا عن مهرجانات الألعاب البانهللينية الكبرى الأخرى، تؤكد ظاهرة لها دلالتها، وهى أن أغلب الرياضيين المشاركين فى المباريات لم يعودوا يأتون من المدن الإغريقية التقليدية، وإنما من الشرق الهللينستى، وكان نصيب مصر وفيراً فى هذا الحضور(٢) . وإذا كان ملوك

---

(١) Vitruvius, **On Architecture**, V. xi.

(٢) Gardiner, **AAW**, pp. 45-46,49; 50: "The competitors at the national games of Hellas were mostly from Alexandria and the East"; p. 51 : "... most of the competitors at the Olympic Games came from Egypt and Asia".

البطالمة قد أنشأوا العاباً لها مكانة ايسوليمبية، فإنهم حرصوا كذلك على أن يشاركوا بوفود رياضية رسمية تمثلهم فى الألعاب البانهللينية وتسهم بذلك فى الدعاية لهم. ويروى لنا بوليبيوس (حوالى ٢٠٣ - ١٢٠ ق.م.) وقائع مباراة بين ملاكم إغريقى شهير من مدينة طيبة، يدعى كليتوماخوس Cleitomachus ، وملاكم مصرى يدعى أريستونيكوس Aristonicus ، كان قد حضر إلى أوليمبيا ليشترك فى الألعاب بإسم الملك «بطلميوس» (الرابع فيلوباتور، ٢٢٢ - ٢٠٥ ق.م.)(١). فيذكر إن جماهير الإغريق المحتشدين هناك إنحازوا تلقائياً إلى جانب أريستونيكوس وأخذوا يشجعونه بهتافاتهم معبرين عن بهجتهم أنهم رأوا أخيراً ملاكماً يتحدى كليتوماخوس الذى لا يغلب ويبدو نداً له، ولكن كليتوماخوس ، طبقاً لرواية بوليبيوس، ذكرهم بأنه هو نفسه إغريقى مثلهم ويتبارى من أجل مجد الإغريق ولذلك فهو أولى بتشجيعهم من المصرى الذى يتبارى من أجل مجد الملك بطلميوس ، ثم سألهم مستنكراً «ما إذا كانوا يفضلون أن يروا مصرياً يهزم الإغريق ويفوز بالتاج الأوليمبى، أم أن يسمعوا المنادى وهو يعلن فوز طيبى فى مباراة الملاكمة للرجال». وبهذا الحديث نجح كليتوماخوس فى تحويل مشاعر الجماهير لصالحه(٢). وكان أبناء الطبقة الإرستقراطية الجديدة فى مصر الهللينستية يتوقون للمشاركة والفوز ليس فقط فى سباقات العربات ، التى باتت بوجه خاص تجذب أبناء الطبقات الإرستقراطية الإغريقية فى كل مكان، وإنما أيضاً فى الفعاليات الرياضية الأخرى. ومن أبرز الأمثلة على

---

(١) F.W. Walbank, **A Historical Commentary on Polybius,** Vol. III (Oxford, 1979), p. 308.

(٢) Polybius, XXVII. 9. 7-13.

ذلك فى القرن الثالث ق.م. سوسيبيوس Sosibios ، الذى صار فى مستقبل الأيام وزيراً ذا شأن كبير فى عهد بطلميوس الرابع فيلوباتور. فمن أحد المصادر المعاصرة نعلم أنه فاز فى سباق الجرى للناشئين فى ألعاب ما، لعلها ألعاب البطوليمايا فى الإسكندرية. ثم فاز فى مباراة المصارعة للرجال فى إحتفال الباناثينايا Panathenaia فى أثينا ، على الرغم من أنه كان ما يزال شاباً صغيراً (Ageneios) . وأخيراً، فى مرحلة الرجولة ، فاز فى سباقين للعربات فى مهرجانى الألعاب الإسثمية والنيمية ، وكان هو أول إغريقى مصرى يفوز بهذا النصر المزدوج(١) .

من بين أوراق زينون Zenon ، الوكيل الخاص لأعمال أبوللونيوس Apollonius ، وزير المالية الشهير فى عهد بطلميوس الثانى فيلادلفوس، نصادف إشارات عديدة للجومناسيا فى الإسكندرية وفى فيلادلفيا بالفيوم. والملفت للنظر فى هذه الأوراق أن زينون كان ينفق أموالا كثيرة على تدريب صبية فى تلك المؤسسات بهدف تأهيلهم للإشتراك بإسمه فى مهرجانات الألعاب العامة التى كانت تقام فى أماكن مختلفة فى وادى النيل . وعلى ما يبدو أن دوافعه لم تكن رياضية خالصة، بل كانت مالية أيضاً وربما فى المقام الأول. فجوائز الفائزين فى مسابقات الألعاب لم تكن تيجاناً فقط، وهى جوائز شرفية أدبية، وإنما كانت تشتمل كذلك على مبالغ مالية كبيرة نسبياً، علاوة على المكاسب المالية التى كان يمكن الحصول عليها من خلال المراهنات على أفضل الصبية المتدربين(٢) . ومن إحدى

(١) J.Lindsay, **Leisure and Pleasure in Roman Egypt** (London, 1965), pp. 128-129.

(٢) M. Rostovtzeff, **A Large Estate in Egypt in the Third Century B.C.** (Madison, 1922), pp. 172-174.

الوثائق نعلم أن زينون كان قد تكفل برعاية صبى إسمه بورروس Pyrrus وعهد به إلى مدرب رياضى يدعى هيروكليس Hierocles حتى يشرف على تدريبه وإعداده للإشتراك فى الألعاب العامة بإسمه. غير أن القلق والشكوك أخذت تساوره، فكتب إلى هيروكليس يسأله عن مدى تقدم بورروس فى التدريب وعما إذا كان متأكداً من فوزه، وإلا فلا داعى إلى تكبد مصروفات بلا طائل. فجاءه، رد هيروكليس بأن بورروس أفضل من أقرانه الذين بدأوا التدريب قبله، وأنه فى غضون وقت قصير سوف يتقدمهم جميعاً، ثم يطمئن زينون بقوله : «بعون الألهة أنا واثق من أنك سوف تتوج» (من خلال فوز بورروس المأمول) ، وأن كل المطلوب الآن هو الإسراع بإرسال بعض المهمات التى يحتاج إليها الصبى(١) وفى وثيقة أخرى نقرأ رسالة من شخص يدعى زينودورروس Zenodorus يزف فيها إلى زينون خبراً ساراً، وهو أن صبياً آخر، إسمه ديونيسيوس، كان زينون يتكفل أيضاً برعايته وتحمل نفقات تدريبه حتى يشترك بإسمه فى الألعاب العامة، قد فاز فى مهرجان ألعاب البطوليمايا المحلية التى أقيمت فى قرية هيرانيسوس Hiera Nesos (الجزيرة المقدسة) بإقليم الفيوم. ويغتنم زينودورروس هذه المناسبة فيطلب من زينون أن يرسل إلى الصبى عباءة جديدة «من صوف أكثر سمكاً وأكثر نعومة» لكى يرتديها فى مهرجان ألعاب الأرسينويا(٢) وعلى الرغم من أن إهتمام زينون كان مالياً قبل كل شىء ، فينبغى ألا يغيب عن البال أن إنشاء هذه الألعاب، التى كانت مسئولية تنظيمها تقع على عاتق الجومناسيا المحلية، كان مرتبطا كما رأينا إرتباطا وثيقاً بالعبادة العامة للأسـرة

---

(١) P. Cairo Zen. 59060 = Select Papyri, 88.

(٢) P.S.I. 364.

الملكية، وجلى أن هذا أمر كانت الدوائر الحكومية تحرص كل الحرص على إظهار إهتمامها به(١) .

لم تكن الجومناسيا بأى حال جزراً مصمتة معزولة عما حولها ، بل كانت عنصراً حياً فى نسيج الحياة اليومية فى مصر الهللينستية، تفاعلت مع البيئة المحيطة فتأثرت بها وأثرت فيها، ولعل أكثر ما ميز هذا التفاعل أنه لم يصدر عن سياسة مرسومة أو توجهات مقصودة، بل كان تفاعلا تلقائياً رقيقاً ومتواصلا فى آن واحد. فبلا ريب كانت الجومناسيا صروح الحضارة الإغريقية ومراكز إشعاعها الرئيسية فى وادى النيل، ومنها، ربما أكثر من أى شىء آخر ، إنتقلت إلى الأهالى بفعل الإحتكاك والجوار، بعض مظاهر تلك الحضارة ، فغرست فى بعض شرائحهم الاجتماعية عادات وأفكاراً جديدة وطرائق فى الحياة لم تكن مألوفة بين أسلافهم ، وبثت فيهم ميلا متزايداً إلى محاكاة الإغريق (٢). وفضلا عن الولع الطبيعى بإقتداء الطبقات الحاكمة ، فقد ساعد على هذا التحول أيضاً أن بعض أمشاج الإغريق وأشباههم ممن إستوطنوا مصر، خاصة الذين إستقروا منهم فى الريف والمدن الصغيرة ، تزاوجوا وإختلطت أعراقهم بالتدريج مع بعض الأهالى . ومنذ نهاية القرن الثالث ق.م. لم يعد

---

(١) C. H. Roberts, ´The Greek Papyri` (chapter 13 in **The Legacy of Egypt**, secnd edition, edited by J.R. Harris, Oxford, 1971), p. 374.

(٢) W.L. Westermann, The Ptolemies and the Welfare of their Subjects` (**American Historical Review**, XLIII, 1938), p.279: ″The influences which seeped down to the natives from the gymnasia, existing in their midst as living institutions, must have been constant and insidious``.

للعرق أو النسب الإغريقى الأهمية الأولى عند إحتساب الشخص إغريقيا. فأن يكون المرء إغريقياً سرعان ما أصبح يعنى أنه يتحدث اللغة الإغريقية وأنه تلقى تعليماً إغريقياً ، أو بالأحرى جومناسيا(١).

ومن ناحية أخرى ، فعلى الرغم من أن الجومناسيا وأنشطتها المتنوعة إحتفظت على الدوام بمظهرها الإغريقى الخاص، إلا أنها بدورها كانت قابلة للتأثر بمؤثرات حضاريه مصرية، وبصفة خاصة المؤثرات الدينية. فمن بين الشواهد على تأثر الجومناسيا بالبيئة المصرية المحيطة ما نراه فى بعض الوثائق من مشابهة إلهى الجومناسيوم الحارسين فى معتقدات الإغريق، هرميس Hermes وهيراكليس Heracles ، بإلهين من آلهة القمر المصرية، وهما تحوت Thoth وخونسو Khonsu على التوالى. ومما تجدر ملاحظته أن هذين الإلهين الأخيرين يردان فى بعض النصوص الإغريقية بدلا من الإلهين الإغريقيين بوصف كونهما إلهين للجومناسيوم، بل ويردان بنفس الصيغة المركبة المألوفة التى يرد بها عادة إسما الإلهين الإغريقيين. «تحوت - خونسو» (= «هرميس - هيراكليس»)(٢)ومع مرور الزمن أخذت نشاطات الجومناسيا والجماعات التى تدور فى فلكه، ترتبط إرتباطاً وثيقاً بالعبادات المحلية. ولا أدل على ذلك من الوثائق

---

(١) Roberts, 'Gp', p.362 : "In Egypt no attempt was made to keep the (Greek) race pure; to be a Greek soon meant to speak Greek and to have had a Greek education".

(٢) J. G. Milne, 'Greek Inscriptions from Egypt', (**The Journal of Hellenic Studies**, XXI, 1901), p. 283; Fraser, **PA**, I, p. 208; II, pp. 353 - 354 notes 149-150.

المتعلقة ببعض جماعات الإفيبوى السابقين فى إقليم الفيوم، والتى يرجع تاريخها جميعاً إلى السنوات الأولى من القرن الأول ق.م. فقد كان الإفيبوى كما أشرنا ينخرطون عند تدريبهم فى جماعات تعرف كل منها باسم مدربها . وهذه الإخوة أو الزمالة عادة لم يكن ينفرط عقدها بإنتهاء فترة التدريب الرسمية وتخرج الشباب، وإنما غالباً ما كانت تستمر بعد ذلك لسنوات عديدة فى شكل رابطة أو فرقة Hairesis «إفيبوى سابقين» Ephebeukotes وتحتفظ على الدوام بإسم مدربها علماً عليها. وهكذا كانت الهايريسيس أقوى منظمات الشبيبة وأكثرها أستدامة. فكان أعضاؤها يلتقون فى ساحة Topos تدريب ، يحوزونها حيازة مشتركة ، ويمارسون فيها نشاطاتهم الرياضية الجماعية. ولما كانوا فى الغالب يرتبطون عاطفياً بساحتهم، فإنهم كانوا يفضلون عادة أن يكرسوها للآلهة عندما يستنفدون الغرض الأصلى من حيازتها ، بسبب تقدم السن أو غيره . ولدينا ثلاث نقوش باللغة اليونانية تتعلق بهذه الظاهرة. وأقدمها يعود إلى عام ٩٨ ق.م. ويخص فرقة كان أعضاؤها إفيبوى فى عام ١١٢/ ١١١ ق.م. وثانيها مؤرخ بعام ٩٥ ق.م.، ويخص فرقه كان أعضاؤها إفيبوى فى عام ١٠٧/ ١٠٦ ق.م. أما النقش الثالث فيرجع تاريخه إلى عام ٩٤ ق.م. ويخص فرقة كان أعضاؤها افيبوى فى عام ١٠٥/ ١٠٤ق.م. والنقوش الثلاثة جميعها محفورة على لوحات حجرية يشيع فيها الطابع المصرى المحلى الخالص. ففى أعلى كل نقش صورة إله فى هيئة تسماح ينتشر فوقه قرص الشمس المجنح، وفى إثنين منها صورة لفرعون يقدم له القرابين. وفى نقشين يهدى أعضاء فرقة الإفيبوى السابقين، بإسم الملك بطلميوس العاشر الاسكندر الأول (١٠٧ - ٨٨ ق.م.) ، ساحة تدريبهم إلى الإله التمساح «سوخوس» Souchus ، وهو الإسـم الإغريقى لأله الفيوم «سـبك» Sobk . أمـا

النقش الثالث فيسجل إهداء ساحة التدريب إلى الإله سوكنيبتونيس Soknebtunis ، وهو أحد أشكال عبادة التمساح فى الفيوم ويكاد يكون نسخة مطابقة للاله سوخوس (سبك)(١) .

* * *

كانت المنشآت الرياضية بشتى صنوفها ، أماكن طبيعية لتجمع أعداد غفيرة من الناس لقضاء وقت الفراغ، خاصة فى مناسبات الإحتفالات العامة ومهرجانات الألعاب، عندما كانت تزدحم بهم ساحات العروض وميادين الألعاب الملحقة بالجومناسيا. وكانت جماهير الملاعب هذه تتجاوب بمشاعرها الجماعية وتختلط فى حيوية صاخبة تجاه فعاليات واحدة ، وطبيعى أن يتولد فيما بينها «مزاج عام»، كان يتصل فى بادىء الأمر بالاحتفالات والألعاب ذاتها وما يجرى فيها من أنواع العروض ومختلف المباريات. غير أن مثل هذه التجمعات كانت دائما تربة جاهزة لتكوين «رأى عام» فى قضايا أخرى يمكن أن تكون سياسية بحتة . بل كانت قابلة للإندفاع بعنف إلى «فعل عام» إذا ما توافرت لها الظروف المناسبة. وعلى الرغم من أنه لا يمكن الإدعاء بأن جماهير الملاعب كانت تمثل دائماً الرأى العام لشعب وادى النيل، أو حتى شعب العاصمة، الإسكندرية ، بكل تركيبته الإجتماعية ، فإنها كانت فى جميع الأحوال قوة قابلة للإستثارة والتحريك الجماعى ، ومن ثم كانت قادرة على التأثير فى مجريات الحياة العامة .

---

(١) J. p. Mahaffy, 'Documents Egyptiens', **Bulletin de Correspondance Hellenique,** XVIII (1894), p. 147; T. A. Brady, 'The Gymnasium in Ptolemaic Egypt', (**The University of Missouri Studies**, XI3, 1936), pp. 12, 20.

وفى ظل حكومة قوية ، مثلما كان الحال فى عصر البطالمة الأوائل، كانت المؤسسات الرياضية، وكانت الجماهير التى تغشى الملاعب، تبدو كلها فى خدمة التاج ورهن إرادته. وقد رأينا كيف أن ملوك البطالمة إستثمروا الجومناسيا من ناحية، ووظفوا مهرجانات الألعاب العامة من ناحية أخرى، فى ترويج عبادة الأسرة الحاكمة والدعاية لها. وبعد وفاة فيلوباتور إكتسبت جماهير الملاعب فى مدينة الإسكندرية دوراً سياسياً، وأظهرت قدرتها على التحرك وميلها إلى العنف. فقد تولى العرش بطلميوس الخامس إبيفانيس Epiphanes (٢٠٤ - ١٨٠ ق.م.)، وكان ما يزال حدثاً صغيراً ، فتآمر بعض ندماء أبيه، وعلى رأسهم الوزير أجاثوكليس Agathocles لإغتصاب الوصاية عليه، فقتلوا أمه ، الملكة أرسينوى الثالثة ، وأخفوا نبأ وفاة أبيه حتى زيفوا وصية بإسمه. وإزاء ما تردد من أن أطماع أجاثوكليس لن تقف عند حد الوصاية، وأنه يدبر لإغتصاب العرش ذاته، تزايد سخط الناس حتى جاء اليوم الذى إتفقت فيه كلمتهم على التحرك لحماية ملكهم الشرعى من طغام القصر. فخرجوا فى مظاهرات إتجهت إلى إستاد المدينة تسابقهم إليه صيحاتهم الغاضبة. وسرعان ما تحول الإستاد من ساحة ألعاب إلى ميدان إجتماع سياسى شعبى عاصف ينظر فى مصير المملكة. ويروى لنا بوليبيوس أحداث ذلك اليوم من عام ٢٠١ ق.م.، فيذكر أن رجال الحرس الملكى إنقلبوا على أجاثوكليس وجماعته، وما برحوا يضيقون عليهم الخناق فى القصر حتى أذعنوا إلى مطلب الجماهير وسلموا لهم الملك، فحمله الحراس على جواد وإنطلقوا به إلى الإستاد. وهناك إستقبل الجمهور وصول الملك بالتهليل والهتاف والتصفيق. وأثناء ذلك أوقف الحراس جواد الملك وأنزلوه من عليه وأرشدوه إلى المقصورة الملكية حيث أجلسوه فى الكرسى الملكى حتى يـراه الجميـع . غيـر أن

مشاعر الغبطة والإبتهاج التى غمرت الناس فى الإستاد برؤية مليكهم بينهم سليماً معافى، كانت تختلط بمشاعر الإستياء من إحتمال أن يفلت المذنبون بجرمهم، فتعالت صيحاتهم من جديد مطالبين بالقبض على أجاثوكليس وجماعته ومعاقبتهم جميعاً حتى يكونوا مثلا وعبرة. ولما تقدم النهار والناس فى الإستاد على هذا الحال، بل تعاظم هياجهم وزاد إصرارهم، رأى سوسيبيوس (وهو ابن سوسيبيوس، الوزير الشهير فى عهد فيلوباتور، وكان واحداً من قادة الحرس ورجال الدولة البارزين) أن لا أمل فى تهدئتهم، وأن الملك، نظراً لحداثة سنه، يبدو مضطرباً ومنزعجاً لما يدور حوله، بعد أن وجد نفسه بين أغراب وفى وسط هياج العامة وصخبهم. فإنحنى على الملك يسأله إن كان يوافق على تسليم الذين أجرموا فى حقه وفى حق أمه إلى الشعب. فلما أومأ الملك برأسه موافقاً، أمر سوسيبيوس بعض الحرس أن يذيعوا القرار الملكى على الناس، وما أن فعلوا حتى إرتجت جنبات الإستاد بتصفيق حاد متواصل وهتافات تصم الآذان، فى حين إنسحب سوسيبيوس من الإستاد مصطحباً معه الملك. ويمضى بوليبيوس فى روايته فيذكر أن جماهير الإستاد عندئذ حضوا بعض الجنود على ضبط أجاثوكليس وجماعته وإحضارهم، فإنطلقوا يفتشون عنهم. ولم يمض وقت طويل حتى جاءوا بهم إلى الإستاد مكبلين بالأغلال، وألقوا بهم الواحد تلو الآخر إلى ذلك الحشد الغاضب من الناس ففتكوا بهم جميعاً(١) . وهكذا جرت فى الإستاد محاكمة شعبية صورية، إنتهت بإدانة سياسيين بارزين، وما إن صدق الملك على قرار الإدانة حتى تحولت أرض الإستاد إلى ساحة لتنفيذ الحكم، فتخضبت بدماء جماعة كانت بالأمس تتربع على قمة السلطة فى البلاد.

---

(١) Polybius, XV. 25 – 33.

ولم يمض جيل واحد على هذا الحدث حتى شهد نفس الإستاد الكبير حدثاً سياسياً آخر، وكان ذلك فى فترة الحكم المشترك (من أواخر عام ١٧٠ إلى أوائل عام ١٦٣ ق.م.) بين بطلميوس السادس فيلوميتور Philometor (١٨٠ - ١٤٥ ق.م.) وأخيه الأصغر (بطلميوس الثامن يورجيتيس الثانى) . فقد شابت علاقة الأخوين شكوك وحساسيات متبادلة مما أتاح الفرصة (فى عام ١٦٧ ق.م. تقريباً) أمام أحد كبار رجال البلاط، ويدعى ديونيسيوس Dionysius بتوسارابيس Petosarapis لأن يعمل على إغتصاب العرش لنفسه. وحسب رواية ديودوروس الصقلى، بدأ ديونيسيوس تنفيذ مخططه بأن أشاع بين الناس أن فيلوميتور يدبر مؤامرة لقتل شقيقه الأصغر. ومثلما حدث قبل ذلك فى زمن إبيفانيس، «إحتشد العامة بسرعة فى الإستاد، وبلغ هياجهم حداً أخذوا عنده يستعدون لقتل الأخ الأكبر وإسناد حكم المملكة إلى الأخ الأصغر» . وعندما وصلت إلى فيلوميتور أنباء ما كان يدور فى الإستاد، كان أفطن من أن يستخف بها. فإستدعى أخاه على الفور وأثبت له حسن نواياه حياله، وكشف له زيف الدعاوى التى روج لها ديونيسيوس ومقاصده الحقيقية من وراء ترويجها. وعندما تفاهم الأخوان، إرتديا ثيابهما الملكية وذهبا معاً إلى الإستاد حيث أظهرا للجميع هناك أنهما فى وئام تام. وبهذا التحرك السياسى السريع نجح فيلوميتور فى إجهاض محاولة ديونيسيوس وحرمه من تعاطف الجماهير ، وهو ما يسر له فى أعقاب ذلك أن يقضى على تمرده فى الإسكندرية دون عناء كبير (١).

---

(١) Diodorus, XXXI. 15a.

غير أن جماهير الملاعب كانت بطبعها هوائية ، فلم يكن لها فريق تثبت على تشجيعه أو الإنحياز له، وإنما كانت تتقلب بين فريق وآخر، وآفة الصراع الأسرى التى أبتلى بها البيت الحاكم فى العصر البطلمى الأخير، جعلت من الملوك والملكات، «فرقاً» يناصر رجال الجومناسيوم ورواد الملاعب بعضها اليوم، ثم ينقلبون فيناصرون خصومها فى الغد. وقد تميز النصف الأول من عهد بطلميوس الثامن يورجيتيس الثانى (١٤٥ - ١١٦ ق.م.) بصورة خاصة بضراوة الصراعات الأسرية وكثرة أعمال العنف. ويذكر سترابون ، نقلا عن بوليبيوس الذى زار الأسكندرية فى عهد يورجيتيس الثانى ، أن هذا الملك عندما واجهته تكتلات شعبية معارضة، كثيراً ما أطلق جنوده على الجماهير مسبباً هلاكهم. وسترابون، أو بالأحرى بوليبيوس، يشير بوضوح إلى أن هذه التكتلات الشعبية كانت تنتمى بالتحديد إلى طبقة المواطنين الإسكندريين ، الذين يصفهم بأنهم وإن كانوا أمشاجاً migades فإنهم كانوا مع ذلك من أصول إغريقية، وكانوا ما يزالون يراعون العادات الشائعة بين الإغريق(١) . ولا بد أن العنصر المحرك بينهم كان يتكون بالدرجة الأولى من رجال الجومناسيوم ومرتادى الملاعب. ونجد تأكيداً لذلك عند فاليريوس ماكسيموس ، المؤرخ الرومانى الذى كتب فى عهد الإمبراطور تيبيريوس (١٤ - ٣٧م) . ففى سياق روايته عن النزاعات الأسرية فى عهد يورجيتيس الثانى، يذكر أن هذا الملك حاصر بقواته العسكرية جومناسيوم فى الإسكندرية ملىء بالشباب، وأضرم فيه النيران وأهلك جميع من كانوا بداخله ،

---

(١) Polybius, XXXIV. 14 (apud Strabo, XVII. I.12).

بعضهم بالسلاح والبعض الآخر بالنار(١) وجلى أن هذا الجومناسيوم المنكود كان فى ذلك الوقت متورطاً تماماً فى قضايا السياسة وصراعات الأسرة المالكة، وناصر الحزب الخطأ فحلت عليه النقمة.

وإذا كان يورجيتيس الثانى قد دمر جومناسيوم وقتل كل أعضائه، فلم يمض جيلان حتى لقى أحد ملوك أسرته مصرعه على أيدى رجال الجومناسيوم. ففى عام ٨٠ ق.م. إعتلى العرش حفيده بطلميوس الحادى عشر الإسكندر الثانى، وكان شاباً فى مقتبل العمر أضطر إلى الزواج من أرملة أبيه وإبنة عمه كليوباترا بيرينيكى Berenice الثالثة، وكانت تكبره بسنوات كثيرة. ولم يحتمل الملك الشاب سطوتها عليه وسيطرتها على مقاليد الحكم، فقتلها ولما يمض عشرون يوماً على إعتلائه العرش(٢). وكانت الملكة تتمتع بشعبية كبيرة بين الإسكندريين الذين طار صوابهم لمقتلها،فإقتحموا القصرالملكيوجروا منه الملك إلى داخل الجومناسيوم حيث ذبحوه(٣)

• es to gymnasion ek tou basileiou proagagontes ekteinan.

وأغلب الظن أن دور رجال الجومناسيوم وجماهير الملاعب لم ينحسر بعد هذا الحدث، بل لعله زاد فعالية وتأثيراً فى الحياة

---

(١) Valerius Maximus, IX. 2, **Externa** 5: "...frequens iuventute gymnasium armis et igni circumdedit omnesque qui in eo erant, partim ferropartim flamma, necavit". (apud Fraser, **PA**, II, p. 166 note 325).

(٢) Porphyry, in F. Jacoby, **Fragmente der Griechischen HistoriKer**, 260, F.2 (11). (apud Fraser, **PA,** 11, P. 221 note 263).

(٣) Appian, **The Civil Wars**, I. 102.

السياسية. فعلى ما يظهر أنهم كانوا طرفاً رئيسياً فى الإضطرابات الداخلية فى عهد بطلميوس الثانى عشر أوليتيس Auletes (٨٠ - ٥١ ق.م.)، والتى بلغت ذروتها الدرامية برحيل الملك فى عام ٥٨ ق.م. إلى روما، بعد أن واجه ضغوطاً شديدة من جماعات سياسية شعبية منظمة hetaireiai كانت تطلق على نفسها أسماء زعمائها (ولعلها كانت هى نفسها جماعات الرفاق الإفيبوى السابقين - الهايريسيس)، ثم عودته إلى العرش فى عام ٥٥ ق.م. تحت حماية جابينيوس Gabinius ، حاكم ولاية سوريا الرومانى. وفى هذه المناسبة تذكر مصادرنا أن أوليتيس إنتقم لنفسه بأن قتل وجهاء القوم البارزين وأكثرهم ثراء وصادر ممتلكاتهم، وهو أمر له دلالته على طبيعة الشريحة الإجتماعية التى كانت تنتمى إليها تلك الجماعات السياسية المعارضة. وهناك ما يحملنا على الإعتقاد كذلك بأن رجال الجومناسيوم كانوا فى مقدمة المقاومة الشعبية ضد يوليوس قيصر فى أوائل عام ٤٧ ق.م. فيما عرف بإسم حرب الإسكندرية(١).

غير أن الإشارات الواضحة فى مصادرنا تتعلق بالفصل الختامى من حكم البطالمة . فيذكر كاسيوس ديون أن الملكة كليوباترا السابعة (٥١ - ٣٠ ق.م.) إستعبدت ماركوس أنطونيوس إلى حد أنها أغوته بالقيام بأعمال رئيس الجومناسيوم للإسكندريين(٢) ، وأن أوكتافيوس إستغل هذا فى دعايته ضده فنعته فى إحدى خطبة بالجومناسيارخوس(٣) . وإذا صح أن أنطونيوس قبل القيام بهذا

(١) Fraser, **PA** , I, pp. 125-127; II, pp. 223-229.

(٢) Dio, L. 5.1.

(٣) Dio, L. 27.1.

الدور، فالأرجح أن يكون قبوله ليس للسبب الذى ذكره كاسيوس ديون، وإنما لأن هذا كان يتوافق مع نهجه التلقائى فى التقرب إلى الجماهير ونشر شعبيته بينهم. ويؤيد هذا ما يذكره بلوتارخ من أنه فى شتاء عام ٣٩ ق.م. ، عندما كان أنطونيوس يتخذ من أثينا مقراً لقيادته، وصلت إليه أنباء إنتصار قواته على البارثيين، فأقام حفلا رياضياً للأثينيين ترأسه هو بنفسه. ويزعم بلوتارخ أن أنطونيوس فى هذه المناسبة ترك فى بيته شارة رتبته بوصف كونه بروقنصلا رومانيا، وظهر على الملأ فى ثياب رئيس الجومناسيوم، منتعلا حذاء أبيض ويحمل فى يده عصا رئيس الجومناسيوم، بل وقام بدور الحكم فى بعض المباريات، يمسك المصارعين الشبان من العنق فيفصل بينهم (١) . وعلى إية حال ففى ذلك الوقت كان الجومناسيارخوس عادة ممولا جواداً فى واقع الأمر ، ينفق بسخاء من ماله الخاص لتدبير إحتياجات الجومناسيوم المادية. ومن هذا المفهوم على الأقل يمكن أن نقبل رواية كاسيوس ديون عن قيام أنطونيوس بأعمال مدير الجومناسيوم الرئيسى فى الإسكندرية. وأيا كانت الحقيقة فى هذا الموضوع، ففى عام ٣٤ ق.م. شهد هذا الجومناسيوم ذاته فعاليات أكثر الأحداث السياسية إثارة للجدل فى فترة إقامة أنطونيوس فى الإسكندرية وإتخاذه لها مقراً لقيادته ، ونعنى به مهرجان «هبات الإسكندرية». ففى ذلك العام غزا أنطونيوس أرمينيا واسر ملكها وعاد إلى الإسكندرية حيث أقام موكب إنتصاره، ثم تلاه بإقامة مهرجان كبير فى الجومناسيوم دعا إليه جمعاً غفيراً من أهالى المدينة. وحسب رواية بلوتارخ، أقيمت فى هذه المناسبة فى ساحة الجومناسيوم منصة مكسوة بالفضة

---

(١) Plutarch, **Mark Antony**, 33.

عليها عرشان من الذهب ، أحدهما لأنطونيوس والآخر لكليوباترا، ومعهما عروش أصغر حجماً لأولادهما. ومن فوق هذه المنصة أعلن عضو الحكومة الثلاثية والبروقنصل الرومانى ، أنطونيوس ، أن كليوباترا وإبنها قيصرون حاكمان شريكان على مصر وقبرص وليبيا وجوف سوريا، وانعم على ولديه من كليوباترا بلقب «ملك الملوك»، وجعل أكبرهما (ست سنوات) سيداً على أرمينيا وميديا وبارثيا التى لم تكن فى حوزته، وجعل أصغرهما (سنتان) سيداً على فينيقيا وسوريا وكيليكيا(١) . وبهذه الهبات وسع أنطونيوس ـ نظريا ـ من مملكة البطالمة ، فالحق بها أقطاراً ذات سيادة، وأخرى حليفة لروما، بل وأعاد إليها أهم ممتلكاتها الخارجية التى كانت قد تحولت من قبل إلى ولايات رومانية وصارت جزءاً من ممتلكات الشعب الرومانى. ولا ريب فى ان هذا الإجراء كان خطوة جريئة نحو إحياء الإمبراطورية البطلمية.

ومن المفارقات التاريخية أن نفس الجومناسيوم شهد بعد أقل من أربع سنوات وقائع إجتماع عبر بصورة مسرحية عن نهاية دولة البطالمة ككيان سياسى، وخضوع مصر للحكم الرومانى المباشر. فيذكر بلوتارخ أنه بعد دخول أوكتافيوس قيصر مدينة الإسكندرية، وإنتحار أنطونيوس ومن بعده كليوباترا، توجه الفاتح المظفر إلى الجومناسيوم الرئيسى لإلقاء خطاب فى جمع من الإسكندريين الذين إحتشدوا هناك لسماعه. ولعل إختيار مكان إلقاء خطابه لم يتم بدون قصد، وإنما كان له مغزى ورسالة. فإعتلى أوكتافيوس منبراً أقيم له فى هذه المناسبة، ربما فى نفس الموضع الذى أقيمت فيه من قبل منصة أنطونيوس وكليوباترا. ويزعم بلوتارخ أن الخوف كان يعتصر

---

(١) Plutarch, **Mark Antony**, 54. 3.

أفئدة الإسكندريين، فخروا على وجوههم أمامه ضارعين. غير أن أوكتافيوس أمرهم بالنهوض وحدثهم باللغة اليونانية حتى يفهموه، فأعلن عفوه عنهم جميعاً وطمأنهم أنه لا ينوى بهم شراً. غير أنه حرص فى الوقت نفسه على أن يبرر مسلكه الكريم حيالهم بإعتبارات ليس لهم فيها فضل(١) . ومن نافلة القول أن هذا هو الخطاب الوحيد الذى تشير مصادرنا إلى أن أوكتافيوس ألقاه طوال مدة إقامته فى مصر. وجلى أنه كان يسلم بأن رجال الجومناسيوم هم أعيان قومهم ، وأنهم الشريحة الإجتماعية التى يمكن أخذها فى الحسبان . فلاعجب أنه فى عهده (٣٠ ق.م. - ١٤ م.)، وضعت ضوابط جديدة لتنظيم الجومناسيا فى مصر بهدف تسخيرها لخدمة أهداف الحكومة الرومانية.

* * *

(١) Plutarch, **Mark Antony**, 80. 1., Cf. Dio, LI. 16. 3-4.

التطور التاريخي
للوعي السياسي القومي في دولة الكويت
والمخاوف البريطانية منه
١٩٣٦ - ١٩٥٣

دكتورة / نجاة عبد القادر الجاسم
جامعة الكويت/ كلية الآداب
قسم التاريـخ

إذا كانت الحرب العالمية الأولى قد وضعت نهايه للوجود العثماني في الوطن العربي بهزيمة الدولة العثمانية فإن العرب بدأوا مرحلة جديدة من الصراع ضد الإستعمار الأوربي فقد نشطت حركات المقاومة الوطنية مما ساعد على إيقاظ الشعور القومي في مختلف الأقطار العربية .

ولكن ان هذا النمو التدريجي للوعي القومي لم يكن متزامنا في كل أنحاء الوطن العربي. ولم يكن بنفس الدرجة من الحماس ولا بمستوى القوة في التعبير فهو يرتبط بالثقافة ومستوى التعليم والوعي الفكري والمعاناة السياسية والإجتماعية، ولذلك نجد أن الوعي القومي ينتشر بدرجة كبيرة في بلد يحظى بقدر من الوعي الفكري ويعاني من الإحتلال الأجنبي أكثر من إنتشاره في بلد لايعيش نفس الظروف.

بدء ظهور الوعي القومي في الكويت ١٩١٣ - ١٩٣٦ :

لم تكن الكويت في تلك الفترة تعاني من الحكم العثماني ولم تكن في أراضيها إدارة عثمانية كل ما هناك مجرد تبعية أسميه للدولة العثمانية التي تمثل الخلافة الإسلامية وقد أضطربت علاقاتها بحاكم الكويت آنذاك الشيخ مبارك الصباح (١٨٩٦ - ١٩١٥) في أعقـاب

توليه حكم الكويت بسبب تردد السلطات العثمانية فى الإعتراف بحكمه، والسياسه التى انتهجها حمدى باشا والى البصرة ضد الشيخ بتعاونه مع خصومه ولذلك فقد عقد إتفاقيه حماية مع بريطانيا فى ٢٣ يناير ١٨٩٩، وكانت الكويت حتى الثلاثينات من القرن الحالى ذات موارد دخل ضعيفة تعتمد على البحر حيث يزاول سكانها النقل التجارى والغوص لصيد اللؤلؤ والأسماك وغيرها من الأنشطة البحرية التى كانت تتطلب الجهد بالإضافة إلى الأعمال المرتبطة بالصحراء مثل الرعى.

أما بالنسبة للتعليم فقد أقتصر على الكتاتيب فكان الاولاد يتعلمون قراءة القرآن الكريم وبعض مبادىء القراءة والحساب أى الدروس التى تسد إحتياجات المجتمع الكويتى، ولكن لم تخلو الكويت من المتعلمين الذين كانوا يسعون إلى احداث الإصلاح فى شتى المجالات خاصة فى مجال التعليم، وهناك عدد من الذين تلقوا علومهم الدينية فى مكة المكرمة وبغداد والقاهرة، وبعضهم كان يميل إلى التجديد ونبذ البدع والخرافات أمثال عبد العزيز رشيد الذى أسس أول مجلة كويتية بإسم الكويت فى عام ١٩٢٨ والشيخ يوسف عيسى القناعى المصلح الإجتماعى الأول وغيرهما من رجال الكويت الذين كانوا يطالعون المجلات العربية المعاصرة مثل المنار والمؤيد والأهرام والمقطم والهلال والمقتطف واللطائف(١) ، وفى ديسمبر ١٩١١ افتتحت المدرسة المباركية وهى أول مدرسة أهلية نظامية فى الكويت ثم أنشئت فى عام ١٩١٣ الجمعية الخيرية التى أسسها فرحان

---

(١) مقابلة أجريناها مع الإستاذ الفاضل بدر خالد البدر ١٧ رمضان ١٤٠٧هـ. ١٤مايو ١٩٨٧ أحد رواد مجلس الشيخ يوسف فى العشرينات من هذا القرن .

فهد الخالد لمساعدة طلاب العلوم الدينية الذين يوفدون إلى المعاهد الإسلامية فى الوطن العربى. أما هدفها غير المعلن فهو محاربة التبشير المسيحى. ولكنها مالبثت أن أغلقت أبوابها بأمر حاكم الكويت الشيخ مبارك الصباح الذى لم يطمئن إلى بعض علمائها أمثال محمد الشنقيطى والطبيب التركى أسعد أفندى لموالاتهما للدولة العثمانية(١) .

فى ذلك الوقت كان الإسلام هو المحور الذى تدور حوله إهتمامات المتعلمين وغيرهم فى الكويت وعند نشوب الحرب العالمية الأولى كان البعض من الذين تأثروا بسياسة التتريك يمليون إلى الإنفصال عن الدولة العثمانية والبعض الأخر كان يرى أنها لا تزال تمثل الخلافة الإسلامية(٢) وكان الشيخ مبارك الصباح فى نفس الوقت يتعاون مع طالب النقيب الذى أسس فرعاً لحزب الحرية والإئتلاف فى البصرة وقد أنضم إليه عدد من المعارضين للحكم التركى كما أتفق معه الشيخ مبارك الصباح سنة ١٩١٣ على عقد مؤتمر عربى فى أوائل عام ١٩١٤ لبحث المشاكل التى كان يتعرض لها العرب بسبب السياسيه التركية ولبحث إمكانية القيام بثورة عربية ضد العثمانيين(٣) .

---

(١) عبد الله النورى - قصة التعليم فى الكويت فى نصف قرن ١٣٠٠-١٣٦٠هـ. مطبعة الاستقامة القاهرة ص٢٧ . التاريخ غير مذكور ولكننا نرجح ١٩٥١-١٩٥٢.

(٢) عبد الفتاح المليجى - رجال وتاريخ - مقابلة عبد الحميد الصانع الكويت ١٩٧٤ ص٢١.

أنظر أيضاً: سيف مرزوق الشملان - أعلام الكويت - فرحان فهد الخالد - الكويت - منشورات ذات السلاسل ١٤٥-١٩٨٥ ص٢٠-٣٤-٤١-٤٢ .

(٣) د. مصطفى عبد القادر النجار - دراسات فى تاريخ الخليج العربى المعاصر - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٧ ص١٧.

ولا يمكن إغفال الشعور القومى الذى حرك هذه الأطراف ولكن تلك التطورات لم تكن تعنى نضوج الوعى القومى العربى فى الكويت ومع أنها كانت تتمتع بوعى نسبى أكثر من المناطق المحيطة بها. إلا أن هناك عوامل عدة تساعد على نضوج الوعى القومى لم تكن قد توفرت فى الكويت منها مثلا التعليم وسائل الإعلام والتوعية القومية نفسها والتى تتضمن الأعمال الأدبية والفنية وكذلك العمل على إحياء أمجاد القومية والتراث القومى ولكن رغم ذلك فهناك العديد من العوامل التى ساعدت على إيقاظ الوعى القومى العربى فى الكويت وأدت إلى نمو الوعى الفكرى والسياسى، والتى كان من أهمها الزيارات التى كان يقوم بها بعض العلماء المعروفين إلى الكويت أمثال المجاهد التونسى المعروف عبد العزيز الثعالبى. وحافظ وهبه المصرى الذى درس فى المدرسة المباركية وصاحب مجلة المنار رشيد رضا، وقد كان لأحاديثهم أبلغ الأثر فى الوعى الفكرى والسياسى فى الكويت، بالإضافة إلى تأثير بعض العلماء وشيوخ الدين من الكويتيين كما أسلفنا الإشارة، إلى جانب التطور النسبى الذى شهده التعليم فى الكويت وإدخال العلوم العصرية عليه بإفتتاح المدرسة الأحمدية ١٩٢١، والمكتبة الأهلية والنادى الأدبى فى سنة ١٩٢٣ وكلها كانت وسائل إيقاظ للوعى الفكرى والسياسى وكانت تتم بمبادرة وتبرعات الأهالى .

ومن مظاهر الوعى فى أواخر العشرينات التعاطف مع أحداث الوطن العربى وبالاخص مع ثورة فلسطين سنة ١٩٢٩ فنجد شاعر الكويت المعروف خالد الفرج (١٨٩٨-١٩٥٤) ينظم قصيدة بمناسبة ثورة ١٩٢٩ ساخرا من وعد بلفور فيقول :

بلفور ان اليوم عيـــــد   تلبس به الثوب الجديـــد
وعليك اكليل الســعادة   فى إكاليل الـــــورود

ما العيد عيـد الساذجين ... إذ مضى عام يعـــــود
هذى فلسطين الوديعـة ... فى مصائبها تميـــــد
ما ينقضى زلزالهـــــا ... حتى تزلزل من جديد
آلامها مثل الكواكـــب ... ذا يغيب وذا يعـــود(١)

هذه من ناحية العوامل الداخلية التى كان لها الأثر الواضح فى نمو الوعى العام فى الكويت، أما العوامل الخارجية فأبرزها الحركات الوطنية التى قامت فى البلدان العربية مثل مصر والعراق وسوريا وفلسطين ولبنان ضد الوجود الإستعمارى كذلك تأثير الأحزاب القومية العربية مثل حزب عصبه العمل القومى فى سوريا والكتلة الوطنية والحزب القومى العربى(٢) . وكانت القصائد الوطنية للشعراء العرب ومنهم أحمد شوقى والرصافى وبشاره الخورى تقرأ فى المجالس الكويتية(٣).

وفى أوائل الثلاثينات إزداد التجاوب مع أحداث فلسطين وثورة الشعب الفلسطينى فى سنة ١٩٣٦ تلك الثورة التى قامت ضد السياسة البريطانية ومخططاتها بالتعاون مع الصهيونية ضد فلسطين، وقد بلغ عدد ضحاياها ستة الآف قتيل وجريح وألقى بثلاثة الآف فى السجن(٤) واستمرت ثلاث سنوات، وكان لهذه الأحداث صداها القوى

---

(١) خالد سعود الذيد - خالد الفرج - حياته وأثاره - طبعة ثانية ١٩٨٠ - شركة الربيعان - الكويت ص٢٥ .

(٢) د. على محافظه . موقف فرنسا والمانيا وإيطاليا من الوحدة العربية ١٩١٩-١٩٤٥، بيروت ١٩٨٥، ص١٢٠-١٤٠ .

(٣) الأستاذ أحمد السقاف - تطور الوعى القومى فى الكويت سلسلة كتب تصدرها رابطة الأدباء فى الكويت (٣) ١٩٨٢ ص ١٩ .

(٤) د. أنيس صايغ الهاشميون وقضية فلسطين - منشورات جريدة المحرر المكتبة العصرية صيدا - بيروت ١٩٦٠ ص ١٠٠ .

فى معظم أنحاء الوطن العربى. ففى الكويت تنادى أبناؤها إلى جمع التبرعات للثورة الفلسطينية بالرغم من ضالة مواردهم آنذاك وقد بلغ حجم التبرعات مائة ألف روبية(١) .

تطور التعليم وأثره فى الوعى القومى .

يعد التعليم من الدعائم الأساسية لتكوين الرأى العام المستنير ومما لاشك فيه إن للتعليم فى الكويت نتائج إيجابية على الوعى السياسى بشكل عام، ولقد سبقت الأشارة إلى أن أول مدرسه نظامية أهلية أفتتحت كانت فى سنة ١٩١١ ثم المدرسة الثانية فى سنة ١٩٢١ وفى العام الدراسى ١٩٣٦-١٩٣٧ ومع إقبال الأهالى على إرسال أبنائهم إلى المدارس صدر قانون المعارف وتم تشكيل مجلس المعارف بالإنتخاب وأصبح للتعليم ميزانية رسمية، حيث تم رفع نسبة الرسوم ـ ٪ خصصت للتعليم وكان ذلك بأقتراح التجار أنفسهم وفى سنة ١٩٣٧-١٩٣٨ بدأ تعليم البنات بالإضافة إلى وجود التعليم التقليدى المتمثل فى الكتاتيب وفى سنة ١٩٣٦-١٩٣٧ وصلت إلى الكويت أول بعثه تعليمية عربية من فلسطين مكونة من أربعة مدرسين وقد حرصت السلطات البريطانية على الا يكون لأى من هؤلاء أى نشاط سياسى معاد لها وكان لهؤلاء المدرسين أثرهم الطيب على الطلبة فقد كانوا يستمعون إليهم وهم يتحدثون عن أخبار ثورة فلسطين وكان لهذه الأحاديث أثرها فى مضاعفة الحماس القومى لدى الشباب الكويتى. واستمر نمو التعليم بعد ذلك خصوصاً فى الأربعينات فأزداد عدد مدارس البنات والبنين كما بدأ التعليم المهنى فى سنة ١٩٤٦ وتضاعف إستقدام المدرسين والمدرسات العرب كما إزداد عدد طلبة

---

(١) صالح شهاب ـ تاريخ التعليم فى الكويت والخليج أيام زمان ـ الجزء الأول ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م، مطبوعات حكومة الكويت . ص١٧٢.

الكويت فى الخارج فكانوا يتعرفون على مختلف الإتجاهات السياسية فى البلدان التى يدرسون فى جامعاتها ومدارسها خصوصا مصر والعراق وبالتالى أصبح هناك من الأسباب ما يدعو إلى الأعتقاد أن نمو الوعى القومى فى الكويت سوف يشهد تطوراً ملحوظاً .

مظاهر الوعى القومى ١٩٣٦-١٩٤٨ .

يستطيع المرء التعرف على نمو الوعى القومى من خلال الأحاديث التى كانت تدور بين الأهالى فى الكويت ومن خلال القصائد التى كان ينظمها شعراء الكويت، والتى تعبر عن تجاوب وتعاطف الأهالى مع الحركات الوطنية فقد كانوا يشعرون بالإستياء من السياسة البريطانية ومن حرمان العرب من التمتع بالإستقلال بفرص الإنتداب عليهم فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وإستيائهم من السياسة البريطانية وإتفاقية سايكس بيكو التى قسمت البلاد العربية بين بريطانيا وفرنسا، ومن وعد وزير الخارجية البريطانى «بلفور» لليهود ١٩١٧ بأنشاء وطن قومى لهم فى فلسطين العربية .

وكان لهذه التطورات ردود فعل بين الشباب الكويتى ويذكر الأديب الكويتى عبد الرزاق البصير أنه ألقى خطبه فى ذكرى الإسراء والمعراج سنة ١٩٣٨ تعرض فيها لأحداث فلسطين فبلغ تجاوب الأهالى معه أن انفجروا فى البكاء وعندما كان يجلس مع الشباب الكويتى القومى من بينهم عبد اللطيف الطبطبائى ومحمد البراك فى مقهى ابن زنان كان محور أحاديثهم موضوع الوحدة العربية(١) فالشعور القومى فى هذه الفترة أخذ بالإنتشار .

---

(١) مقابلة أجريناها مع الأستاذ الأديب عبد الرزاق البصير يوم الأحد ٦ ذو القعدة ١٤٠٦هـ الموافق ١٣ (تموز - يوليو) ١٩٨٦ .

جريدة الوطن ٢١ إبريل١٩٨٦ مقال الأستاذ البصير- من ذكريات الشباب.

نماذج من قصائد الشعراء .

ان الأشعار التى نظمها شعراء الكويت خير دليل على نمو الوعى القومى وتعد أحد مظاهر الوعى فهذا الشاعر المعروف خالد الفزج كان يتمنى لو أن الله سبحانه وتعالى اتاح للآمة العربية شخصيه مثل بسمرك تقوم بتوحيدها وتخليصها من التفكك، إسمعه يقول :

من لى ببسمرك يضم صفوفـه وعليها تجمع نفسها أشـتاته
فيعيد من هذه الممالك وحــده والعلم تخفق فوقها راياتـــه
شعب بنو قحطان ركن أساســه وبنو نزارفى العلى شـــرفاته

وأنشد أيضاً فى الوحدة العربية فقال :

هذى بلاد العرب فى ضعفهـا لا يعطف الجارعلى جيرتــه
فى كل شـبر دولة تاجهـــا كصاحب التمثيل فى جوقتــه
وهـذه الدولات مجموعهـــا أحقر أن يعتد فى كثرتـــه
لكنها لو جمعت لقمــــــه تتعب الماضغ فى مضغتهـه(١)

وهذا الشاعر الكويتى المعروف فهد العسكر يقول بمناسبة قدوم أول بعثة تعليمية من فلسطين وصلت البلاد بطلب من مجلس المعارف فى الكويت سنه ١٩٣٦ .

حى الإســاتذه الكرام تحيـــة تزرى بعرف المسك والريحان

ويقول :

بالله يا رسل الثقافة خبرونـــا كيف حال الأحت يا إخوانــى
اعنى فلسطينا وكيف امينهـــا وجنوده وبقية الســـــكان
بعد الكفاح وبعد ما بث اليهود شرورهم فيها بكل مكــــان
أنى سـمعت نداءها وســمعت تلبية الضياغم من بنى عـدنان

(١) خالد سعود الزيد ـ المرجع السابق ص ٣٥ .

ويقول فيها :

ولم التخاذل والعروبـه أمنـا ولم الشقاق ونحن من عدنـان(١)

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد بل هناك بعض المقاهى التى كان روادها يتمتعون بالإستماع إلى صوت الشاعر والمغنى الفلسطينى نوح إبراهيم وهو ينشد أغنيته المعروفه والتى كان يناشد فيها ملوك العرب والمسلمين بالتكاتف والإتحاد لمقاومة الخطر اليهودى وخطر تقسيم فلسطين فيقول :

يا ملوك المسلمين شمروا سواعدكم لإنقاذ فلسطين لإنقاذ فلسطين والله حـرام(٢)

كما برزت فى الكويت فى الثلاثينات شخصيات كويتية قومية فعلى سبيل المثال لا الحصر هناك محمد البراك وكان يطلق عليه لقب (الزعيم) والذى كان يسعى من أجل تكوين جبهة قومية تضم الشباب العربى فى الكويت هدفها نصرة القضايا العربية وتقود النضال من أجل الوحده العربية الكبرى وقد أنشأ مكتبة قومية فى الكويت سنة ١٩٣٦ تبيع الدفاتر التى طبع على أغلفتها العبارات الحماسية والشعارات الثورية مثل (البلاد العربية وحدة طبيعية) (والمجد للشباب القومى الذى يعمل بأخلاص لتحقيق وحدتها) ونتيجة لنشاطه القومى فقد طارده الإستعمار فى كل مكان وتعرض للضرب والإعتقال وخصوصاً من السلطات البريطانية فى الهند عندما توجه اليها فى أوائل الحرب العالمية الثانيـة(٣) . اذن الشباب الكويتى فـى

---

(١) خالد سعود الزيد - ادباء الكويت فى قرنيين - الجزء الثانى - شركة الربيعان - الطبعه الأولى سنه ١٩٨١ ص١٢٧ - ١٣٢ .

(٢) صالح شهاب المرجع السابق ص ١٧٣ .

(٣) عبد الله الحاتم المرجع السابق ص١٥٢ - ١٥٣ .

تلك الفترة لم يكن بمعزل عن التفاعل مع أحداث الوطن العربى وكان كثير من أحرار العرب قد فروا إلى سوريا وفلسطين وشرق الأردن كما، أصبحت العراق ملتقى القوميين(١) ففى عام ١٩٣٥ انشىء نادى المثنى فى بغداد وكان يضم المهتمين بقضايا القومية العربية ويدعوا إلى العروبة والوحدة العربية(٢) وهو يعتبر المركز المنظم لحركة الشبيبه التى انشئت فى سوريا عام ١٩٣٨ ثم انتقل مركزها إلى بغداد، وكانت تنادى بحب الوطن والتخلص من الإستعمار الأجنبى، ولقد كان لها فروع فى بعض البلدان العربية، ومما لاشك فيه ان قضية فلسطين قد جمعت الكثير من الشباب حول هذا النادى وقام بعض الشباب الكويتى المتعلم بزيارة إلى العراق وسوريا وهناك أتصلوا بمراكز الشبيبه فى البلدين وعندما عادوا إلى الكويت بدأوا يعربون عن غضبهم للوجود البريطانى وأخذوا يطالبون بالإصلاح وأبدوا استنكارهم لأفعال البريطانيين فى فلسطين(٣) .

---

(١) د. على محافظه - المرجع السابق ص ١٥٤ .

(٢) د.صلاح العقاد - المشرق العربى المعاصر ١٨٤٥-١٩٥٨ العراق - سوريا - لبنان معهد البحوث الإسلامية والدراسات العربية- القاهرة١٩٦٦ ص١٨.

(٣) كان محمد البراك من العناصر الكويتية المؤيدة لبقاء المجلس التشريعى الذى تم حله فى مارس ١٩٣٩ وكان له بعض المواقف والتصريحات المعادية للسلطة وقد فر إلى العراق ثم الهند فى ١٩٤١ فى أعقاب أزمة المجلس التشريعى وكانت السلطات البريطانية فى المنطقة وفى الهند تراقب تحركاته. توجه إلى الهند كما تذكر السلطات البريطانية بتكليف من نادى المثنى فى بغداد ليعمل ضد بريطانيا كما أن السلطات الفرنسية كانت قد أمرته بمغادرة سوريا التى زارها ثلاث مرات خلال الفترة ١٩٣٨-١٩٤٠ بسبب قلقها من نشاطه السياسى هناك، وقد أرسلت السلطات البريطانية إلى أمير الكويت الشيخ أحمد الجابر فى مايو سنة ١٩٤٦ تخبره بأنها لا ترغب فى بقاء محمد البراك

=

موقف الحركة الإصلاحية ١٩٣٨ - ١٩٣٩ .

كانت الكويت تشهد فى تلك السنوات حركة نشطة تطالب بالإصلاح العام والمشاركة بالحكم عن طريق مجلس تشريعى منتحب وقد وجدت هذه الحركة فى الصحف العراقية ساحة رحبه تنشر فيها مطالبها وكان هدف الصحف العراقية هو إستغلال هذه الحركة على أمل أنها ستساهم فى زعزعة الإستقرار فى الكويت خاصة وأن العراق فى تلك الفترة كان قد عبر عن مطامعه فى تغيير الحدود الكويتية العراقية لصالحه بحيث يضم إليه جزيرتى وربه وبوبيان. هذا وقد أسفرت الحركة الإصلاحية الكويتية عن إنتخاب مجلس تشريعى فى يوليو ١٩٣٨ برئاسة ولى العهد أنذاك الشيخ عبد الله السالم الصباح وقد وضع المجلس قانونه الأساسى الذى أثارت بعض مواده السلطات البريطانية خصوصاً المادة الثالثة(١) وكان أحد مطالب الحركة

=

فى الهند لأجل غير محدود وأنها قررت نفيه إلى الكويت، وبالفعل وصل إليها على ظهر باخرة بريطانية بعد أن تم إبلاغ أمير الكويت بتفاصيل وصوله لكى تتولى السلطات المسئوله فى الكويت مهمة إستلامه وقد وصل الكويت فى أول نوفمبر ١٩٤٦.

10/R/15/5/206, Secret, Extetnal Affairs Department note on Mohamed Il- Barak,

P olitical agency kuwait, dated the nd May 1946 to shaikn sir Ahmed aljabir as Subah/ruler of Kuwait.

أنظر أيضا د. نجاة عبد القادر الجاسم : التطور السياسى والإقتصادى للكويت بين الحربين ١٩١٤ - ١٩٣٩ - القاهرة ١٩٧٣ ص٢١٠-٢١١ .

(١) المادة الثالثة (أن المجلس التشريعى هو المرجع لجميع المعاهدات والتراخيص والاحتكارات سواء كانت داخلية أو أجنبية إذا كانت أى من هذه تحتاج إلى تجديد فأنها لا تعتبر قانونية إلا إذا أطلع عليها وأقرها المجلس).
المرجع السابق .

الإصلاحية ما يلى (السماح المطلق للعرب بزيارة الكويت وعدم منع أى عربى من ذلك مهما كانت الأحوال واتخاذ الإجراءات لإزالة سؤ التفاهم مع الجارات العربيات بهذا الخصوص) .

وكان أحد أهداف الكتلة الوطنية لسان حال المجلس إذكاء روح القومية العربية بين المواطنين وإن الكويت جزء لا يتجزأ من الوطن العربى(١) ولكن أدى حل المجلس التشريعى الأول فى ديسمبر ١٩٣٨ ثم حل المجلس التشريعى الثانى فى مارس ١٩٣٩ ثم نشوب الحرب العالمية الثانية إلى ركود نشاط الحركة القومية إلى عام ١٩٤٥ حين تجمع الشباب القومى فى ندوة متنقلة ولكن صدر أمر بإيقافها فى منتصف عام ١٩٤٦ فحاول الشباب القومى إنشاء ناد أدبى ولكنه لم يتمكن من الحصول على الترخيص من السلطات الرسمية(٢) ثم حدثت نكبة فلسطين فى سنة ١٩٤٨ التى ضاعفت من الإحساس القومى العربى بين الكويتيين فكثرت الكتابات فى المجلات الكويتية حول العروبة وأهميتها.

وبسبب تلك العوامل التى أيقظت الروح الوطنية والقومية عند أهل الكويت فقد شهدت البلاد فى أواخر الأربعينات العديد من مظاهر نمو تلك الروح والحس الوطنى والقومى الذى واكبه الوعى الثقافى والفكرى مما أدى إلى إزدهار الحركة القومية، ومع نمو إعداد المتعلمين فى مدارس الكويت وأولئك الذين أنهوا دراستهم فى جامعات مصر والعراق وبريطانيا دخل الوعى الفكرى والوطنى القومى فى مرحلة النضوج كان من نتيجتها إيجاد صحافة كويتية وتأسيس الأندية فى مطلع الخمسينات وقد أخذت على عاتقها مهمة التنوير العام، ولقد كانت تلك المجلات والأندية وسائل تعبير هامة حيث من خلالها بدأت تظهر التيارات السياسية المتعددة.

---

(١) عبد الله الحاتم المرجع السابق ص١٩٨ - ٢١٠ .

(٢) أحمد السقاف المرجع السابق. ص٢٧ .

المجلات الكويتية والوعى القومى ١٩٤٨-١٩٥٣:

وتأتى فى مقدمة المجلات التى نشرت الوعى القومى وروجت له مجلة «كاظمة» تأسست فى عام ١٩٤٨ وقد جاء فى عددها الأول ما يلى : (إن هذه المجلة عربية بكل ما تنطوى عليه كلمة عروبة ومصلحة العرب وهى مسلمة بحدود ما يفرض الدين السمح من تعاليمه العاليه وهى وطنية انشئت لسد فراغ شعر به كل وطنى ولقد شعرنا وشعر الكثير من الأصدقاء ومحبى الخير بالحاجة إلى إصدار صحيفة تصول فيها أقلام مكبوتة ردحا من الزمن).

وكانت المجلة تهتم بالكتابة عن مشاكل الكويت وعن الموضوعات الأدبية والإجتماعية والعلمية كما أنها أولت اهتمامها نحو قضية فلسطين ، ودعت إلى توحيد الجهود العربية ففى سبتمبر ١٩٤٨ كتب الأستاذ أحمد السقاف تحت عنوان (المحنة الكبرى) (ان تاريخ العروبة مملؤ بالأحداث والمصائب لوقوع الوطن العربى بين قارات ثلاث كانت الموطن المعروف للإنسان القديم - ويضيف - «إن أطول المحن التى عانت منها العروبة هى الإستعمار العثمانى - (واليوم تتكالب على العروبة أطماع القرود المسلحة بأطماع الخنازير» ، وكان يقصد ما يجرى فى فلسطين وكان كاتب المقال يؤكد على ضرورة المقاومة، (فأما أن نخوضها طالت أم قصرت فنعيش كرماء بعد أن نكون قد أدينا حق العروبة وواجب الدين وأما نجبن ونستسلم فنسجل على عروبتنا العار وعلى ديننا الخزى)(١) .

وكانت المجلة تدعو إلى ضرورة التمسك بالتراث وعدم التحرر

---

(١) كاظمة، السنة الأولى، العدد الأول ، (تموز يوليو) ١٩٤٨.

أحمد السقاف من القوميين وقد أختير فى عام ١٩٤٠ فى عام ١٩٤٠ سكرتيراً لجمعية الضاد القومية فى بغداد (٢) د. حسن سليمان محمود الكويت ماضيها وحاضرها منشورات المكتبة الأهلية - بغداد - ١٩٦٨ ص٩٢٤.

من آثاره كما كانت دائما تذكر القراء بأمجاد العرب والمسلمين، ففى عددها السادس نشرت كلمة أشاد فيها كاتبها بعظمة وأمجاد العرب وعقد مقارنة بين الماضى والحاضر «ذلك الحاضر الذى أصبح الصهاينة فيه يقتطعون هذا الوطن العربى المقدس»(١) . وفى نفس العدد دعت وأكدت على ضرورة وأهمية «تنظيم ووضع خطة للتعليم فى المدارس وضرورة إختيار المعلمين المؤمنين بعظمة الوطن العربى وتاريخه ولغته والمتألمين بآلامه المحسسين بإحساسه المتفائلين بمستقبله الزاهر، كما لابد من فحص الكتب المدرسية قبل وضعها بين ايدى الطلاب وحذف ما يتعارض والتوجه القومى»(٢) .

هذه المقالات والأخبار والتعليقات كانت تلهب الحماس الوطنى القومى فى الصدور وتعزز الروح القومية بين القراء كما أنها تعطى أيضاً صورة صادقة عن المستوى الذى وصل إليه الوعى القومى فى الكويت ناهيك عن أنها تعمل على شحذ الهمم وتقوية العزيمة من أجل الإصلاح الداخلى.

كما كانت تنشر مقالات وقصائد للادباء الكويتين من القوميين أمثال الأستاذ عبد الله زكريا الأنصارى والأستاذ عبد الرزاق البصير وكذلك قصائد للشاعر فهد العسكر ولسيدة تدعى (أم أسامة) كانت تدعوا فى مقالاتها إلى ضرورة التوعية الفلسطينية وتلقين الأطفال مبادىء القومية العربية(٣) من ناحية أخرى تناولت المجلة فى بعض مقالاتها شركة النفط وطالبت بضرورة تعيين الكويتيين وتشجيعهم

---

(١) كاظمه - السنة الأولى، العدد٤، تشرين (اكتوبر) بقلم عبد العزيز الغربللى.

(٢) المرجع السابق .

(٣) كاظمة، السنه الأولى، العدد الأول، تموز (يوليو) ١٩٤٨.

للعمل فى وظائف الشركة كما دعت إدارة المعارف إلى تخريج موظفين من الكويتيين للعمل فى الشركة بدلا من الأجانب(١) ، ولكن هذه المجلة التى اتخذت الاتجاه القومى خطا لها منذ البداية لم تستمر طويلا فقد صدر أمر من الجهات الرسمية بإيقافها وذلك فى أعقاب مقاله تحت عنوان «جنود فى الميدان» طالبت فيه بتحسين أحوال رجال التعليم، ولكن بعض الأفكار والعبارات التى طرحتها لم ترض عنها الجهات المسئولة(٢) .

ومجلة «البعثة» كانت - أيضاً - من المنابر التى عبرت عن الوعى القومى وقد صدرت «البعثة» فى ديسمبر ١٩٤٦ وكان يصدرها بيت الكويت فى القاهرة ورئيس تحريرها عبد العزيز حسين الذى كان يشرف على طلبة البعثة الدراسية هناك ثم تولى رئاسة التحرير عبد الله زكريا الأنصارى، ويتولى تحرير موادها طلبه البعثه بالإضافة إلى الأقلام الكويتية والعربية أيضاً من غير الطلبة وكانت تنشر مقالات وطينة وتهتم بالقضايا المحلية والعربية وهذه بعض الأمثلة لما كانت تنشره :

ففى عدد يونية ١٩٤٩ نشرت مقالا حول شركة النفط أشار إلى أن «المناصب الرئيسية فى الشركة وقف على الموظفين الانكليز

(١) كاظمة، السنه الأولى، العدد التاسع، اذار (مارس) ١٩٤٩.

(٢) كاظمة، العدد التاسع، السنة الأولى، اذار (مارس١٩٤٩- يقول الأستاذ أحمد السقاف رئيس تحرير كاظمة أنه بعد صدور الأمر بأيقاف المجلة جاء إليه موظف يعمل لدى الوكالة السياسية البريطانية وقال له أن المجله أهتمت بنشر المديح لبريطانيا لما صدر أمر إيقافها. و «لكن لا يعنى أن عدم كيل المديح للسياسة البريطانية هو السبب فى منع المجلة عن الصدور». مقابلة أجريناها مع الأستاذ أحمد السقاف يوم الأحد ٤ جمادى الأولى ١٤٠٧هـ الموافق ٤ كانون الثانى (يناير) ١٩٨٧.

والأمريكيين وهؤلاء هم موظفو الدرجة الأولى بينما الهنود وقلة من العرب هم يشكلون الدرجة الثانية بما فيهم الكويتيون ويصل عددهم إلى ٧٩ بينما هناك ٥٦٤ هنديا و١٦٣ باكستانيا ويحتل الكويتيون المناصب الثانوية ومستوى حياتهم متوسط أما رواتبهم فهى أقل كثيراً من باقى الموظفين، وذلك بالرغم من أنهم يقومون بأداء ما يوكل إليهم من أعمال مثل غيرهم بل أنهم يقوقونهم اخلاصا» . كما عبر الكاتب على إستيائه من المجلة التى تصدرها الشركة الانكليزية تحت اسم (الكويت) وهى مجلة خاصة بالموظفين وتنشر مقالات متنوعة فى السياسة الدولية. ولكن المهم فى الأمر أن «غلاف المجلة عبارة عن صورة رجل إعرابى رث الثياب كث اللحية قد بلغ من العمر عتيا وتبدو عليه آثار الخمول والإستكانة وهى أول ما يقع عليه نظر القارىء وقد كتب عليها بالخط العريض (الكويتى»(١).

إن هذا النقد دلالة واضحة على نمو الوعى الوطنى، ورفض تمتع الأجنبى بالإمتيازات على حساب المواطن .

كما أن الهجرة الأجنبية إلى الكويت خصوصا الهجرة الإيرانية كانت من العوامل التى اذكت الروح القومية العربية لدى الأهالى الذين شعروا بخطورة وجود الأجانب على عروبة الكويت وحاضرها ومستقبلها، وقد نبهت المجلات الكويتية إلى ذلك وسنتناول فى الصفحات التالية بعض ما جاء فى «البعثة» حول الهجرة الأجنبية.

ففى عددها السادس ١٩٥٢ نبهت إلى خطورة الهجرة الإيرانية التى ترمى إيران من ورائها إلى تحقيق اطماعها فى الكويت وحذرت من خطورة تسهيل هذه الهجرة على مستقبل الكويت وطلبت إلى

---

(١) البعثة، السنة الثالثة، العدد التاسع - شعبان ١٣٦٨هـ يونية ١٩٤٩، بقلم يوسف السيد هاشم.

كل كويتى يكفل أجنبيا الغاء هذه الكفالة لأن ذلك يؤدى إلى وقف الهجرة الأجنبية وقد نشر تصريح حاكم الكويت آنذاك الشيخ عبد الله السالم والذى جاء فيه (انكم أيها الكويتيون تشكون من الأجانب وطغيان الأجانب عليكم وأنتم السبب، اذهبوا إلى الأمن العام وتأكدوا من أننى لم أكفل أحدا منهم وإنما انتم أنفسكم كفلاؤهم وشفعاؤهم فى الدخول إلى البلاد)(١) .

كما أشادت المجلة بالزيارة التى قام بها الشيخ عبد الله السالم إلى العراق وإعتبرتها تتويجاً للحركة القومية ونبهت إلى أن الكويتى هو من احترم لغة البلاد فتكلم بها واعتز بتاريخها فأفتخر به وتعلق بأمجادها ومن تربطه وشائج اللغة والتاريخ والعادات والنزعات القومية بدولة أجنبية واحتفظ بهذه الوشائج وأصر عليها فلا مبرر لإعتباره كويتيا فالكويتى جزء من الوطن العربى(٢).

إذن فإن الحديث عن القومية العربية فى تلك الفترة ترتبط بالتخذير من الهجرة الإيراينة ومن الشعوبية هذه الهجرة التى لم تكن وليدة الخمسينات فقد شهدت الكويت إزدياد الهجرة الإيرانية إليها منذ نهاية الحرب العالمية الأولى وكانت غالبيتهم تزاول بعض الأعمال البسيطة مثل أعمال الشحن والتفريغ فى المينا ونقل المياه إلى المنازل(٣) .

---

(١) البعثة، السنة السادسة، العدد السادس - رمضان ١٣٧١هـ يونية ١٩٥٢م .

(٢) المرجع السابق .

(٣) آلن فلييزر - أبناء السندباد - ترجمة وتعليق د. نايف خرما - الكويت وزارة الإعلام ١٩٨٢ ص٥١٢.

أما مجلة «الكويت» فقد اتخذت نفس الخط الحذر ففى عددها الصادر فى سبتمبر ١٩٥٠ نشرت حول خطورة الشعوبية كلمة نبهت فيها إلى (أن الشعوبية معول أسهم مساهمة فعالة فى هدم القومية وعمل على تدويخ العرب وإثارة الشك فى نفوسهم(١) .

من ناحية أخرى راحت هذه المجلة تدعو إلى نبذ فكرة التفكك وإلى التضامن العربى مؤكدة أن «الإضمحلال والتفكك اللذين تعانى منهما الآمة العربية يعزيان إلى تنافرها وتفريقها وعدم إتفاقها على طريق يؤدى إلى حياة العزة والكرامة» «كما حذرت من الفتن والمؤامرات التى تحاك ضد هذه الأمة» .

تلك نماذج لمقالات وآراء كانت تنشرها بعض المجلات الكويتية أردنا عرضها لإلقاء الضوء على المدى الذى وصل إليه الوعى الفكرى والوطنى فى تلك الفترة. غير أنه لم يكن بالإمكان مع إزدهار الوعى السياسى حماية الكويت من تعدد الإتجاهات السياسية، سيما وأن هذا الوعى كان قد عم الوطن العربى معتمدا على الآحزاب والجماعات

---

(١) مجلة «الكويت» أصدرها المرحوم الشيخ عبد العزيز الرشيد فى رمضان ١٣٤٦هـ الموافق ٢٠ حزيران (يوليه) ١٩٢٨م وكانت تكتب فى شتى الموضوعات الدينية والثقافية وتراجم الشخصيات المحلية وغيرها، ولكنها توقفت بعد عامين من الصدور، وسافر الشيخ الرشيد إلى أندونيسيا حيث أصدرها بالتعاون مع رحاله عراقى أسمه يونس بحرى ولكنها أيضاً توقفت ثم أعاد إصدارها منفردا ولكنها أيضاً لم تستمر ومنذ (يونيه) ١٩٥٠ أعاد السيد يعقوب عبد العزيز الرشيد إصدارها ولكنها توقفت عن الصدور فى نفس العام. أنظر حول الصحافة الكويتية د. حسن عبد الله. تاريخ الصحافة فى الكويت منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية جامعة الكويت ١٩٨٥ ص٣٩ - ٤٥.

الكويت، العدد٤، ذو الحجة ١٣٦٩هـ (سبتمبر) ١٩٥٠.

السياسية والدينية المتعددة ولم يكن المجتمع الكويتى بمعزل عن التأثر بهذه التيارات فكانت هناك عدة منافذ تصل من خلالها تلك التيارات والآفكار إليه كما سنرى.

فالكويت منذ أواخر الأربعينات وبعد بدء تصدير النفط فى يونيه ١٩٤٦ دخلت مرحلة جديدة هامة فى حياتها بدأت خلالها العمل فى سبيل تطوير الخدمات العامة خصوصاً مرفق التعليم كما إزدادت أعداد المتعلمين وبدأت طلائع المبعوثين فى الخارج تعود إلى البلاد، كما أشرنا من قبل حاملة معها الكثير من الأفكار والأتجاهات السياسية المختلفة .

وبدأت الكويت تستقبل الكثير من الوافدين العرب خصوصاً من فلسطين للعمل فى مختلف المجالات المتاحة فى ذلك الوقت، وكان هؤلاء قد جاءوا الكويت وهم يحملون أفكارهم وإتجاهاتهم السياسية والتى سرعان ما إنتشرت بين الشباب الكويتى الذى لم يكن ببعيد عن أحداث الوطن العربى السياسية والاجتماعية والثقافية. وكما يقول الأستاذ السقاف (وقد دهش المدرسون المصريون فى الأربعينات حين جأوا للعمل فى مدارس الكويت التى لا يزيد عددها عن أصابع اليد إذ وجدوا الأحزاب السياسية المصرية موجودة فى الكويت يختلف بسببها كثير من الكويتيين)(٣٢) من ناحية أخرى كان الوطن العربى يشهد حركات تحررية ضد الإستعمار الأجنبى منها حركة القوميين العرب التى كانت تعقد أجتماعاتها بسرية تامة فى بيروت وغيرها

---

(١) أحمد السقاف المرجع السابق. ص٢١- كان عدد المدارس خلال السنوات ١٩٤٦،١٩٤٨ مدرسة ثانوية و ٤ إبتدائية بنين ٢ إبتدائية بنات.

إلا أنها فى الخمسينات بدأت تخرج إلى النور منطلقة إلى الشارع تدافع عن القضايا القومية(١) .

وبحلول شهر فبراير ١٩٥٠ بدأت التغيرات تأخذ شكلا واضحا فى المجتمع الكويتى فقد تولى الحكم الشيخ عبد الله السالم الصباح رئيس أول مجلس تشريعى فى الكويت (سنة ١٩٣٨) وفى عهده شهدت الكويت إنفتاحاً سياسياً وأصبح المجال مهيئاً لظهور وإنتعاش قوى إقتصادية نتيجة للتغير الذى شهدته البلاد بعد إكتشاف البترول وتصديره مما أدى بالتالى إلى ظهور قوى إجتماعية وسياسية جديدة من المتعلمين .

من ناحية أخرى إزداد معدل النمو السكانى وبدأت مرحلة الإنتقال من مجتمع تقليدى إلى مجتمع حديث يأخذ بكل أسباب المدنية والرفاهية، ونتيجة لذلك إزداد تدفق الكثير من الوافدين العرب والأجانب(٢) للعمل فى الكويت وأدى ذلك إلى إحداث تغيير شامل

---

(١) يوسف شهاب - رجال فى تاريخ الكويت - الجز الأول مطابع دار القبس ١٩٨٤ ص١٩.

(٢) نشرت «البعثة» فى عددها العاشر (١٩٥٢) مقابلة مع الشيخ فهد السالم الذى كان يرأس دائرتى الصحة والبلدية والأشغال العامة أشار فيها إلى موضوع الهجرة العربية والأجنبية وطلب إلى الصحف العربية أن تقلل من الدعوة إلى الهجرة غير المنظمة إلى الكويت بحثاً وراء العمل لما ينتج عن مثل هذا النوع من الهجرة من نتائج وعواقب وخيمة لأنه قد لا تكون فرص العمل مهيأة للمهاجرين كما صورتها لهم الصحف لأنهم يأتون بدون ترتيب سابق فالكويت بحاجة إلى الفنيين والأساتذة أصحاب المؤهلات للقضاء على الجهل وتكوين جيل صالح متدين وأضاف (نريد أطباء متخصصين نريد مزيداً من المهندسين الفنيين فى العمارة وشق الطرق والكهرباء).

البعثة، السنة السادسة، العدد العاشر - ربيع الثانى ١٣٧٢هـ الموافق كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٢.

جذرى فى البنيان الإجتماعى للسكان. كما أخذت طبقة المتعلمين تظهر بشكل واضح وتسعى لممارسة دورها فى الإدارة والسياسة وسارت قدما خطوة بعد حطوة فى طريقها. كما بدأت تختفى المهن والحرف القديمة المرتبطة بالبحر وتحل محلها الوظائف العامة مع تأسيس الدوائر الحكومية وإزدهار تجارة العقارات والوكالات العامة.

وحسب تقدير الجمعية الجغرافية الملكية فى سنة ١٩٥٠ «بلغ تعداد الكويت حوالى مائة ألف نسمة»(١) .

دور النـــــوادى :

وإلى جانب الصحافة فقد قامت النوادى الكويتية أيضاً بدور هام فى ذلك الوقت حيث شهدت الكويت منذ بداية ١٩٥١ إنشاء أكثر من ناد أخذ يزاول نشاطه الإجتماعى والسياسى. ففى عام ١٩٥١ افتتح «نادى المعلمين» الذى كان يهدف إلى رفع المستوى الثقافى والرياضى فى الكويت كما جاء ضمن أهدافه وقد أصدر مجلة «الرائد» وتكتب فى شئون التعليم إلى جانب إهتمامها بالقضايا المحلية والوطنية الأخرى .

وهناك «النادى الثقافى القومى» الذى تأسس فى عام ١٩٥٢ من أجل إحياء القومية العربية وصدر أول عدد من مجلته والتى تحمل إسم «الإيمان» فى يناير ١٩٥٣. (وذلك فى أعقاب إتفـاق عـدد من

---

(١) د. بدر الدين عباس الخصوص، دراسات فى تاريخ الكويت الاجتماعى والاقتصادى ١٩١٣-١٩٦١، شركة المطبوعات - الكويت ١٩٧٢ ص١١٥ .

القوميين على ضروة إنشاء ناد خاص بهم)(١) . وكان الرئيس الشرفى للنادى الشيخ عبد الله المبارك الصباح رئيس دائرة الأمن العام.

ويعد هذا النادى(٢) أول تنظيم قومى يظهر بشكل رسمى فى الكويت وكانت مجلة «الإيمان» لسان حال النادى تهتم بقضايا العروبة وبمشاكل الوطن العربى، كما كانت تعمل على نشر فكرة القومية العربية، وقد جاء فى إفتتاحية العدد الأول ما يلى (الشعب العربى شعب خالد ما بقى هذا الوطن الممتد من المحمرة مركز عربستان العربية حتى الدار البيضاء عاصمة مراكش المناضلة ومن لواء الإسكندرونة السليب حتى عدن ومسقط)(٣) كما كانت تدعو إلى التركيز على «القومية العربية فى مناهج التعليم وإلى وضع سياسة ثابتة للتوجه القومى الذى يلزم بها المدرسون إلزاماً حيث تتيح للمدرسين المخلصين الفرصة لتأدية رسالتهم القومية سادة الطرق على

(١) أحمد السقاف ـ المقابلة .

أسماء عدد من القوميين الذين قاموا بدور فى إنشاء النادى :
أحمد زيد السرحان ـ عبد الرزاق البصير ـ عبد الله يوسف الغانم ـ عبد الله أحمد حسين الرومى ـ يوسف مشارى البدر ـ د. أحمد الخطيب ـ عبد الحميد الصانع ـ صاحب مجلةكاظمة ـ نصف النصف ـ أحمد العدوانى ـ محمد السداح ـ عبد العزيز أحمد العيسى.

يوسف شهاب ، المرجع السابق ص٢٤-٤٧-٩١ .

(٢) فى عام ١٩٥٢ تأسس فى الشارقة النادى الأدبى الذى أشترط أن يكون العضو عربياً كعروبة تلك الإمارة. وكانت تصدر فى البحرين فى نفس الفترة مجلة بإسم صوت البحرين ذات إتجاه قومى، مجلة الإيمان، السنة الأولى، العدد الأول، كانون الثانى (يناير) ١٩٥٣ .

(٣) المرجع السابق .

أى إتجاه آخر قد يأخذ مجراه إلى اذهان الطلاب» ، كما نبهت إلى ضرورة أن تبرز المناهج الدراسية الدين الحنيف وماله من إرتباط قوى بالعرب والعروبة ذلك الإرتباط الذى لا تفصم عراه الأيام كما أكدت على ضرورة أن يكون المدرس مؤمنا بالقومية العربية(١) وطالبت بمنع اطلاق كلمة «لاجئين» على الفلسطنين(٢) هذا بالإضافة إلى اهتمامها بالشئون المحلية مثل غلاء الأسعار وإرتفاع إيجارات المساكن ومشاكل الوطن العربى مثل مشكلة الصناعة(٣) . هذا وقد كان للحركة القومية فى الكويت دورها الفاعل فى تأسيس النوادى الرياضية حيث كانت تلك النوادى تشكل قاعدة جماهيرية تنشر من خلالها الفكر القومى العربى.

لقد واكب هذا النشاط القومى إهتمام السلطات الرسمية فى الكويت بالترابط مع العرب ففى سنة ١٩٥٣ أمر أمير البلاد الشيخ عبد الله السالم الصباح بأن تكون الأولوية فى جميع الوظائف لأبناء الوطن العربى وإن يستبعد الأجانب إلا فى حالة الضرورة القصوى وعندئذ لا بد من التدقيق والدراسة فى إختيارهم .

وكما أسلفنا الإشارة فقد أثارت زيارة الشيخ عبد الله السالم إلى العراق المشاعر وإشادت العديد من المجلات بتلك الزيارة منها مجلة اليقظة التى كانت تصدر منذ عام ١٩٥٢ ويحررها طلبة ومدرسو المدرسة المباركية فى الكويت وكانت ملتقى الأقلام القومية، وفى عددها الثالث نشرت كلمة جاءت فيها «ولقد شاء سمو الأمير الجليل

---

(١) المرجع السابق .

(٢) الإيمان، السنة الأولى، العدد الثانى، ١٩٥٣ .

(٣) الإيمان، السنة الأولى، العدد الثالث، آذار (مارس) ١٩٥٣.

أن يطعن الإقليمية فى الصميم وشاءت إرادة الأمة ممثلة فى شخص عاهلها الكريم أن تحارب الشعوبية، فالوطن العربى معرض لغزوات منظمة تشنها عليه الأمم ذات الأغراض المريبة والصواب إقفال باب الهجرة فى وجوه غير العرب من أى أمه كانت ثم تنظر إلى المهاجرين القدماء فمن إندمج فينا لغة وأهدافا وأمجادا فهو عربى ومن إحتفظ برطانته وتمسك بأعجميته فهو أجنبى يعامل بما يعامل به الأجانب»(١) .

وفى ذلك الوقت ومع نمو الوعى القومى العربى ظهرت بعض الاتجاهات والتيارات الفكرية والسياسية المتعددة فهناك الإتجاه الإسلامى والإقليمى إلى جانب القومى.

كما شهدت الكويت أيضاً ظهور حركة ماركسية أعضاؤها من العراق ولبنان وفلسطين من العاملين فى حقل التعليم وشركة النفط فى الكويت وكان للحركة نشرة إسبوعية تعرف بإسم (راية الكويت) ، تتولى الرد على مجلة الإيمان والملحق الإسبوعى للنادى القومى (صدى الإيمان)(٢) .

أما الشباب الكويتى فقد كان يتجمع مابيـن الحـركـة القوميـة

---

(١) اليقظة، السنة الأولى، شعبان ١٣٧١هـ مايو العدد الثالث.
الكلمة السيد عبد الله حسين الرومى ناظر مدرسة النجاح آنذاك ـ وكان ولا يزال من القوميين المعرفين.

(٢) أحمد السقاف ـ المرجع السابق ص٢٢.

وجمعية الإرشـاد الإسلامى وهى جماعة الأخوان وجمعية المسلمين(١) ولها مجلة بإسم (الإرشاد الإسلامى) فى حين جذبت النزعة الاقليمية بعض الشباب الذين كانوا يرون أنه يجب الإهتمام بالقضايا المحلية لحماية الكويت من الأخطار والمشاكل ولقد كانت هناك صراعات فكرية بين هذه الجماعات والتيارات فجمعية الإرشاد الإسلامى كانت لها صلات مع المركز الرئيسى للإخوان المسلمين فى مصر وقد جلبت بعض المرشدين والمحاضرين من هناك لإلقاء المحاضرات فى الجمعية. أما النادى الثقافى القومى فقد كانت له إرتباطات أيضاً بالجماعات القومية اللبنانية والفلسطنية فى داخل الكويت وخارجها(٢) .

ويبدو أن هذه التيارات السياسية والفكرية والخلافات فيما بينها أثارت بعض الشباب وغيرهم من الذين كانوا يخافون على الكويت من نتائج تلك الخلافات، وقد تولت مجلة «البعثة» نشر العديد من المقالات حول هذا الموضوع مبينة خطورة الخلافات بين التيارات السياسية المتعددة والمتباينة على حاضر ومستقبل الكويت.

وفى هذا الصدد كتبت كلمة بقلم رئيس تحريرها عبد الله زكريا الأنصارى بعنوان (إلى أين نحن سـائرون) أشـار فيها إلـى

---

(١) أنشأ هذه الجماعة حسن البنا سنة ١٩٢٨ وقد نشر فى مقال فى مجلة الإخوان المسلمين فى عدد ذى القعدة ١٣٦٢هـ أكد فيه على أهمية العودة إلى الوحدة العربية وقد جاء فيه (هذا الوطن العربى وحدة جغرافية لا تنفصل بينها حواجز طبيعية وهو كذلك وحدة روحية بسريان الإسلام فى عنق أبنائه جميعاً).

د/ على محافظة ـ المرجع السابق ص١٤٧-١٤٨.

(٢) أحمد السقاف ـ المقابلة .

الموجات من الآراء والأفكار الموجودة فى الكويت التى هى وليدة الظروف الطارئة والحوادث اليومية الجارية ودعا إلى توحيد الهمم والعزائم فى هذه المرحلة وإلى توحيد الكلمة وأن يوجه النشىء توجيهاً أخلاقياً صحيحاً، وكتب يقول «والذى يحز فى نفوسنا ويؤلمنا حقاً هو أن نرى شبابنا تتقاذفه هذه الأمواج من الاختلافات فى الآراء والأفكار حتى غدونا فى هذا الوطن الصغير أحزاباً أو على الأصح شبه أحزاب لأن الأحزاب الحقة تقوم على أهداف معينة تعمل على الوصول إليها دون الإضرار بالصالح العام»(١) .

كما نشرت فى إفتتاحية العدد العاشر كلمة بعنوان «هذه العصبية» «ومما جاء فيها» تجتاح الكويت هذه الأيام تيارات متعاكسة مضادة فتحدث هديرا مدوياً كهدير الخصم الهائج فمن دعوة إلى رجعية بالية ومن مناداة إلى حرية هو جاء إلى تعصب أرعن وأنت لا تعرف من هذه التيارات المتعاكسة المتضادة إلا أن تنطوى على الهم والحزن والألم، إن أنصاف المتعلمين أشد ضررا على الأمة من الجهله والعجيب فى الأمر أن الكويت اليوم مبتلاه بهذه الفئات التى يعذيها وينميها ويذكى أوارها أقل من أنصاف المتعلمين وان الأعوان الأشرار يتخذون إنصاف المتعلمين من هذه الفئات مطايا لهم يركبونها إلى حيث أغراضهم الشخصية»(٢).

---

(١) البعثة، السنة السادسة، العدد السابع - ذو الحجة ١٣٧٢هـ،أيلول (سبتمبر) ١٩٥٢م.

(٢) البعثة، السنة السادسة، العدد العاشر - ربيع ثان ١٣٧٢هـ، ديسمبر١٩٥٢.

لقد كانت هذه الخلافات نتيجة وأمتداد لما كان يجرى فى البلدان العربية من تلك التيارات فكان هناك من ينادى بالوحدة العربية إلــى جانب مجمــوعــة

=

والواقع أن الأمر فى ذلك الوقت كان بحاجة إلى حوار ديمقراطى مباشر بين كل هذه التيارات بالإضافة إلى تفهم كل تيار حقيقة أفكار ومبادىء وأهداف التيار والإتجاه الآخر على نحو عميق، ولكن هذه الخلافات كما أشرنا صورة لما كان يجرى فى البلدان العربية من خلافات وصراعات بين التيارات الفكرية والسياسية المتعددة. وكانت كل جماعة تحذر من نتيجة الخلافات فها هى مجلة «الإرشاد الإسلامى» تحذر من خطورة هذه الخلافات على الكويت وكذلك إلى خطورة إنتشار ظاهرة المنشورات فى الكويت التى تطالب بالديمقراطية والإصلاح العام وتهاجم الوجود البريطانى كما أنها كانت تهاجم الإدارة والأوضاع الداخلية بشكل عام وكتبت «راجت فى الأيام الأخيرة ظاهرة نأسف لها هى هذه المناشير التى نربأ بالشباب الكويتى أن يستغل أسمه فى تذييلها لسببين أولهما أنها كما يظهر ليست خالصة لوجه الله سبحانه وتعالى فيما يعود بالنفع على الوطن وإنما الغرض منها الإصطياد فى الماء العكر وثانيهما أن العمل الجرىء المنتج الذى يبتغى إرضاء الله هو الذى يرفع شأن الوطن لا المنشورات المبثوثة فى الظلام لا سيما وولاة الأمور ليسوا بمعزل عن الشعب بل يسرهم أن يتقدم كل مخلص بما يرى لرفع الظلم وإزالة الأخطار»(١).

=

متمسكة بالاقليمية وأخرى تسلم بوجود أمة عربية ولكنها ترى أن المصلحة تكمن فى عدم الوحدة بين البلدان بمعنى إبقاء كل دولة مستقلة عن الأخرى، وهناك من يدعو إلى إتحاد بين بعض الدول.

أبو خالدون - ساطع الحصرى - أبحاث مختارة من القومية العربية - مركز دراسات الوحدة العربية - سلسلة التراث القومى الأعمال القومية لشاطع الحصرى - ١٧ يونيه ١٩٨٥ ص٢٧.

(١) مجلة الإرشاد - العدد الأول - ذو القعدة ١٣٧٢ أغسطس ١٩٥٣.

ولا شك أن ظهور هذه الخلافات على صفحات المجلات هى ظاهرة صحية وتدل على وجود حرية الرأى والتعبير فى الكويت إلا أن ذلك لم يكن يعنى عدم وجود رقابة على المجلات فقد كان ذلك من مهام رئيس الأمن العام الذى كان يطلع على كل عدد يصدر وكان فى بعض الأحيان يعنف صاحب المقال(١) . الذى يرى أنه قد تجاوز المسموح به .

إذن فقد ساهمت الأندية والصحافة الكويتية فى رفع المستوى والوعى الفكرى والسياسى والوطنى فى البلاد وكذلك كان لها دورها الملموس فى إيقاظ الروح القومية والدفاع عن العروبة.

المخاوف البريطانية من إنتشار الوعى القومى فى الكويت:

كانت منطقة الخليج العربى حتى عام ١٩٤٧ خط دفاع أمامى للاستعمار البريطانى فى الهند وبعد إستقلال الهند لم تقل أهمية هذه المنطقة بل تضاعفت بسبب الثروة النفطية الهائلة بالإضافة إلى العوامل السابقة والتى تتركز فى موقعها الاستراتيجى.

وكان يهم السلطات البريطانية إبقاء منطقة الخليج العربى على وضعها الراهن من حيث إرتباطها بإتفاقيات مع بريطانيا منذ عام ١٨٢٠ حين تم عقد إتفاقية «السلام العامة» والتى لم تكن الكويت أحد أطرافها ولكنها أرتبطت مع بريطانيا بإتفاقية حماية فى يناير ١٨٩٩ جعلت الحكومة البريطانية هى المسئولة عن شئون العلاقات الخارجية للكويت إلا أن السلطات البريطانية بعد إكتشاف النفط فى أراضى الكويت فى عام ١٩٣٧ حرصت على أن يكون لها بعض

---

(١) أحمد السقاف ـ المرجع السابق ص٢٧-٢٨ .

الإشراف على الشئون الداخلية، وكانت ترى أهمية تحقيق التنمية والتطوير فى هذه المنطقة وبخاصة فى البلدان التى بدأ بإنتاج البترول من أراضيها وذلك للحيلولة دون ظهور رد فعل يطالب بإصلاح عام معاد لبريطانيا.

محاولة فرض الرقابة عل التعليم :

حاولت بريطانيا فرض الرقابة على التعليم فى الكويت نظرا لما يشكله من خطورة على مصالحها إذا ما أستمر بعيدا عن توجيهها ورقابتها، ولذلك فقد أثار المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى أنتباه حكومته فى تشرين أول (أكتوبر) سنة ١٩٣٨ إلى مساوىء إيفاد الطلبة الكويتيين للدراسة فى بغداد. كما نبه إلى أن هناك حركة معادية للسياسة البريطانية هدفها تقويض الوجود البريطانى فى العراق واقترح إيفاد الطلبة إلى كلية فكتوريا فى الإسكندرية(١) أو إلى الجامعة الأمريكية فى بيروت ولكن لم يوافق الشيخ أحمد الجابر ولا مجلس المعارف فى الكويت على هذا الإقتراح(٢) واستمر أرسال الطلبه إلى العراق للدراسة هناك.

---

(١) نبه رئيس الجامعة الإمريكية فى بيروت Bayard Didge فى تقرير أعده لأمناء الجامعة فى صيف ١٩٣٩ إلى أن الشرق الأوسط فى صيف ١٩٣٩ فى نهاية مرحلة طولها ٢٠ عاماً وأن عدة آلاف من الأمريكيين الذين عاشوا فى الشرق الأوسط خلال العشرين عاما الماضية لاحظوا فى العالم العربى رد الفعل المعادى للتحكم السياسى الإنجليزى والفرنسى.

John D. Novo – American Interests and Policies in the Middle East 1900 = 1939, Minnossetta press– 1968, p.381.

(٢) صالح شهاب ، المرجع السابق ص٢٠٦ .

1- 0 R/ 15/ 196 – No. 22/ 4/ 13.

ولكن فى عام ١٩٤٠ وبعد محاولة العراق التدخل فى شئون الكويت الداخلية ومحاولتها إستغلال أحداث المجلس التشريعى فى ١٩٣٨-١٩٣٩ وإستمرار الدعاية العراقية ضد الكويت والحكم فيها وبروز المطامع العراقية فى الأراضى الكويتية إزاء هذه التطورات لم يكن أمام الشيخ أحمد الجابر إلا التشدد فى أمر إرسال الطلاب إلى العراق ولذلك طلب من المسئولين فى دائرة المعارف إتخاذ الترتيبات اللازمة لإنشاء صف عال فى الكويت أو إيفاد المبعوثين إلى مدرسة البحرين العالية(١) .

وفى عام ١٩٣٩ وبتكليف من ممثل المجلس الثقافى البريطانى فى العراق قام إدريان فالنس أحد الخبراء ومن القائمين بالتدريس فى جمعية الشبان المسيحيين هناك وبعد موافقة الشيخ أحمد الجابر ومجلس المعارف بزيارة الكويت للإطلاع على شئون التعليم فى مدارسها وأعد تقريراً للسلطات البريطانية تناول فيه كل ما يتعلق بشئون التعليم فى الكويت، ويبدو أنه لاحظ اهتمام الطلبة بالأمور السياسية ومشاكل الوطن العربى وثورة فلسطين لذلك نجده بعد أن أمتدح المستوى وشرح السلبيات والإيجابيات اقترح وضع لائحة أو قانون لتحذير المدرسين والطلبة من التدخل فى الأمور السياسية وان من يخالف هذا الأمر سيعاقب بالطرد من المدرسة (٢) كما تعرض التقرير للمناهج الدراسية وركز على كتاب «تاريخ الأمة العربية»

---

(١) من الشيخ أحمد الجابر حاكم الكويت إلى المعتمد السياسى فى الكويت جالوى عدد ١/١/ ١٣٥٤هـ جمادى الثانى ١٣٥٩هـ أغسطس ١٩٤٠م.

(٢) 1 - 0 R/ 15/ 196- Kuwait 28 June 1939, Valleince to Major Galloway.

تأليف محمد عزه دروزه(١) وكان يدرس لطلبة الصف السادس الابتدائى(٢) . بحجة أن هذه الكتب ذات تأثير إيجابى على الوعى القومى وهذا مالا تريده السلطات البريطانية وبعد موافقة الحكومة البريطانية على إقتراح المقيم السياسى بشأن مثل هذه الكتب أرسل الإقتراح إلى الشيخ أحمد الجابر وقد تضمن إعداد كتاب عن تاريخ الكويت وآخر عن البحرين وكتاب ثالث يتناول موضوع العلاقات البريطانية ودور بريطانيا مع دول الخليج العربى، على أن يتم إعداد هذه الكتب تحت الإشراف البريطانى بغية غرس الروح الوطنية الخاصة بالكويت على نحو إقليمى كما تريد السلطات البريطانية(٣) . وتم التشاور مع السلطات الرسمية فى الكويت بشأن تأليف كتاب يتناول التاريخ الوطنى وجرت عدة إتصالات بين المسئولين البريطانيين لدراسة تكلفة هذه الكتب وتكليف فالنس القيام بهذه المهمة .

كما سعت السلطات البريطانية من ناحيتها إلى تعيين فالنس كمراقب على التعليم فى الكويت وحجتها فى ذلك تلافى المخاطر المتوقعة من تأثر الشباب الكويتى بالتيارات السياسية المعادية لبريطانيا. والتى فى رأيها ستعود بالضرر على الكويت.

---

(١) أحد أعضاء اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربى الذى كان سيعقد فى ١٩٢٣ وقد بذلت بريطانيا جهودها للحيولة دون إنعقاده .

ناجى علوش - المقاومة العربية الفلسطينية - ١٩١٧ - ١٩٤٨ سلسلة كتب فلسطينية مركز الأبحاث - منظمة التحرير الفلسطينية بيروت ٧٤.

(٢) صالح شهاب ، المرجع السابق ص٧٦ .

(٣) 1- 0 R/ 15/ &/ 196-Political Agencu Kuwait 15Th sep. 1939 conf. No. C/ 361 Political Resident Bushire.

وأمام الإلحاح البريطانى ومع تطور الأحداث بشكل عام سواء المحلية أو الأقليمية فقد وافق الشيخ أحمد الجابر على إقتراح تعيين مراقب شريطة ألا يكون مقره فى الكويت(١) وتم تعيينه بحيث يكون مقره فى البحرين لأنه المسئول عن شئون التعليم هناك.

والحقيقة أن المحاولات البريطانية لتوجية التعليم وتحديده بمسار يخدم مصالحها لم تنجح .

ومن جانب آخر فقد رأت السلطات البريطانية أن الإهتمام بالخدمات العامة كالصحة والتعليم من الأمور الأساسية لأن إهمالها وسط شيوع الوعى العام بين الأهالى وإنتشار المذياع وإطلاعهم على مجريات الأمور السياسية. فى البلدان الأخرى يثير غضب الأهالى. كما كانت تلك السلطات ترى أن يشترك الأهالى فى الكويت فى خطط التنمية العامة وذلك لمنعهم من الوقوع تحت تأثير أصحاب الآراء المتطرفة.

ولذلك فقد أهتمت تلك السلطات سنة ١٩٥١ بالعمل على إنشاء مركز للمجلس الثقافى البريطانى يمارس نشاطه فى الخليج العربى من مقره فى الكويت وقد رأت فى إنشائه الخطوه الأولى فى طريق مقاومة النفوذ القومى فى الكويت الذى كان يعمل ضد المصالح البريطانية(٢) فقد كان المهم فى نظرها هو محاصرة المد القومى فى هذا البلد وقد حاولت بريطانيا السيطرة على كل شئونه وخصوصاً الشئون المالية وسعت منذ ١٩٤٦ والسنوات التى تلتها لـدى الشـيخ

(١) صالح شهاب ، المرجع السابق ص٢٣٩-٢٤٠.

(٢) F- 0 371/ 109936-81724-Political Agencu Kuwait 22 nd. DEC. 1953.

أحمد الجابر ثم الشيخ عبد الله السالم بقبول تعيين مستشار مالى بريطانى فى الكويت يشرف على الشئون المالية ولكن الشيخ أحمد رفض هذا الإقتراح، كذلك الحال بالنسبة للشيخ عبد الله السالم وقد أرجع المقيم السياسى موقف الشيخ أحمد الجابر إلى إنخفاض المكانة البريطانية بعد إستقلال الهند وغيرها من البلدان التى كانت ترزح تحت نير الإستعمار البريطانى وإلى ظهور الحركة الوطنية فى الوطن العربى ضد النفوذ الغربى(١) وقد أدرك مكتب الشرق الأوسط البريطانى فى القاهرة خطورة إستمرار محاولة السلطات البريطانية فرض المستشارين على إمارات الخليج العربى خصوصاً وإن المستشار البريطانى فى البحرين (بلجريف Palagrave كان موضع نقد شديد من الأهالى هناك بسبب دكتاتوريته وتدخله فى كل الأمور وكان المكتب يرى أنه ليس بالإمكان إرجاع الزمن إلى الوراء خصوصاً بسبب يقظة الشعوب العربية التى أخذت فى النمو والإنتشار فى بلدان الخليج العربى.

أما بالنسبة للكويت فقد كان رأى المكتب «إن أحمد الجابر والأهالى فى الكويت يعلقون أهمية كبيرة على إستقلالهم وإذا فرض عليهم مستشار وأجبروا على أن يعطوه سلطة تنفيذية فإن النتيجة ستكون عدم التعاون معه وبالتالى تنعدم الفائدة من وجوده. أما فيما

---

(١) كان رأى المقيم السياسى أنه فى حالة تعيين المستشار فإنه يجب أن يقدم النصح فى كل الأمور الأقتصادية والتنمية الاجتماعية وأن لايحصر نفسه فى الأمور المالية فحسب وأن لايحاول أن يظهر نفسه وكأنه الحاكم الفعلى للدولة كما هو حاصل فى البحرين فالمطلوب أن يمارس نفوذاً كبيراً داخل إدارة الدولة وهو فى الظل بل يفضل أن لا يعرف اللغة العربية حتى لا يتدخل بين الشيخ وشعبه.

F- 0 371/68319-The Residency in the Bahrain-17th APR.

يتعلق بموضوع الإصلاح الإدارى والاجتماعى والتنمية الاقتصادية فإن رأى المكتب وكان ذلك فى عام ١٩٤٨ أنه «غير متأكد من أن هناك شيئاً يحتاج إلى الاصلاح بصورة ملحة فى الإداره الحالية التى «لا يوجد لديها دستور مكتوب، ناهيك عن أن الشيخ يتبع أسلوب استشاره كبار الشخصيات فى البلاد، ويبدو أنه على إتصال وثيق بالمشاعر الشعبية ولديه خطط كثيرة لإصلاح المدينة وإقامة المبانى والمستشفيات»، ولكن السؤال هو كيف سيتم إنفاق عوائد البترول حيث إن مشروعات تخطيط المدن لا تمتص كل العوائد مما يعنى أن الإنفاق لم يكون فى مستوى تزايد حجم الأرباح»، ولذلك فقد أدرك المكتب إن وجود المستشار قد لا يصل إلى حلول ولكنه سيساعد على منع وقوع أخطاء جسيمة»(١) بعبارة أخرى فإن السلطات البريطانية كانت ترى أن الكويت وغيرها من دول الخليج العربى لن تجد مجالات كافية تنفق عليها من ثروتها النفطية. على أية حال فإنه مع تزايد الإنتاج البترولى إزداد الإهتمام البريطانى بالكويت، فقد تجاوز إنتاج شركة البترول فى عام ١٩٥١ ثلاثة أضعاف أرقامها القياسية السابقة وأنتجت لأول مرة نصف مليون برميل من النفط الخام، وقد بلغ الإنتاج فى شهر ديسمبر أكثر من ٦٠٠ ألف برميل فى اليوم و ٧٠٠ ألف فى أغسطس (أب) و ٨٠٠ ألف فى ديسمبر (كانون الأول) وعند نهاية سنة ١٩٥١ تم شحن ٢٨ مليون طن مقابل ١٧ مليون فى سنة ١٩٥٠(٢) وكان من المتوقع أن يصل معدل الإنتاج اليومى فى عام ١٩٥٢ إلى ٩٠٠ ألف برميل، كل هذه

---

(١) F- 0 371/6819-British Mid-east Divsion-Cairo 8the. APR. 1948.

(٢) F- 0 371/68323-Kuwait Administration, 1951.

التطورات جعلت الوكيل السياسى يلفت نظر السلطات البريطانية إلى وضع الكويت وأن الأمر يتطلب تقديرا جاداً فالإقتصاد الداخلى فى الكويت قد وصل إلى نقطة تحول خطيرة وما حدث فى عبدان من تأميم للنفط قد تنتقل عدواه بسرعة إلى أماكن أخرى خصوصاً وأن جامعة الدول العربية تراقب الوضع عن كثب، من هنا أقترح الوكيل السياسى بحث هذه التطورات مع شركة بترول الكويت التى هى الأخرى قلقة من إحتمال إنعكاس أحداث عبدان على الكويت(١) ، ولكن لم يكن الأمر وحده محور الإهتمام البريطانى .

فقد كانت المخاوف البريطانية تدور حول القومية العربية والشيوعية ايضاً وكما يقول أحد التقارير البريطانية سنة ١٩٥١ «أن هذا العام يمر هادئاً وأن المشيخات وسلطنة عمان لم تتأثر بالأحداث الدولية ولا يوجد بعد ما يشير إلى ظهور نفوذ شيوعى. أما بالنسبة للقومية العربية فقد ظهر ميل بسيط نحوها من جانب الأهالى والحكام الذين أبدوا إستعدادا ورضا نحو قرار جامعة الدول العربية بشأن الإمدادات البترولية إلى فلسطين»(٢) أما الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت فكان رأيه «أن جامعة الدول العربية لم تتوغل

---

(١) F- 0 371/91260-Political Agency Kuwait 16th. Oct. 1951.

(٢) أوقفت الحكومة العراقية ضخ النفط فى الأنابيب التى تربط بينها وبين حيفا فى فلسطين عام ١٩٤٨ وقد هددت الدول العربية الأخرى شركات البترول التى كانت تقوم بعمليات التنقيب فى فلسطين بأنها ستتخذ الإجراءات المناسبة ضدها ما لم توقف نشاطها هناك وقد أستجابت الشركات للأنذار.

د. صلاح العقاد ـ البترول وأثره فى السياسة والمجتمع العربى ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٢ ص١٣٢.

بعد فى الكويت ولكن هناك دعاية ضد بريطانيا تصل إلى الكويت من خلال الصحف المصرية والعراقية وغيرها، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن التعليم يقوم عليه مدرسون يتحدثون اللغة العربية وهم الذين تتعاقد معهم إدارة المعارف الكويتية ومن هنا بات متوقعا مع الإنتشار العام للتعليم فى الكويت أن ينشأ جيل له أراء تتعارض وتختلف مع الآراء البريطانية بل ومع أراء الآباء ممن عاصروا الوجود البريطانى فى المنطقة، ومع أن هذا التغيير لم يتغلغل فى أوساط طلبة الكويت تغلغلا قوياً إلا أنه آت بلا شك تشجع عليه عوامل كثيرة، فبالإضافة إلى الوعى الناتج عن التعليم هناك دعاية وإشاعات وأحاديث تتناول ظهور القوات البحرية الإمريكية وتعيين قنصل أمريكى فى الكويت وكذلك تطورت أحداث إيران ومصر والعراق ضد الوجود البريطانى ناهيك عن المناقشات التى كانت تدور حول الحرب فى كوريا كل هذه الأحداث نالت من سمعة بريطانيا وأضعفت مركزها فى العالم بصفة عامة»(١) .

ظلت السلطات البريطانية فى المنطقة ترصد كل الخطوات القومية وتقدم الإقتراحات «لمواجهة النشاط القومى وللحد من إمتداد نشاط جامعة الدول العربية إلى إمارت الخليج العربى التى لم تعد تعيش فى عزلة سياسية وبخاصة بعد إكتشاف البترول فى أراضيها فقد أصبحت الكويت وقطر والبحرين ذات دخل ضخم شجع الكثيرين على التوافد إليها طلبا للعمل وإزدادت هذه الهجرة إليها مع إعلان شركات البترول عن تقدم الإنتاج فيها، من ناحية أخرى فقد كانت بريطانيا حريصة على توجيه التعليم وفق مصالحها ومع ذلك

---

(١) F- 0 371/91260-Political Agency Kuwait 16 Oct. 1951.

فإن إنتشاره وإزدياد وسائل الاتصال بالوطن العربى والغرب قد أدى إلى تزايد الوعى والنشاط السياسى بين الشباب وسهل ظهور وإنتشار العديد من الإتجاهات المختلفة التى أوجدت بيئة خصبة للشعور القومى (المتطرف) كما ترى السلطات البريطانية فى أماكن أخرى فى الشرق الأوسط أيضاً»(١) .

هذا وقد نبه مكتب الشرق الأوسط البريطانى إلى أن الزيادة التى قام بها الشيخ عبد الله السالم أمير الكويت إلى العراق تعد إشاره إلى الاهتمام المتزايد والمباشر الذى توجهه الدول العربية لشئون الخليج العربى(٢) خاصة وأن جامعة الدول العربية قد أتخذت بعض الخطوات المباشرة فى إتجاه إمارات الخليج حين وجهت الدعوة إلى أمير الكويت لحضور مؤتمر ثقافى فى أوائل ١٩٥١ ثم المناسبة الثانية فى سبتمبر (أيلول) ١٩٥١ حين أبدت الجامعة رغبتها فى إرسال وفد إلى إمارات الخليج لحث حكامها على التعاون لمنع وصول البترول إلى العدو الصهيونى فى فلسطين.

وكان أمتداد نشاط جامعة الدول العربية(٣) نحو إمارات الخليج

---

(١) F - 0 371/98333 - 8 1662 - British Middle East Office, - 20 May 1952.

(٢) جاء فى برتوكول الإسكندرية الخاص بالجامعة ما يلى (أن مهمة مجلس الجامعة النظر فى شئون البلاد العربية ومصالحها وتشمل شمال أفريقيا و إمارات الخليج العربى، وقد أصدر المجلس قرارا فى (يونيو) ١٩٤٦ يوصى فيه الحكومات العربية العمل من أجل حرية البلاد العربية غير المستقلة .
سامى حكيم - ميثاق الجامعة العربية - الطبعة الأولى١٩٦٦ ص١١٦-١٣٢.

(٣) تقول إحدى الوثائق البريطانية ما يلى - ساهمت بريطانيا فى إنشاء جامعة الدول العربية لجعلها قاعدةللأمن الأقليمى لترتبط بين بريطانيا بتحالفات

-

العربى يزعج السلطات البريطانية التى أرادت أن تستفيد من ثروة المنطقة بمفردها وراحت هذه السلطات تفكر فى الكيفية التى تواجه بها اليقظة القومية فأقترح مكتب الشرق الأوسط تقوية المشيخات وتأمين تقدمها الاقتصادى والاستفادة من وسائل الإعلام المختلفة فى دعم النفوذ البريطانى ، كإنشاء إذاعة فى البحرين تكون فرعاً من محطة إذاعة الشرق الأدنى فى قبرص وتربط بإذاعة الكويت(١) كما برز إقتراح إصدار جريدة باللغة العربية تتولاها شركة البترول وتتناول بعض الموضوعات المعيشية مثل أخبار الرز فى عبدان(٢) إلا أن وزارة الخارجيــة البريطانيــة لم تؤيد هــذه الإقتراحات مكتفية

عسكرية وبذلك تتمكن بريطانيا من إيجاد معارضه فعالة ضد الإتحاد السوفياتى هذا وقد كان بعض المسئولين البريطانيين يطلقون صفة (المهيجون) على معارض السياسة البريطانية وتقول الوثيقة أيضاً۔ لقد كانت بعض الدول العربية مثل سوريا ومصر والعراق تسير وفق الدساتير البريطانية الديمقراطية مما أوجد طبقة من المحامين (المهيجين) للشعب أما الدول ذات النظام الاوتوقراطى مثل الأردن والسعودية فقد أظهرت إستقرار خلال السنوات العشر الأخيرة أكثر من غيرها).

F- 0 816-156 CIA. 29470- Memorandum, Political Pegrouping in the Middie East, July 1949, from Glubb.

(١) F-o 371/98333- 81662 British Middie East Office G.H.Q. MEIF, 17-20 May 1952, Conf., To Edin F.O.

بدأت إذاعة الكويت بث برامجها فى١٢ (مايو) ١٩٥١۔ عبد الله الحاتم ۔ المرجع السابق.

(٢) F-o 371/98333- 81662 Miuntes Conf. 1/8.

بتأييد إقتراح تحسين بث الإذاعة البريطانية - القسم العربى - ومحطة إذاعة الشرق الأدنى(١) .

ومع إعتراف المقيم السياسى بخطورة إنتشار الوعى القومى إلا أنه كان يرى «ان الصورة ليست سوداء كما يصورها مكتب الشرق الأوسط. فبأستثناء الكويت فإن الشعور القومى ضئيل جداً فى إمارات الخليج العربى، من ناحية أخرى لم يكن التعليم فى نظره يشكل خطورة على مركز بريطانيا فهو «يتقدم ببطء وبخاصة ما يتعلق منه بالمرحلة العليا ثم أن سياسة شركات البترول تقوم على إستخدام الكثير من العرب المتعلمين حتى بالنسبة لكبار الموظفين من هنا فقد بات محتملا أن تمتص الشركات كل العرب المتعلمين لعدة سنوات قادمة ومع وجود الوظائف فإن النقد سيكون ذا طبيعة صحيه فلا يأخذ شكل الإضطرابات ومن جهة أحرى سيكون من غير المحتمل أن تبدأ جامعة الدول العربية حمله لطرد بريطانيا من الخليج العربى. وإن برزت بين الحين والآخر فى الصحف العراقية والمصرية مقالات معادية لبريطانيا، ولذلك فإن خير ضمان كما يرى المقيم السياسى هو تشجيع التنمية والتطوير فى هذه الدول مع العمل كلما سنحت الفرصة على إدخال الإصلاح الدستورى المعقول وتجنب التدخل المسافر فى الشئون الداخلية وتشجيع أقصى إستقلال داخلى لهذه البلدان» وفى هذا الصدد أقترح توسيع مدى الاذاعة البريطانية - القسم العربى - لما لها من دور فى خدمة المصالح البريطانية .

وعلى صعيد آخر فقد رأى أن هناك مبالغة فى الحديث عن قوة الرأى العام فى الخليج العربى فمن حيث التعداد وبإستثناء مسقط فإنه

---

(١) F-o 371/98333- 81662 Foreign Office, secret, 27th. sep. 1952.

يبلغ أقل من نصف مليون نسمه وتهتم أغلبيتهم بالشئون المحلية وليس العالمية(١) .

هذا وقد حبذ المقيم إصدار جريدة باللغة العربية تحت الإشراف البريطانى ولكنه لم يستحسن فكرة أن تكون تحت رعاية شركة البترول(٢) ويبدو أنه أراد أن تصبح تحت إشراف السلطات السياسية فى الخليج العربى التى يمثلها المقيم.

لم يقتصر الإهتمام بموضوع المد القومى فى الكويت وغيرها من إمارات الخليج العربى على السلطات البريطانية فى الخليج العربى ووزارة الخارجية البريطانية فقد كان للمفوضية البريطانية فى بيروت رأيها هى الأخرى فى ذلك. إذ أيدت الرأى القائل بخطورة إنتشار الوعى القومى، وأن إنتشار الأفكار القومية «التى يساء فهمها» حسب رأيها فى العالم العربى يشكل مصدر ضيق لممثلى الحكومة البريطانية، وقد ربطت بين نمو التعليم العالى فى المستقبل وبين إزدياد الشعور القومى مشيره إلى الأهمية الكبيرة لهذا الربط. وفى هذا المجال أيضا كان رأى المفوضية البريطانية أن القومية العربية فى لبنان من النوع «الخبيث» ولذلك يجب إصدار جريدة عربية لخدمة كل البلدان العربية كمشروع بريطانى، كما أشارت إلى أهمية إصدار جريدة أيضا فى الخليج العربى(٣) تكون بالطبع تحت الإشراف

(١) F-o. 371/98333- 81662 Political Residncy Bahrain, 11 June 1952.

(٢) F-o 371/98333- 81662 Political Residncy Bahrain, 10 - Oct 1952.

(٣) F-o 371/98333- 81662 British Legation, Beirut 19 th. sep. 1952.

البريطانى بحيث تخدم سياستها المصالح البريطانية إلى جانب تأثيرها على الرأى العام فى المنطقة.

إن هذا الاهتمام المتزايد من جانب السلطات البريطانية بنمو الوعى القومى فى الخليج العربى وفى الكويت خاصة إنما يعود إلى خوفها من أن تتأثر مصالحها فهى تريد ضمان وجود إستثمارات الكويت وأكبر قدر من نفقاتها فى منطقة الإسترلينى، وكانت تحبذ وتشجع مشاركة الأهالى فى الثروة والإستفادة منها(١) لكى لا تكون هناك فرصة لظهور إضطرابات فى الكويت وبالذات الخوف من إنتشار الفكر الشيوعى خصوصاً وإن جريدة «أزفستيا السوفيتية» قد أظهرت اهتماما بأخبار الكويت، ومن ناحية أخرى كانت بريطانيا تريد أن تصبح تجارة الكويت محتكرة للشركات البريطانية(٢) وأن تزاول شركة البترول التى تتولى إنتاجه وشحنه من أراضى الكويت عملها بدون مضايقات وأن لا يطرأ على شروط الترخيص أية تغييرات أو مضاعفات سيئة قد تضعف من مكانة بريطانيا كقوة حامية فى الكويت وقد أكد الوكيل السياسى أنه لضمان ذلك لابد من إقامة حكومة مستقرة فى الكويت مقبولة من غالبية الكويتيين بل من الشرق الأوسط كله، فمثل هذه الحكومة يكون لها مواقف تؤدى إلى إحباط للمصالح البريطانية إلا أن وجودها يظل أفضل من قيام

---

(١) F-o 371/104327- 81792 An Account of Kuwait Sudden Access to Weaith, Her Majesty, s govérnmint With Kuwait And of the Present present problems in Kuwait.

(٢) F-o 371/104264- 81593 treasury Chambets, 14 th. Nov. 1953.
Conf. to British Political Residncy- Kuwait.

حكومة تقف تماما ضد هذه المصالح(١) . لقد كانت السلطات البريطانية تدرك أن نفوذها أصبح مقيدا فى الكويت فإتفاقية الحماية سنة ١٨٩٩ لم تكن تعطى الحكومة البريطانية سلطة تتيح لها التدخل فى الشئون الداخلية ولكنها لم تقف مكتوفة الإيدى أمام أية أحداث داخلية قد تكون ذات تأثيرات سلبية على مصالحها ونفوذها، ولكن مع نمو الوعى الوطنى والثقافى والقومى فإن تدخلها فى الشئون الداخلية كان لابد ان يواجه معارضة رسمية وشعبية ، من هنا كان لابد من الإستعانة بكل الوسائل للسيطرة على هذا الوعى لضمان عدم تأثر المصالح البريطانية .

وكان التأثير البريطاني على التنمية فى الكويت قد بدأ بالتراجع مع إزدياد الوعى القومى وقد نبه الوكيل السياسى البريطانى هناك إلى أنه بتفضيل الشركات العربية السورية واللبنانية على البريطانية فإن تحويل الإسترلينى سيتجه نحو سوريا ولبنان مما ينتج عنه مصاعب خطيرة فى ميزان المدفوعات البريطانى. ومن هنا يجب أن تقدم النصيحة التالية لحاكم الكويت :

١ - تقديم نظام سيطرة مالية داخل شئون الدولة .
٢ - كبح المستوى الراهن للصرف على التنمية(٢) .

---

(١) F-0 371/104264-81593-Conf; Political Agency Kuwait. to H.M treasury.

وافقت الجهات الرسمية الكويتية فى ١٩٥٢ على تعيين بعض الخبراء البريطانيين فى المالية والشئون الفنية .

البعثة ـ السنة السادسة ـ العدد الرابع رجب١٣٧١هـ نيسان (إبريل) ١٩٥٢.

(٢) لقد تعرضت الكويت خلال تلك الفترة إلى العديد من المشاكل فى الجهاز التنفيذى والشئون المالية فقد تداخلت عوامل عده كما أنها شاهدت تنافسا بين التجار والمتعهدين من أجل أن ترسى عليهم المشاريع.

٣ - توجيه نسبة كبيرة من الأموال المخصصة للتنمية إلى إستغلالها فى مشروعات إنتاجية ستسهم بعد وقت قصير فى تحسين أقتصاد البلاد .

جاءت هذه المقترحات فى أعقاب إجتماع عقدته الإدارات البريطانية فى ١٦إبريل (نيسان) ١٩٥٢ وقد أوصى المجتمعون أن يجتمع وزير الخارجية البريطانى مع الشيخ عبد الله السالم حاكم الكويت خلال زيارة الأخير للندن لحضور الإحتفال بتتويج الملكة إليزابيث الثانية وحثه على قبول الإستشارة البريطانية(١)والحقيقة أن هذه المقترحات جاءت لكى تضمن الحكومة البريطانية وجود فائض لإستثماره فى لندن(٢) . وإن كانت ذات نتائج جيدة بالنسبة للكويت أيضاً.

وهكذا فقد أستمرت المخاوف البريطانية وتزايد إهتمام السلطات البريطانية بمراقبة الوعى القومى المتنامى بين الكويتيين ونبهت وزارة الخارجية البريطانية إلى ان بعض الدول العربية تسعى إلى طرح شعارات قومية لتحويل الإنتباه عن أوضاعها الداخلية (٢) ولذلك فإن هناك إحتمالا فى أن تتجه جامعة الدول العربية نحو

---

(١) F-0 371/104327-81695- E.A. 1103120 Conf; Draft Submission ti Ministres - Kuwait.

F-0 371/98333-81662,2 nd. sep. 1952.

(٢) To Bahrain No. 344-23, Dec. 1953, to Foreign Office British.

(٢) Middle - East Office - Beirut - Jeddah.

F-0 37/104277-8 662 Kuwait.

الخليج العربى بعد أن تنتهى من مشاكل تونس ومراكش والنزاع المصرى البريطانى(١) .

والملاحظ إن بريطانيا كانت تراقب أيطأ تطور ونمو ورغبة الكويتيين نحو توجيه أمورهم بأنفسهم، كما يشير أحد التقارير البريطانية (فالمال مالهم وهم يريدون أن يقرروا كيف ينفقونه)(٢). أن هذا الشعور بأن الكويت للكويتيين كان يخيف السلطات خاصة مع تزايد الشعورالوطنى الذى يسعى إلى التخلص من الوجود البريطانى.

وبعد ، فإن هذه الإقتراحات والخطط البريطانية من أجل الحيلولة دون وصول المد القومى إلى الكويت لم تؤت نتاجها وثمارها كما أرادت تلك السلطات خاصة وإن السلطات الرسمية الكويتية كانت حريصة على رعاية الروح القومية، ففى أغسطس ١٩٥٣ صدر إعلان من بلدية الكويت موجه إلى العديد من الشركات والبنوك خصوصاً تلك التى تضع إعلانات باللغة الإنجليزية يدعوها إلى ضرورة كتابة إعلاناتها باللغة العربية تقديرا ومحافظة على الشعور القومى العربى والقومية العربية الأصيلة فى هذه الدولة(٣).

---

(١) F-0 371/ 104329-81695 .

(٢) بنك الشرق الأوسط البريطانى - الكويت ٣١ أغسطس ١٩٥٣- القومية العربية فى الكويت ترجمته إلى البنك سكرتارية حكومة الكويت.

(٣) **نص الإعلان :**

نظراً لأن بعض الإعلانات تتجاهل القومية العربيه ونظراً لرغبتها فى الخفاظ على الشعور القومى والقومية العربية الأصيلة لهذه الدوله نرى أنه من المناسب أن نلفت نظر الجمهور إلى أن كل الإعلانات التجارية واللوحات العامة يجب أن تكتب باللغة العربية وإذا كتبت إعلانات بأكثر من لغة أن تكون اللغة العربية هى الأعلى وإية مخالفة لهذا تعتبر تحدياً للشعور القومى العربى سيكون لها عقابها لمخالفتها الأمر العام .

خاتمــة :

طرحنا فى هذا البحث أهم مظاهر الوعى السياسى القومى العربى فى الكويت منذ الثلاثينات حتى أوائل الخمسينات من هذا القرن، وقد تناولت العوامل المؤثرة فى ظهور ونمو الشعور القومى العربى ذلك الشعور الذى تزايد فى أعقاب التغيير الذى شهده المجتمع الكويتى فى الخمسينات، كما بينا السياسة البريطانية تجاه نمو الشعور القومى العربى فى الكويت تلك السياسة التى لم تؤتى ثمارها فى الحيلولة دون نموه، وقد لاحظنا أيضاً إهتمام ورعاية السلطات الكويتية الرسمية لهذا الشعور القومى العربى، وهى سياسة استمرت السلطات الكويتية فى انتهاجها، وهناك الكثير جداً من الادلة فى تاريخنا الحديث والمعاصر التى تؤكد هذه الرعاية وإهتمام الكويت على المستويين الشعبى والرسمى بقضايا الوطن العربى...

المصادر والمراجع

أولا : وثائق غير منشورة :

الوثائق بريطانيـــة

(1) Public record Office

F - o 371/17806

109939 - 81765

68319 -

98323 - 81795

98333 - 81795

104327 - 81795

104330 - 81795

104266 -

104277 - 81662

104329 - 81795

98323 - 81795

F-0 816- 29470

(2) India Office Library and Records, R/15/5/196 No; 224113.

ثانيا : المراجع العربية والأجنبية :

- أحمد الســقاف

تطور الوعى القومى فى الكويت ـ سلسلة كتب تصدرها رابطة الأدباء ـ الكويت قضايا عربية (٣) ١٩٨٣.

- أبو خالدون ساطع الحصرى
ماهى القومية - أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات مركز دراسات الوحدة العربية - سلطة التراث القومى - الأعمال القومية لساطع الحصرى - بيروت ١٩٨٥.
- أبحاث مختارة فى القضية العربية - مركز دراسات الوحدة العربية - سلسلة التراث القومى لساطع الحصرى فى ١٧ يونية ١٩٨٥.

- البرت حورانـــى
الفكر العربى فى عصر النهضة ١٨٩٨-١٩٣٩ نقله إلى العربية كريم عزقول - دار النهار بيروت - الطبعة الأولى تموز ١٩٦٩.

- د. أنيس صايـــغ
الهاشميون وقضية فلسطين - منشورات جريدة المحرر - المكتبة العصرية - صيدا بيروت ١٩٦٠.

- آلن فلييـــرز
أبناء السندباد ترجمة د. نايف خرما - وزارة الإعلام الكويت.

- المصيب محمد ظاهر - محمود حلمى
تاريخ مقدرات العراق السياسية ١٣٤٢هـ ١٩٢٤ بغداد ١٣٤٢هـ ١٩٢٤م.

- د. بدر الدين عباس الخصوص
دراسات في تاريخ الكويت الاجتماعى والاقتصادى ١٩١٣-١٩٦١ شركة المطبوعات الكويت ١٩٧٢.

- د. حسن سليمان محمود
الكويت ماضيها وحاضرها - منشورات المكتبة الأهلية - بغداد ١٩٦٨.

- توفيق السـويـدى
مذكراتى - نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية
الطبعة الأولى - دار الكتاب العربى - بيروت تموز١٩٦٩.

- توفيق بـــرو
العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى ١٩٠٨ - ١٩١٤ جامعة الدول العربية - معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٠.

- خالد سعود الزيـــد
ادباء الكويت فى قرنين - الجزء الثانى - الطبعة الأولى شركة ربيعان الكويت ١٩٨١.

- سيف مرزوق الشملان
أعلام الكويت - فرحان فهد الخالد - منشورات ذات السلاسل - الكويت ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

- سامى حكيــم
ميثاق الجامعة والوحدة العربية ـ الطبعة الأولى ١٩٦٦.

- د. صلاح العقـــاد
المشرق العربى المعاصر ١٩٤٥ - ١٩٥٨ العراق - سوريا - لبنان معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٦٦.

- صالح شـــهاب
تاريخ التعليم فى الكويت والخليج أيام زمان الجزء الأول ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م مطبوعات حكومة الكويت.

- عبد الفتاح المليجى
رجال وتاريخ الكويت ١٩٧٤.

- عبد الله خالد الحاتم
من هنا بدأت الكويت - الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م طبعة دار القبس - الكويت.

- د. على محافظـــة
موقف فرنسا المانيا وإيطاليا من الوحدة العربية ١٩١٩ - ١٩٤٥ مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٥.

- عبد الله النـــورى
قصة التعليم فى الكويت فى نصف قرن من ســـنة ١٣٠٠ - ١٣٦٠ هجرية مطبعة الاستقامة القاهـــرة

غير مذكور تاريخ النشر ولكن ارجع ١٩٥١-١٩٥٢.

- فوزية يوسف العبد الغفور
تطور التعليم فى الكويت ١٩١٢-١٩٧٢ الطبعة الثانية مكتبة الفلاح الكويت ١٤٠٣-١٩٨٣م.

- د. مصطفى عبد القادر النجار
دراسات فى تاريخ الخليج العربى المعاصر - المنظمة العربية للتربية معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٧-القاهرة.

- د. محمد حسن عبد الله
تاريخ الصحافة فى الكويت - منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية الكويت ١٩٨٥م.

- د. نجاة عبد القادر الجاسم
التطور السياسى والاقتصادى للكويت بين الحربين ١٩١٣-١٩٣٩ الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٧٣.

- ناجى علوش
المقاومة العربية فى فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨ سلسلة كتب فلسطينية مركز الأبحاث - منظمة التحرير الفلسطينية - بيروت لبنان مايو١٩٧٦.

- يوسف شهاب
رجال فى تاريخ الكويت الجزء الأول - مطابع دار القبس الكويت ١٩٨٤.

John D.Novo - American Interests and Policies in the Middle- East 1900 - 1949 Minnossetta press 1968.

ثالثاً - الدوريـــات :

مجلة البعثة ، ١٩٤٩ - ١٩٥٢ .

مجلة كاظمة ، ١٩٤٨ - ١٩٤٩ .

مجلة اليقظة ، مايو ١٩٥٢ .

مجلة الإيمان : يناير - مارس ١٩٥٣ .

مجلة الإرشاد ، آب ١٩٥٣ .

مجلة الكويت ، سبتمبر ١٩٥٠ .

مجلة الفكر العربى
السنة الأولى العدد الثامن ١٥ يوليه ١٥ أغسطس ١٩٧٨ عدد خاص ٣٥-٥٢.

مجلة المؤرخ العربى
الأمانة العامة لإتحاد المؤرخين العرب بغداد العراق - العدد السادس والعشرون ١٤٠٣هـ-١٩٨٤م. ص (١١٩).

رابعاً المقابلات الشخصية :

- مقابلة : مع الأديب الأستاذ عبد الرزاق البصير - ٦ ذو الحجة ١٤٠٦هـ ١٣ يوليو ١٩٨٦.

- الأستاذ / بدر خالد البدر الخميس ١٧ رمضان ١٤٠٧ - ١٤ مايو ١٩٨٧.

- الأستاذ / أحمد السقاف - الأحد ٤ جمادى الأولى - ٤ يناير ١٩٨٧.

عرض الكتـــب

مدن مصر وقراها فى القرن الثامن الهجرى(*)

د. عبد العال عبد المنعم الشــامى
أستاذ الجغرافيا التاريخية المسـاعد
كلية الآداب - جامعة القاهرة

عرض وتحليل ونقد : **أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور**
كلية الآداب - جامعـة القاهـرة

موضوع الكتاب كما يبدو من عنوانه يعبر عن إتجاه طيب يلقى الأضواء على مدن مصر وقراها - وما أكثرها - فى فترة أو حلقـة من أهم حلقات التاريخ المصرى ، تتصف بالنشاط والقوة والازدهار الحضارى. ومن الواضح أن مؤلف الكتاب - وهو أستاذ مساعد تخصص فى الجغرافيا التاريخية - استهدف من هذا العرض أن يقدم لنا دراسة مثمرة عن التقدم العمرانى الذى أصابته تلك المدن والقرى موضحا ظروف البيئة والعوامل الجغرافية المتباينة من جهة، والظروف التاريخية التى أحاطت بها فى ذلك الدور من أدوار التاريخ من جهة أخـــرى .

ولكن الذى يتبين لمن يطلع على هذا الكتاب هو أن المؤلف مع ما بذله فيه من جهد - خرج عن جادة الطريق الذى استهدفه عنوانه. ويتمثل هذا الإنحراف الموضوعى فى اتجاهين رئيسيين :

الأول : هو أن العنوان الفضفاض الذى اختاره المؤلف لكتابه لا ينطبق على مضمون الكتاب. لقد وضع المؤلف عنواناً نصه «مدن مصر وقراها فى القرن الثامن الهجرى» . وكنا ننتظر منه أن يأتـى

(*) صدر هذا البحث عن المجلة العلمية بكلية الآداب جامعة المنيا (مجلة الآداب والعلوم الإنسانية) سلسلة الإصدارات الخاصة - المجلد التاسع العدد الأول ١٩٩١م، عدد صفحات هذا البحث ٢٢٩ صفحة بما فيها الهوامش والتعليقات .

لنا بكشاف لمدن مصر وقراها أشبه بفهرس «القاموس الجغرافى للبلاد المصرية» الذى وضعه العالم محمد رمزى. فإذا كان مثل هذا العمل فوق طاقة المؤلف، فلا أقل من أن يتناول كل إقليم أو كل كورة من أقاليم مصر وكورها فيعالج أبعاده الجغرافيه، ويتخير صفوة من مدنه الرئيسية وقراه المتميزة ليتتبع نموها العمرانى فى الحقبة التى اختارها لبحثه وهى القرن الثامن الهجرى .

ولكن المؤلف أغفل كل ذلك ، وأقتصر فى كتابه باكمله على ثلاثة مواضع ، أعتبرها - خطئاً - معبرة عن كافة مدن مصر وقراها، ولم ينتبه إلى هذه الحقية إلا فى ختام كتابه ، فقال فى ص ١٩٨ ما نصه :

(وفى ختام هذا القدر من دراسة مدن مصر وقراها فى القرن الثامن الهجرى ، يحسن أن نذكر أنه على الرغم من إقتصار هذه الدراسة على حاضرة مصر، أو المجمع الحضارى الكبير- ممثلا فى قلعة الجبل ومصر الفسطاط والقاهرة وظواهرها - إلا أن هذا القدر من الدراسة يمثل صورة مصغرة ومركزة أو مستقطعة لمجمل دراسة مدن مصر وقراها.

فقد جاءت دراسة المدن الثلاث داخل المجمع الحضرى الكبير كنماذج للمدن فى مختلف وظائفها وأحجامها وتركيبها العمرانى وتطورها وخصاص موضعها ومزايا موقعها...) .

وهكذا اعترف الباحث بأن الإسم على غير المسمى، فالإسم مدن مصر وقراها ، والمسمى لم يتجاوز ثلاثة مواضع هى الفسطاط والقاهرة وقلعة الجبل .

ثم كيف يطلب الباحث من القارىء إعتبار هذه المواضع الثلاثة نموذجاً لكافة مدن مصر وقراها ، أو لدراسة أوضاع كافة مدن مصر وقراها فى القرن الثامن الهجرى؟ وبصرف النظر عن التباين الكبير بين القرى والمدن ، كيف يستسيغ أن يجعل قلعة الجبل فى أوضاعها العمرانية وصبغتها الحضارية نموذجاً لما كانت عليه مدينة دمياط أو رشيد أو طنطا؟ وكيف يستسيغ ان يجعل من مدينة القاهرة وأوضاعها العمرانية والحضارية نموذجاً لدراسة مدينة أسوان ثغر مصر الجنوبى على مقربة من مملكة النوبة المسيحية؟ وكيف استحل الباحث أن يجعل من الفسطاط نموذجاً لدراسة أوضاع مدينة مثل قوص لها طابعها الخاص المميز فى ذلك العصر، أو مدينة مثل عيذاب مرفأ الحجاج والتجار على ساحل البحر الأحمر ؟؟ .

أما الإتجاه **الثانى** فى الإنحراف الموضوعى الذى وقع فيه الباحث ، فيتمثل فى أنه نسى أن موضوع بحثه ودراسته يدخل تحت عنوان الجغرافيا التاريخية ، ولم يقدر أن الجغرافيا التاريخية تسمح له بالتعرض للتاريخ ولكن داخل نطاق معين وحدود مرسومة ترتبط بخدمة الحغرافيا ، فإذا تجاوز الباحث هذه الحدود فإنه ربما يعرض نفسه للوقوع فى منزلقات تسبب له الكثير من الحرج ، لأن التاريخ علم له منهجه وأركانه وأبعاده. وكانت النتيجة أن الجهد الكبير الذى بذله الباحث فى كتابه شابته العديد من الأخطاء التاريخية التى وقع فيها . ولا يكفى لمن يريدأن يلم بتاريخ مصر فى القرن الثامن أن يرجع إلى بعض المصادر التاريخية المعاصرة والمراجع الحديثة لإلتقاط بعض ما فيها، وإنما لا بد من حاسة

تاريخية لنقد ما فيها ومقارنة بعضها ببعض، وفوق هذا وذاك لابد من الإلمام بالافق التاريخى البعيد لذلك العصر ، بمعنى أننى لكى ألم بتاريخ مصر فى القرن الثامن الهجرى - الرابع عشر للميلاد - لا بد من أن ألم بتاريخها فى القرون السابقة ، ولا بد من أن ألم بأوضاع عالم البحر المتوسط فى ذلك القرن ، بل ربما يتطلب ذلك الإلمام بالاوضاع فى شرق آسيا وقلب أوربا ووسط أفريقية وغربها .

وفى غيبة الوعى التاريخى - أو على الأقل عدم توافر قدر كاف من ذلك الوعى - انزلق الباحث إلى عدة تصورات خاطئة ، ربما بدت قليلة الأهمية فى نظر غير المشتغلين بعلم التاريخ ، ولكن لها خطورتها فى نظر المؤرخ المتخصص. ونظراً لأن المجال لا يتسع للإشارة إلى كافة هذه الأخطاء ، فإننا نكتفى بإختيار بعضها لتكون بمثابة نماذج لما يتعرض له التاريخ فى هذه الأيام على أيدى غير المتخصصين. هذا مع ملاحظة أننا نضع دائماً الجهد الكبير الذى بذله الباحث موضع تقدير .

* * *

١ - يقول الباحث فى الفقرة الثالثة من صفحة ١ مانصه :

(ولعل من جملة هذه المقومات التى جعلت من القرن الثامن الهجرى قرن إزدهار العمران فى مصر ، زوال الخطر الصليبى عن مصر والشام ، وإقتصار الوجود الصليبى على جيوب محدودة فى جزيرتى قبرص وكريت ، وكذلك إنحسار الخطر الذى شهده الشرق العربى من جراء زحف التتار .)

فى هذه الفقرة ثلاثة أخطاء تاريخية لكل منها ثقله فى نظر المؤرخ :

(أ) يحاول الباحث أن يعلل لإزدهار العمران فى مصرفى القرن الثامن الهجرى بزوال الخطر الصليبى عن مصروالشام فى ذلك القرن.

ونقول للباحث : إن الخطر الصليبى لم يزل عن مصر والشام فى القرن الثامن الهجرى ، وإنما استمر طوال ذلك القرن وشطراً ومن القرن التالى (التاسع الهجرى - الخامس عشر للميلاد). كل ما فى الأمر هو أن الخطر الصليبى دخل مرحلة جديدة فى القرن الثامن الهجرى ، فاتخذ صورة هجمات بحرية مدمرة على موانى مصر والشام فى شرق حوض البحر المتوسط، فضلا عن شن حرب اقتصادية، وقطع الطريق على السفن التى خالفت أوامر البابوية واستمرت تمارس النشاط التجارى مع دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام . وعلى رأس الحملات الصليبية الكبرى التى تعرضت لها مصر فى القرن الثامن الهجرى حملة بطرس لوزجنان على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ (١٣٦٥م) وهى الحملة التى خربت مدينة الإسكندرية وأتت على كل مافيها «من صامت وناطق» على قول أحد المؤرخين المعاصرين. هذا عدا الهجمات الصليبية فى القرن الثامن الهجرى على طرابلس الشام وجبلة وصيدا وغيرها من موانى دولة سلاطين المماليك بالشام، ومعنى هذا أن القول بأن الخطر الصليبى «زال عن مصر والشام» فى القرن الثامن البحرى قول خاطىء لا يتفق والحقيقة التاريخية. ويبدو أن الباحث نقل هذا الخطأ عن بعض الكتاب المحدثين الذين لم يفرقوا بين سقوط آخر المعاقل

الصليبية ببلاد الشام فى أواخر القرن السابع الهجرى (الثالث عشر للميلاد) وبين زوال الخطر الصليبى عن مصر والشام، فظنوا أن طرد آخر البقايا الصيلبية من بلاد الشام معناه زوال الخطر الصليبى عن مصر والشام .

(ب) يقول الباحث فى نفس هذه الفقرة ما نصه :

(وإقتصار الوجود الصليبى على جيوب محدودة فى جزيرتى قبرص وكريت)

ونقول للباحث : إن أخطر الجيوب الصليبية فى شرق حوض البحر المتوسط بعد طرد أخر البقايا الصيلبية من بلاد الشام فى أواخر القرن السابع البحرى ـ الثالث عشر للميلاد ـ كانت فى قبرص ورودس ، وليس فى كريت ، مثلما يقول. ففى رودس أستقر الفرسان الاسبتارية **Hospitallers** منذ سنة ٧١٠هـ أى منذ أوائل القرن الثامن الهجرى. وقد اتخذ هؤلاء الفرسان من جزيرة رودس نقطة إنطلاق للقيام بهجمات صليبية على شواطىء بلاد المسلمين فى شرق حوض البحر المتوسط، وبخاصة مصر والشام فضلا عن آسيا الصغرى. وكان هذا هو الدافع لدولة سلاطين المماليك لتقوم فى القرن التالى ـ التاسع الهجرى، الخامس عشر للميلاد ، وذلك فى عهد السلطان جقمق ـ بمحاولة لغزو جزيرة رودس .

جـ - يعلل الباحث فى نفس الفقرة لإزدهار العمران فى مصر فى القرن الثامن البحرى «بإنحسار الخطر الذى شهده الشرق العربى من جراء زحف التتار» .

ونقول للباحث : إن خطر التتار لم ينحسر عن المشرق العربى فى القرن الثامن للهجرة، وعندما نقول المشرق العربى فإننا نعنى فعلا العربى لا الإسلامى لأن الفرق واضح عمليا بين المصطلحين . وكان البلد العربى الذى احتله التتار واستقروافيه وأقاموا على أرضه - بالاضافة إلى فارس - ايلخانية كبرى ، كان هذا البلد هو العراق ، فهل انحسر خطر التتار عن العراق فى القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر للميلاد ؟؟ لقد أقام التتار عاصمتهم على أرض العراق، وظلوا طوال الربع الأول من القرن الثامن الهجرى يعبرون الفرات بين حين وآخر ليعيثوا فساداً فى بلاد الشام، مثلما حدث سنوات ٧٠٢هـ، ٧١٢هـ، ٧١٥هـ .

وبعد ذلك فترت همة التتار فى تهديد بلاد الشام ولكن دولتهم استمرت فى العراق - أى على أرض ذلك الجناح الشرقى من العالم العربى - حتى أدى دخولهم فى الإسلام إلى ذوبانهم تدريجيا فى المجتمع الذى عاشوا فيه .

٢ - وفى الفقرة الأخيرة من نفس الصفحة يقول الباحث :

(وقد صاحب زوال الأخطار الخارجية ، استقرار سياسى كان من نتائجه المزيد من استقرار وإزدهار الأحوال الاقتصادية والاجتماعية فى مصر، مما اتضح تأثيره فى مجال العمران. وما شهده فى القرن الثامن بشكل يفوق فى حجمه وتنوعه ما كان فى القرون السابقة للقرن الثامن والتالية له طوال العصر الوسيط) .

ونقول للباحث : لقد عاشت دولة سلاطين المماليك على أرض مصر والشام أكثر قليلا من قرنين ونصف. وكان الطابع الغالب على

هذه الحقبة باكملها هو عدم الإستقرار السياسى، بسبب نظام المماليك الذى جعل منهم جميعاً سواسية ، من حق أى أمير أن يعتلى عرش السلطنة وينتزع هذا العرش من السلطان القائم. وأدى ذلك إلى ثورات وحروب داخلية لا نهاية لها، مما جعل الإستقرار السياسى أبعد ما يكون عن دولة سلاطين المماليك، إلا فى فترات محدودة بسبب يقظة السلطان القائم وقوته . ولكن الباحث فى غيبة الإدراك الحقيقى لروح ذلك العصر أراد أن يصف القرن الثامن الهجرى بأنه يمثل عصر الإستقرار السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر والشام. وكان عليه أن يدرك أنه إذا كان بيت قلاون قد نجح فى البقاء فى الحكم أكثر من قرن من الزمان، فإن هذا البقاء لم يكن بصورة مستقرة هادئة، وإنما تخلل تاريخ أسرة قلاون ثورات وفتن عزل فيها سلاطين وتولى فيها غيرهم. ولعل الباحث نفسه أشار إلى أن السلطان الناصر محمد ين قلاون - أبرز سلاطين القرن الثامن الهجرى - تولى السلطنة ثلاث مرات ، بمعنى أنه عزل مرتين . وقد خلف السلطان الناصر محمد بن قلاون ثمانية من أولاده تعاقبوا على العرش على مدى إحدى وعشرين سنة، بواقع عامين ونصف فى المتوسط لكل منهم، وبعضهم نودى به سلطانا وعمره عام واحد، والبعض الآخر لم يبق فى الحكم إلا شهرين. أما احفاد الناصر محمد، فقد حكموا نحوا من عشرين سنة أخرى، تميزت بالفوضى والاضطراب، وازدياد نفوذ طائفة المماليك الجراكسة البرجية الذين ظهروا على مسرح الأحداث ليشكلوا طرفاً جديداً فى حلبة الصراع الداخلى فى القرن الثامن الهجرى .

وبعد هذا كله، يأتى الباحث ليصف القرن الثامن الهجرى بأنه شهد إستقراراً سياسياً فى دولة سلاطين المماليك .

٣ - الواقع إن الباحث لم يستطع أن يضع يده على السبب الحقيقى لإنتعاش العمران فى مصر فى القرن الثامن الهجرى .

ونقول له : إن هذا السبب يكمن أساسا فى أن ذلك القرن شهد انسداد طريقى التجارة العالمية بين الشرق والغرب، أعنى الطريق البرى عبر وسط آسيا وطريق بحر فارس، بحيث لم يبق مفتوحا آمنا، بعيدا عن خطر التتار، سوى طريق البحر الأحمر ومصر ، مما مكن دولة سلاطين المماليك من احتكار التجارة العالمية بين الشرق والغرب. وعندما أدرك هؤلاءالسلاطين تلك الحقيقة فيالقرن الثامن - منذ أيام المنصور قلاون بوجه خاص - بذلوا ما فى وسعهم لتأمين التجارة والتجار، ومنحهم كافة التسهيلات وإقامة المرافق لخدمتهم، مما عاد بثروة صخمة هبطت على مصر، وهذا بدوره أدى إلى إنتعاش العمران ، مما لا تزال آثاره باقية أمام أعيننا حتى الآن .

وعندما تنبه الباحث فى صفحة ٢ إلى أهمية العامل الإقتصادى فى إنتعاش النشاط العمرانى فى القرن الثامن الهجرى، أشار إلى «تطور التجارة الخارجية» ، ولكنه وقع فى خطأ عندما ربط ذلك التطور باستقرار «العلاقات السياسية الخارجية لمصر، واستمرار العلاقات الودية بن سلطنة المماليك والدولة البيزنطية» .

وحبذا لو كان الباحث قد أدرك أن رخاء مصر فى القرن الثامن الهجرى لم يكن سببه إستقرار العلاقات السياسية الودية مع الدولة

البيزنطية، وإنما - كما سبق يأن أشرنا - احتكار مصر للتجارة العالمية - وبخاصة تجارة التوابل - بين الشرق والغرب .

أما العلاقات الودية مع الدولة البيزنطية فلها جذورها التى تمتد أبعد من القرن الثامن الهجرى ، وكانت تظهر حيناً وتختفى أحياناً وربما كانت أكثر وضوحا أيام الايوبيين بسبب العداء المشترك ضد الصليبين الغربيين الكاثوليك ، مما لا يتسع المجال للخوض فيه .

وفى جميع الحالات كان على الباحث أن يعرف أن الدولة البيزنطية فى القرن الثامن الهجرى - الرابع عشر للميلاد - كانت تعانى آلام الموت البطىء بعد الضربات التى نزلت بها فى الفترة السابقة على أيدى الصليبيين من ناحية وسلاجقة الروم من ناحية أخرى، وبعض شعوب البلقان والنورمان من ناحية ثالثة. وفى القرن الثامن الهجرى - الرابع عشر للميلاد - كانت الدولة البيزنطية تحاول جمع اشلائها والحفاظ على ما تبقى من كيانها، ولم يكن لها وزن فى سياسة دولة سلاطين المماليك وأوضاعها عندئذ .

٤ - يقول الباحث فى صفحة ١١ عن المؤرخ المقريزى إنه «يمثل النصف الأول من القرن التاسع الهجرى ولا يمثل فترة الدراسة» ونرى أن هذا الحكم يعبر عن ضعف الحاسة التاريخية وعدم إدراك الأبعاد الحقيقية لمصطلح المؤرخ المعاصر ، إن المقريزى توفى فى القرن التاسع الهجرى. ويعتبر شيخ مؤرخى القرن التاسع الهجرى ولكن لا ننسى أنه ولد فى القرن الثامن البحرى وقضى نحوا من ثلث عمره فى القــرن الثامن لأن مولــده كان على الأرجـــح سنة ٧٦٦هـ، ومعنى هذا أن المقريزى كان فى شـــرخ شـــبابه - في

الرابعة والثلاثين من عمره - عندما انسلخ القرن الثامن واستهل القرن التاسع للهجرة، فكيف يعتبره الباحث لا يمثل فترة دراسته؟؟ وكيف يجرؤ باحث على إعتباره غير معاصر للقرن الثامن والقرن التاسع جميعا؟؟ حتى الأحداث التى لم يدركها المقريزى فى القرن الثامن أو التى جرت فى طفولته ، حسبه أنه استقاها من أناس عاصروها وشاهدوها وأحسوا بها، ولم ينقلها نقلا عن كتابات منسوخة .

٥ - ومع أن الباحث استقى أجزاء متعددة من كتاب الخطط للمقريزى، أو من كتاب محدثين نقلوا عن ذلك الكتاب، إلا إنه فى غيبة الوعى التاريخى ينساق وراء رأى لم يذكره سوى واحد فقط من معاصرى المقريزى - هو السخاوى - متهما المقريزى بأنه ظفر بنسخة من مسودة الأوحدى فى الخطط، وأن المقريزى سرق ما كتبه الأوحدى ونسبه إلى نفسه فى كتاب الخطط . وفى ذلك يقول الباحث فى ص ١٩ ما نصه :

(وأن السخاوى قد ذكر بأن المقريزى قد أطلع على مسودة كتاب الأوحدى ، فأخذ ما فيها ونسبه لنفسه بعد أن أضاف إلى ذلك زيادات أخرى، ومثل هذه المسألة قد تداولها القدماء والمحدثون دون الوصول إلى مايمكن معه نفى التهمة تماما عن المقريزى) .

ونقول للباحث : لو اطلعت على كل ما كتب حول هذا الموضوع لادركت أنه أمكن التوصل إلى نفى التهمة تماما عن المقريزى. وقد أثير هذا الموضوع فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى اسطنبول سنة ١٩٨٤، وبعد أن ناقش الحضور الموضوع فى ضوء

البحوث المقدمة ومنها بحث مقدم منا تم نشره أخيراً فى كتاب يحمل اسمنا بعنوان «بحوث فى تاريخ الإسلام وحضارته» ، قرر المؤتمرون بالإجماع رفض كلام السخاوى وحكموا بتبرئة المقريزى من تهمة انفرد بتوجيهها إليه أحد المعاصرين الذين اشتهروا بلسان سليط لم يسلم منه عالم معاصر. وإذا كان الله تعالى يقول «واستشهدوا شهيدين من رجالكم» ، فإن الباحث يأبى إلا أن يأخذ برأى شاهد واحد لم يشاركه فيه أى عالم أو كاتب معاصر، وإنما جاء حكماً طائشاً لا سند له ولا دليل عليه .

وما كان أغنى الباحث عن الدخول فى هذه المتاهات التاريخية التى لها اساتذتها المتخصصون فيها .

* * *

ثم كان أن انتقل الباحث فى صفحة ٣٤ إلى القسم الأول من كتابه ، ووضع لهذا القسم عنواناً كبيراً نصه :

(حاضرة مصر فى القرن الهجرى : قلعة الجبل ، مصر الفسطاط، القاهرة وإقليمها) .

ومن الواضح أن الباحث أختار هذه المراكز الثلاثة ـ قلعة الجبل والفسطاط والقاهرة ـ لا ليأتى للعلم بجديد، وإنما ليطرق السهل اليسير ، وإذ وجد المادة العلمية عنها غزيرة فى المصادر المعاصرة والمراجع الحديثة، مما فتح أمامه باب النقل ـ أحياناً دون تمييز ـ وكانت النتيجة أنه لم يأت فى كتابه بجديد، بل ربما شوه صورة القديم بسبب عدم إلمامه بأركان المنهج التاريخى، وحرصه أحياناً على التهام كل ما صادفه فى المصادر والمراجع دون تمييز أو نقد

أو مقارنة أو تمحيص، مما أوقعه فى أخطاء عديدة ، سنشير إلى بعضها .

يقول المقريزى فى مقدمة خططه (كتاب المواعظ) ما نصه :

(وأما أجزاء هذا الكتاب فإنها سبعة : أولها... وثالثها يشتمل على أخبار فسطاط مصر ومن ملكها. ورابعها على أخبار القاهرة وخلائفها وما كان لهم من الآثار ... وسادسها يشتمل على ذكر قلعة الحبل وملوكها ...) .

وهذه المراكز الثلاثة ـ الفسطاط والقاهرة وقلعة الجبل ـ التى خصص لها المقريزى ثلاثة أجزاء من سبعة فى كتاب الخطط ، هى التى حصر الباحث كلامه فى دائرتها دون أن يحاول تجاوزها إلى غيرها . هذا مع ملاحظة أن المقريزى حرص على أن يوفى كل مركز من هذه المراكز حقه فى ظل دراسة تاريخية أثرية جامعة، فتكلم عن السكان والناس، والخطط والدروب، والجوامع والمساجد، والاسواق والوكالات والخانات والسبل، والمدارس والخانقاوات والزوايا ... وغير ذلك من أوجه النشاط الحضارى... وهذه هى الجوانب التى التقط الباحث بعضها ليرصها فى كتابه، دون أن يأتى بجديد أو يكشف عن مجهول.

وبحاسة تاريخية واعية، نجد المقريزى عندما ذكر المراكز العمرانية ـ الفسطاط والقاهرة وقلعة الجبل ـ فإنه إلتزم فى ذكرها بمراعاة الترتيب الزمنى التاريخى ، لأن دراسة التاريخ تعتمد أساساً على تسلسل الأحداث ، فالحاضر تتمة لمسيرة الماضى، والمستقبل يقوم على ركائز الحاضر والماضى . ولذا ذكر المقريزى الفسطاط

أولا، وبعد ذلك انتقل إلى القاهرة التى أسست بعد الفسطاط زمنياً، وأخيرا ذكر قلعة الجبل التى لم يوضع أساسها إلا فى عهد صلاح الدين. هذا هو الأسلوب السليم فى تدوين التاريخ وهو الإسلوب الذى يمثل ركناً من أركان منهج البحث التاريخى. أما الباحث فقد أعلن عدم درايته بأبسط أركان منهج البحث التاريخى عندما بدأ من الذيل إلى الرأس ومن الجديد إلى القديم ، فتكلم عن قلعة الجبل وهى أحدث المراكز الثلاثة عمراً وأعقب ذلك بالانتقال مباشرة إلى الفسطاطوهى أولى عواصم مصر الإسلامية، واختتم كلامه بالكلام عن القاهرة التى كان مفروضا أن تتوسط المؤسستين السابقتين !! إنها الحاسة التاريخية التى يفتقر إليها كثيرون ممن يخوضون فى التاريخ دون ركائز .

ومهما يكن من أمر، فإن الباحث بدأ كلامه بعبارة «أطلق على المدن الثلاث : قلعة الجبل ومصر الفسطاط والقاهرة ، مصطلح حاضرة مصر فى القرن الثامن الهجرى حين صارت المدن الثلاث مدينة واحدة» .

ويبدو لنا أن الباحث استمد كلامه هذا من كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى، إذا جاء فيه (ص٧٩) إن القاهرة والقلعة والفسطاط ثلاث مدن صارت مدينة واحدة . ونأخذ على الباحث أنه كان عليه أن يتمعن فى العبارات التى يصادفها فى المصادر المعاصرة، وأن لا يتعجل فى الإيمان بحرفية ما يرد فيها من كلمات، وأن يفرق بين الحقائق والمجازات ، وأن يحاول أن يخضع النصوص التى أمامه للنقد والمقارنة وفقاً للمنهج العلمى فى دراسة التاريخ ، طالما أنه

أقحم نفسه فى حقل الدراسات التاريخية. نعم، كنا ننتظر من الباحث أن يعلق على النص الذى ذكره العمرى بقوله إنه عندما يقول إن القاهرة والقلعة والفسطاط ثلاثة مدن صارت مدينة واحدة، فإنه يعنى بثلاث مدن ثلاثة مراكز عمرانية تداخل النشاط العمرانى فيها ـ فيما بينها وبين بعض ، ليتألف منها جميعا فى عصر سلاطين المماليك ما يمكن أن نعرفه بأسم حاضرة مصر.

ومن الواضح أن العمرى ـ وغيره من المعاصرين ـ عندما وصفوا قلعة الجبل بأنها «مدينة كبيرة» فإن هذا الوصف جاء نوعاً من المبالغة والتشبيه ، مثلما نقول نحن اليوم «المدينة الجامعية» و «مدينة السينما» و «مدينة الملاهى» ونحو ذلك. ولو رجع الباحث إلى اساتذة جغرافية المدن فى مكان عمله ـ وهم والحمد الله عمالقة فى فنهم ـ لأوضحوا له أن مصطلح المدينة له من الأبعاد والصفات ما لايمكن أن ينطبق على قلعة الحبل لنعتبرها مدينة ـ يذكرها الباحث قبل القاهرة ، ويحرص على أن يجعل لها من المكانة ما يفوق القاهرة والفسطاط .

حقيقة إن قلعة الجبل كانت مركز الحكم ومقر السلاطين، وبها كبار الإمراء وداخل اسوارها كانت الدواوين والاحواش ... ولكنها مع كل ذلك كانت قلعة بكل ما يحمله مصطلح القلاع فى تلك العصور من صفات ووظائف ، ولم تكن مدينة مفتوحة أمام غير المحاربين من طبقة المماليك . وإذا ذكرت بعض المصادر المعاصرة أنه وجدت بها الأسواق، فإن اللفظ مجازى قصد به أماكن محدودة لتفى بالحاجات الضرورية لسكان القلعة ، أما الأسـواق الحقيقيـة العامـرة

بالبضائع والتى تصب فيها ما تحمله القوافل الوافدة من خارج البلاد وداخلها فهى أسواق القاهرة وليست أسواق قلعة الجبل. هناك فارق بين قلعة حلب ومدينة حلب، وقلعة دمشق ومدينة دمشق، وقلعة عكا ومدينة عكا، وقلعة القاهرة التى عرفت بأسم قلعة الجبل، ومدينة القاهرة .

وحسب قلعة الجبل أن أبوابها كانت تفتح فى الصباح وتغلق فى المساء فى زفة كبيرة، وتحفظ مفاتيحها لدى السلطان نفسه لايستطيع أحد الإقتراب منها إلا بشروط وتصاريح خاصة .

ولكن الباحث أراد أن يجعل من قلعةالجبل «مدينة» قائمة بذاتها، ضاربا عرض الحائط بكل ما ينبغى أن يتوافر للمدن من صفات ترتبط بالنشاط العمرانى ، وربما أراد بذلك أن يبرر العنوان الذى وضعه لكتابه - وهو مدن مصر - فى حين أنه لم يتعرض فى الكتاب سوى لثلاثة مراكز هى قلعة الجبل التى اعتبرها مدينة ثم الفسطاط، وأخيراً القاهرة. واستغل الباحث وفرة ما كتبه المعاصرون والمحدثون عن قلعة الجبل، ونقل عنهم أسماء المنشآت التى حفلت بها قلعة الجبل دون أن يأتى بجديد. وليته رجع فى هذا الصدد إلى ما كتبه المرحوم الدكتور عبد الرحمن زكى والمرحوم الدكتور نظير حسان سعداوى.

أن إعتبار قلعة الجبل مدينة بكل ما تحفل به المدن من صفات وإمكانات وتقديمها كركن من أركان حاضرة مصر فى القرن الثامن الهجرى ، كلام بعيد عن الحقيقة والصحة والتاريخ .

إنها قلعة الجبل وليست مدينة الجبل .

وفى كلامه عن قلعة الجبل وقع الباحث فى عدة أخطاء تاريخية نشير إلى بعضها فيما يلى :

١ - يناقض الباحث نفسه فى ص ٣٦ عندما يقول (لم تعرف مصر الإسلامية قيام القلاع والحصون فى داخل المعمور المصرى... وحتى إذا كانت بعض المدن فى حاجة إلى أسوار للحماية ، فإن ذلك كان على أطراف المعمور فى دلتا النيل...) وبعد ذلك، وفى الفقرة التالية مباشرة يقول الباحث (أن قاهرة المعز قد نشأت أول أمرها كحصن للفاطميين عند الفتح الفاطمى لمصر... ثم فقدت قاهرة المعز صفتها كحصن...) وهكذا يناقض الباحث نفسه فى صفحة واحدة ، فهو يقول إن مصر الإسلاميه لم تعرف قيام القلاع والحصون فى داخل المعمور المصرى، ثم يعود فى نفس الصفخة ليقول إن القاهرة نشأت أول أمرها حصناً للفاطمين ثم فقدت بعد ذلك صفتها كحصن ... وبقى أن نثبت للباحث أن القاهرة قامت «داخل المعمور المصرى» حسب تعبيره ، وأن نبرهن له على أن دولة الفاطمين كانت صفحة فى تاريخ مصر الإسلامية .

ثم ماذا عن قلعة قايتباى فى الإسكندرية ؟ ألم تؤسس فى مصر الإسلامية فى المعمور المصرى؟؟ . فكيف يقول إن مصر الإسلامية لم تعرف القلاع والحصون؟؟

٢ - عندما يخوض الباحث فى التاريخ فإنه يظل بعيداً عن المنهج التاريخى العلمى السليم الذى يعتمد على تسلسل الأحداث وترابط الحلقات وربط النتائج بالأسباب ، وربما كان مرجع ذلك - كما لاحظنا - اعتماده على النقل من بعض مؤلفات حديثة ربمـا غير

متخصصة أو ربما ضعيفة الكيان ، مما يؤدى بالباحث إلى القفز فوق بعض أحداث التاريخ أو تصويرها تصويراً خاطئا بسبب إفتقاره إلى الخلفية التاريخية .

من ذلك قول الباحث فى ص٣٦ إن القاهرة «ظلت خاصة بالفاطميين لايسكنها العامة، ولها أسوارها وأبوابها، حتى جاء صلاح الدين الأيوبى فأباح سكنى القاهرة للعامة...» .

ولو أحسن الباحث فهم ما جاء فى خط المقريزى لأدرك العديد من الحقائق التاريخية التى غابت عنه أو التى أساء فهمها وتصويرها..

يقول الباحث فى النص السابق إن القاهرة ظلت خاصة بالفاطميين «حتى جاء صلاح الدين» ولكنه لا يحدد ولا يوضح ماذا يقصد بعبارة «جاء صلاح الدين» جاء متى، ومن أين، وإلى أين؟؟ التاريخ علم لا يكتب ولا يذكر دون تحديد . التاريخ ليس قصة تروى بلا ضوابط. لقد جاء صلاح الدين ثلاث مرات إلى مصر صحبة عمه شيركوه، فهل أحدث ما أحدث بالقاهرة فى إحدى هذه المرات الثلاث ؟ ثم خلف صلاح الدين عمه فى منصب الوزارة للدولة الفاطمية ، فهل أباح سكنى القاهرة للعامة وهو وزير؟ ثم شرع يستأثر بحكم مصر فى أواخر عهد سيده نور الدين ، فهل فعل ذلك فى حياة الدولة الفاطمية أو بعد سقوطها، وهل فعل ذلك فى حياة سيده نور الدين أم بعد وفاته؟... كل ذلك لم يوضحه الباحث، وحسبه أن يقول «حتى جاء صلاح الدين» معتبراً أن ذلك ضربا من ضروب الكتابة التاريخية .

يقول المقريزى ما نصه (الخطط ، جـ١ ، ص٣٦٤) إن القاهرة (وضعت منزل سكنى للخليفة (الفاطمى) وحرمه وجنده وخواصه ، ومعقل قتال يتحصن بها ويلتجأ إليها . وأنها مابرحت هكذا حتى كانت السنة (الشدة) العظمى فى خلافة المستنصر. ثم قدم أمير الجيوش بدر الجمالى وسكن القاهرة وهى يباب داثرة ، خاوية على عروشها غير عامرة ، فأباح للناس من العسكرية والملحية والأرمن وكل من وصلت قدرته إلى عمارة بأن يعمر ما شاء فى القاهرة مما خلا من فسطاط مصر ومات أهله ، فأخذ الناس ما كان هناك من أنقاض الدور وغيرها، وعمروا به المنازل فى القاهرة وسكنوها. فمن حينئذ سكنها أصحاب السلطان، إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية بإستيلاء السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى فى سنة سبع وستين وخمسمائة، فنقلها عما كانت عليه من الصيانة ، وجعلها مبتذلة لسكن العامة والجمهور..) .

وعندما يدرس المؤرخ المتمرس هذا النص يخرج منه بحقيقتين هامتين:

(أ) أن صلاح الدين فتح القاهرة أمام سكنى العامة سنة٥٦٧هـ (١١٧٢م) أى بعد إسقاط الخلافة الفاطمية وقبيل وفاة سيده نور الدين محمود بفترة وجيزة ، وكان ذلك فى الوقت الذى ساءت العلاقة بين صلاح الدين وسيده نور الدين وأخذ صلاح الدين يعد نفسه فعلا لمواجهة حادة مع نور الدين على أرض مصر.

(ب) أما الحقيقة الثانية التى يستخلصهاالمؤرخ من النص السابق، فهى أن وضع القاهرة العمرانى منذ قيامها حتى قيام الدولةالأيوبية، مر بثلاث مراحل:

١ - كانت أولا «منزل سكنى للخليفة (الفاطمى) وحرمه وجنده وخواصه ، ومعقل قتال يتحصن بها ويلتجأ إليها ...» .

٢ - عندما تعرضت مصر للشدة المستنصرية العظمى، أباح بدر الدين الجمالى لطوائف محددة من الناس «وكل من وصلت قدرته إلى عمارة» بأن يسكن القاهرة (فليعمر ما شاء) فنقل كثيرون أنقاض ما خرب من الفسطاط إلى القاهرة، «وعمروا به المنازل فى القاهرة وسكنوها» .

٣ - وأخيراً تأتى المرحلة الثالثة عندما أستأثر صلاح الدين بالسلطة فى مصر، فجعل القاهرة سنة ٥٦٧هـ «مبتذلة لسكن العامة والجمهور» . ويقصد بالعامة هنا السوقة ، ومن لا ينتمى إلى فئة الحكام وبطانتهم والطبقات المميزة ، ويلتحق بالعامة عادة جماعات الحرافيش والزعر ونحوهم، ممن يرد ذكرهم فى المصادر المعاصرة باسم «أوباش العامة» .

هذا هو العرض التاريخى السليم لمراحل تطور القاهرة العمرانى فى تلك الحقبة المبكرة ، ولكن الباحث قفز فجأة من المرحلة الأولى إلى الثالثة دون أن ينتبه إلى المرحلة الثانية التى تمثل حلقة وسطى بين المرحلتين .

٣ - يقول الباحث فى ص ٣٦ من كتابه ما نصه :

(وفى ظل الصراع العربى الصليبى...) .

ونقول للباحث : إن الحروب الصليبية كانت صراعاً إسلاميا صليبيا، لا عربيا صليبيا. ولنا فى ذلك دراسة قائمة بنفسها أوضحنا فيها أن دور العنصر العربى فى الحروب الصليبية من أولها حتى

نهايتها كان هامشياً محدوداً بعد أن ذبل النفوذ العربى فى الشرق الأوسط، وظهر على المسرح الترك والتركمان والأكراد وغيرهم من المسلمين الجدد من غير العرب ليرفعوا راية الجهاد ويحلوا محل العرب فى القيام بدور حماة الإسلام وفرسانه المدافعين عنه. ولم يكن المماليك الذين تحملوا عبء الجهاد فى المرحلة الأخيرة من مراحل الحروب الصليبية عربا. ولم نصادف فى التاريخ إسم بطل أو زعيم عربى تصدى لمقاومة الزحف الصليبى فى الشرق الأوسط فى عصر الحروب الصليبية ، على غرار عماد الدين زنكى ونور الدين محمود وصلاح الدين ... وغيرهم من أبطال الجهاد الذين ينحدرون جميعاً من أصول غير عربية .

وإذا كان بعض عامة المثقفين يخلطون اليوم بين العروبة والإسلام ، فإنه من العيب فى دراسة علمية جامعية أن يقع باحث فى مثل هذا الخطأ ، فليس كل عربى مسلما وليس كل مسلم عربيا .

٤ - يقول الباحث فى ختام ص٣٨ من كتابه مانصه (فأصبحت المدن الثلاث داخل سور واحد) ويعنى بالمدن الثلاث قلعة الجبل والفسطاط والقاهرة. ويكرر الباحث هذا القول فى ص١٠٢ إذ يقول مانصه (ثم جاءت الخطوة الثانية فى إقامة السور الذى أحاط بالمدن الثلاث القاهرة وقلعة الجبل ومصر الفسطاط) . وهكذا أصدر باحث الجغرافية حكما، على المؤرخين ورجال الأثار أن يمتثلوا له هو أن هناك سور تم بناؤه ليحيط بالقاهرة وقلعة الجبل والفسطاط.

ونقول للباحث إن هذا الرأى خاطىء لا سند له لا فى كتب التاريخ ولا فى واقع الآثـار. لقد أراد صلاح الدين بنـاء مثل هـذا

السور فعلا. وشرع فى بنائه ، ولكن صلاح الدين مات قبل أن يتم تنفيذ المشروع. وجرت محاولات لتنفيذ الفكرة، ولكن هناك فارق بين ما يتمناه المرء وما يمكن أن يدركه المرء. ولو كان قد تم بناء مثل هذا السور لوجدنا أجزاء على امتداده تشير إلى استكماله، ولكن رجال الآثار لم يستطيعوا أن يثبتوا ذلك. ولو كان السور قد أستكمل فعلا وأحاط بالمراكز الثلاثة - ولا أقول المدن - لوجدنا صدى ذلك فى ورود أسماء أبواب جديدة فى السور تتفق مع إمتداده وطوله . ولو كان السور قد استكمل فعلا، لظهر أثر ذلك فى الأحداث الضخمة التى شهدتها المنطقة من ثورات وفتن وحروب وخاصة فى عصر سلاطين المماليك وفى الأحداث التى صحبت سقوط القاهرة فى أيدى السلطان سليم العثمانى ثم فى أحداث الحملة الفرنسية على مصر. ولكن كتب التاريخ ومصادره خالية تماما من أيه إشارة يفهم منها وجود مثل هذا السور، وكل ما هنالك هو إشارات إلى أن صلاح الدين رغب فى بناء مثل هذا السور ولكنه لم يستكمل، وأشارات إلى طول المسافات التى كان يقطعها مثل هذا السور ، دون تأكيد على تمام عملية البناء .

يقول المقريزى فى خططه (جـ١ ص٣٤٧) ما نصه: (فأحب السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أن يدير سوراً يجمع فيه القاهرة ومصر وقلعة الجبل، فزاد فى سور القاهرة على يد قراقوش من باب القنطرة إلى باب الشعرية وإلى باب البحر، يريد أن يمد السور من باب البحر إلى الكوم الأحمر الذى هو اليوم حافة خليج مصر تجاه خط بين الزقاقين، ليصل أيضاً من الكوم الأحمر إلى باب مصر هذا، **فلم يتهيأ** له هذا، وانقطع السور من عند جامع المقس.

وزاد فى سور القاهرة أيضاً من باب النصر إلى قلعة الجبل فلم يكمل له. ومن السور من قلعة الجبل إلى باب القنطرة خارج مصر، فصار هذا الباب **غير متصل بالسور)** . إذا فقد أحب صلاح الدين بناء السور، فلم يتهيأ له ذلك ، ولم يكمل له السور.

أما القلقشندى (صبح العشى جـ٣ ص٣٥٤) فيقول عن هذا السور (ولما ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الديار المصرية انتدب لعمارة اسوار القاهرة ومصر... فبنى سوراً دائرا عليها وعلى قلعة الجبل والفسطاط ، ولم يزل البناء به حتى توفى السلطان) وهذا يتفق مع قول المقريزى بأن السور لم يتم بناؤه.. وإنما أقيمت منه أجزاء متفرقة مماجعل المؤرخين - مثل أبى الفدا- يقتصرون (على ذرع السور من غير تفصيل) أى يقتصرون على ذكر طول وابعاد مسافاته دون الدخول فى التفصيلات لأنه لم يتم .

أما الباحث - الذى يعتمد على خياله أو على النقل الخاطىء - فقد أراد أن يقلب التاريخ رأسا على عقب محتمياً بقناع الجغرافية التاريخية .

٥ - وفى ختام كلامه عن قلعة الجبل - ص ٥١ - ينهى الباحث كلامه بعبارة نصها :

(ويكفى للتدليل على أهمية ذلك ما كان من أحداث فى عصر الناصر محمد ، الذى تولى حكم مصر ثلاث مرات، وكيف أنه ألغى فى مدة حكمه وظيفة نائب السلطنة) .

ونقول : هذه العبارة تستوقف نظر أى متخصص فى حقل الدراسات التاريخية ، لما تحويه من إنحراف علمى يصل إلى درجة

الخطأ . إن مايقوله الباحث من أن السلطان الناصر بن قلاون «ألغى فى مدة حكمه وظيفة نائب السلطنة»، لا يتفق مع الحقيقة التاريخية ويشوه الصورة الحقيقية لنظم الحكم فى عصر سلاطين المماليك ، وهو عصر ليس بالسهولة التى يتخيلها البعض. ونرد على هذا القول بمايلى :

(أ) كانت وظيفة نائب السلطنة على نوعين : نائب الغيبة وهو الذى ينوب عن السلطان أثناء غيابه ، ونائب الحضرة وهو الذى ينوب عن السلطان فى حضرته ، وهو أعلى درجة. والوظيفة التى أبطلها السلطان الناصر محمد بن قلاون وظيفة نائب الحضرة فقط، وذلك فى سنة ٧٢٧هـ (١٣٢٦م) بعد أن عانى السلطان كثيرا من الشدائد والأخطار على يد نواب الحضرة واحداً بعد آخر بسبب تآمرهم على السلطان ومحاولة بعضهم إنتزاع كرسى السلطنة لنفسه .

(ب) أن السلطان الناصر محمد عندما أبطل وظيفة نائب السلطنة سنة٧٢٧هـ، فإن الإلغاء كان قاصراً على نيابة الحضرة ، فى حين ظلت وظيفة نائب الغيبة قائمة لم تتأثر. وأوضح دليل على ذلك أن السلطان الناصر محمد عندما خرج لإداء فريضة الحج سنة ٧٣٢هـ (١٣٣١م) أقام الأمير سيف الدين ألماس نائبا عنه فى غيبته (المقريزى: السلوك ، جـ٢ ص٣٥١، ابن تغرى بردى النجوم جـ٩ ص١٠٢، المنهل الصافى، جـ٣ ص٨٩-٩٠ ، أبن حجر : الدرر الكامنة ، جـ١ ترجمة رقم ١٠٦٣ ، ليلى عبد الجواد : نائب السلطنة فى القاهرة فى عصر دولة المماليك البحرية - العدد الأول من مجلة المؤرخ المصرى، ص٢١١) .

(جـ) أن وظيفة نائب الحضرة التى ألغاها السلطان الناصر محمد، لم يطل إلغاؤها، ولم يستمر إلغاؤها بقية القرن الثامن أى حتى نهاية الفترة الزمنية التى حددها الباحث لدراسته ، وإنما اعيدت سنة ٧٤١هـ (١٣٤٠م) فى سلطنة المنصور أبى بكر ابن السلطان الناصر محمد .

وهكذا يبدو أن قول الباحث عن السلطان الناصر محمد أنه «ألغى فى مدة حكمه وظيفة نائب السلطنة» قول غير دقيق وغير واقعى فالوظيفة لم تلغ ، وإنما أبطل - لمدة - محدودة - جانب منها وظل الجانب الآخر قائما .

* * *

وبعد ذلك ينتقل الباحث فى ص ٥٢ إلى المدينة الثانية التى تألفت منها حاضرة مصرفى القرن الثامن الهجرى - وهى الفسطاط - فاختار لها أسما مركبا لا يتفق والحس التاريخى ، هو (مصر الفسطاط) .

وقد أصر الباحث على هذه التسمية فى كافة صفحات كتابه . ومن الواضح أن الباحث يريد بهذه التسمية أن يميز بين مدلول لفظ (مصر) كقطر من الأقطار بالمعنى الذى عرفت به منذ القدم والذى ورد ذكره فى القرآن الكريم ومصطلح (مصر) الذى أطلق فى فترة لاحقة بعد الفتح العربى الإسلامى على الفسطاط وملحقاتها مثل العسكر والقطائع. ولكن هذه التسمية غير مستساغة ، ولو قيل (فسطاط مصر) لكان أفضل. يقول المقريزى فى مقدمة خططه (جـ١ ص٤) إن كتابه (يشتمل على أخبار فسطاط مصر ومن ملكها)

ثم يكرر قوله. (جـ١ ص٢٦٩) : «أعلم أن الخطط التى كانت بمدينة فسطاط مصر ...» ويقول ياقوت فى معجم البلدان: (...وكل مدينة فسطاط، ومنه قيل لمدينة مصر التى بناها عمرو بن العاص الفسطاط) . أما القلقشندى (صبح الأعشى، جـ٣ ص٢٣٩) فقد أمدنا بعرض ممتع للفسطاط ونشأتها وخططها ، مستخدماً دائما مصطلح «الفسطاط» . ولم يذكر مطلقاً عبارة (فسطاط مصر) أو (مصر الفسطاط) ، وإنما اعتبرها أشهر من أن تضاف إلى غيرها أو يضاف الغير إليها ، فقال عنها «هى المدينة المعروفة بين العامة بمصر» .

والواقع إن تسمية المدن الكبرى والحواضر باسماء الأقطار التى ترتبط بها ظاهرة شائعة ، ومن ثم فإن إطلاق العامة إسم (مصر) على الفسطاط بوصفها كانت عندئذ حاضرة مصر ، ظاهرة لا غرابة فيها ومازال أهل بلاد الشام - بمعناها الجغرافى الواسع - يطلقون على دمشق اسم (الشام) .

ولكن الشىء الذى لا نستسيغه هو أن يتمسك الباحث برسم (مصر الفسطاط) مستخدماً هذه الصيغة للدلالة على الفسطاط . وما دام اسم الفسطاط هو الأصل بالنسبة لذلك المركز فلنتمسك به مثلما فعل القلقشندى. وإذا كان العامة هم الذين أطلقوا على الفسطاط اسم مصر ، فأحرى بالعلماء ألا يجروا وراء العوام .

إن مهمة المؤرخ - الأصيل - هى النقد والتحليل والمقارنة والتصويب ثم العرض .

وفيما عدا ذلك ، فإننا لانأخذ على الباحث فى هذا الجزء سوى أنه ركز على الحريق الذى تعرضت له الفسطاط عام ٥٦٤هـ، وأعتبر

ذلك الحريق بداية تدهور هذه المدينة ، محاولا الاستشهاد بما ذكره المقريزى من أن حريق الفسطاط «أتى على مساكنها فأصبحت منذ ذلك الحين تعرف باسم كيمان مصر، وتلاشى أمرها وأفتقر أهلها» . ولكن الباحث - فى غياب الحاسة التاريخية - لم ينتبه إلى أن المقريزى إذا كان قد ذكر آثار الحريق ، إلا أنه لم ينص صراحة على أنه هذا الحريق يمثل نقطة البداية فى ذبول الفسطاط وتدهور أحوالها ، مثلما يصور الباحث ، أوبمعنى أدق مثلما توهم الباحث .

ونرى أن بداية أفول نجم الفسطاط وذبولها ترجع دون شك إلى وقت قيام الدولة الفاطمية فى مصر وبناء القاهرة لتكون حاضرة وعاصمة جديدة للبلاد تحل محل الفسطاط. وعلى الباحث أن يدرك أن الفاطميين كانوا يحملون مذهبا مغايرا للمذهب السنى الذى تأصل فى الفسطاط وأمتدت جذوره فيها وانتشر منها بعيدا داخل البلاد وخارجها . وكان جامع عمرو بن العاص منذ تأسيسه مركز إشعاع للفقه السنى لا فى مصر وحدها وإنما فى شمال أفريقية أيضاً . ومنذ اللحظة الأولى لم تجد الفسطاط قسطاً من رعاية الفاطميين، فأقاموا الأزهر لتنتقل إليه الزعامة الروحية والفكرية. وهكذا أخذت الفسطاط تسير فى طريق الذبول حتى جاء حريق سنة ٥٦٤هـ ليضيف عاملا جديداً إلى عوامل ذبول تلك المدينة .

يقول القلقشندى (صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٣٧) ما نصه :

(ولم يزل الفسطاط زاهى البنيان ، باهى السلطان ، إلى أن كانت دولة الفاطميين بالديار المصرية، وعمرت القاهرة ، فتقهقر حاله وتناقص ،وأخذ الناس فى الإنتقال منه إلى القاهرة وما حولها، فخلا (الفسطاط) من أكثر سكانه ، وتتابع الخراب فى بنيانه) .

وهكذا وضع القلقشندى أصبعه على البداية الحقيقية لتدهور أحوال الفسطاط ، وهو مايتفق مع باطن التاريخ لا ظاهره ..

* * *

وبعد ذلك ينتقل الباحث إلى المدينة الثالثة التى اختار أن يجعلها ذيلا لقلعة الجبل والفسطاط، وهى (مدينة القاهرة وظواهرها) ونأخذ على هذا الجزء بعض الملاحظات نكتفى بالإشارة إلى عدد منها :

١ - يقول الباحث فى الفقرة الثانية من ص١٠٨ ما نصه :

(وبالقاهرة كافة المرافق والدواوين الخاصة بإدارة دفة البلاد فى المجالات المتعلقة بالسلطات التنفيذية والقضائية والمالية والحربية ..)

ويتعارض هذا تماما مع الواقع ، ومع ما سبق أن ذكره الباحث نفسه فى ص٥٤ عند كلامه عن قلعة الجبل ، إذا ذكر الباحث أن القلعة بها كافة المرافق ذات الصبغة الإدارية والسياسية، وقال حرفيا :

(والمقصود هنا دواوين الدولة ومبانيها العامة لإدارة الحكم من القلعة بإعتارها كرسى الحكم . ولعل أشهرها وأهمها الايوان (دار العدل ...) .

٢ - وفى نفس الصفحة - الفقرة الرابعة - يقول الباحث :

(المساجد الجامعة ومساجد الصلوات الخمس) وبذلك قسم المساجد إلى نوعين أو إلى قسمين مساجد جامعة ، ومساجد الصلوات الخمس. فهل كانت المساجد الجامعة لا تقام فيها الصلوات الخمس؟؟

إن المفروض فى كل المساجد إن تقام فيها الصلوات الخمس . ولكن ليس مفروضا فى كل المساجد أن تقام فيها صلاة الجمعة والخطبة .

ومن ثم فإن المساجد تقسم إلى مساجد جامعة ومساجد غير جامعة، بمعنى أن كل جامع مسجد ولكن ليس كل مسجد جامعاً .

٣ - يقول الباحث فى ص ١٠٨ ما نصه :

(كذلك كان للقاهرة وظيفتها الدينية والثقافية ، ممثلة فى ذلك الحشد الكبير من المدارس التعليمية على إختلاف مذاهبها الفقهية وغيرها. وكذلك الخوانق والرباطات والزوايا والمساجد الجامعة ومساجد الصلوات الخمس. وهذه المنشآت الثقافية والتعليمية لم يقتصر دورها على القاهرة والديار المصرية بل تجاوزت ذلك إلى إقطار الإسلام فى المغرب والمشرق . وهذا ما تعكسه وفود ورحلات طلاب العلم والعلماء الذين قصدوا القاهرة فى زمن المماليك) .

وهكذا علل الباحث لكثرة (وفود ورحلات الطلاب العلم والعلماء الذين قصدوا القاهرة فى زمن المماليك)، وبكثرة (المنشآت الثقافية والتعليمية) . وهنا يبدو الباحث وقد أخذ بظواهر الأمور وأغفل عاملا هاما ، ربما لم ينتبه إليه لعدم توافر الخلفية التاريخية، مع ما لهذا العامل من أثر خطير فى جذب علماء العالم الإسلامى إلى مصر فى عصر سلاطين المماليك. أما هذا العامل فهو أن مصر غدت مقر الخلافة العباسية التى تم إحياؤها على يد السلطان الظاهر بيبرس، وذلك بعد أن سقطت فى بغداد على أيدى التتار. يقول السيوطى ما نصه :

(اعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها ، وكثرت شعائر الإسلام فيها ، وعلت فيها السنة وعفت منها البدعة، وصارت محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء) .

ونقول للباحث إننا فى دراسة التاريخ لانقيس الأمور بمقياس الحاضر ولا ننظر إليها بعين الواقع الذى نعيشه نحن ، وإنما نقيسها بمقياس العصر الذى نؤرخ له وننظر إليها بعين الواقع الذى عايشته الأزمنة التى نعالج أحداثها. وفى تلك العصور التى نطلق عليها اسم العصور الوسطى قال بعض العلماءإن العلم يوجد حيث توجد الخلافة، وكان أقصى ما يتطلع إليه العالم هو أن يعيش بجوار خليفة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى حكم المسلمين . ولذا كان للخلافة من الآثار المعنوية والنفسية أضعاف ما كان لها من الأثر السياسى .

وعندما يعالج المؤرخ موضوع نشاط الحياتين العلمية والدينية فى مصر فى عصر سلاطين المماليك ينبغى عليه ألا يغفل أثر الخلافة. ولكننا نلتمس بعض العذر للباحث لأنه ليس مؤرخا وإنما اقحم نفسه فى صلب التاريخ .

٤ - ومرة أخرى نأخذ على الباحث أنه يلتقط نصوصاً من بعض المصادر المعاصرة ولكنه لا يحاول فهمها فهماً سليما ، مما يوقعه فى أخطأ غير جائزة. من ذلك أنه يقول فى الفقرة الثانية من ص١١١ ما نصه :

(وينقل ابن خلدون أقوال سابقيه عن القاهرة وسكانها ، مثل قولهم : كأنما انطلق أهلها من الحساب، مشيراً بذلك إلى كثرة سكانها وأمنهم العواقب) .

ونقول للباحث : إن ابن خلدون عندما قال عن القاهرة كأنما انطلق أهلها من الحساب - ، أو كما قال المقريزى - نقلا عن ابن خلدون «كأنما فرغوا من الحساب» ، فإنه لا يعبر عن (كثرة سكانها وأمنهم والعواقب) مثلما يظن الباحث ، وإنما يعبر عن «مرح أهل مصر وكثرة مزاحهم» .

وما يرتبط بهذا وذاك من طابع الاستتهتار وعدم المبالاة ، مثلهم فى ذلك مثل الشخص الذى يشعر بالراحة بعد أن فرع من الحساب ، فأمعن فى اللهو والمرح بعد أن أحس بزوال كابوس ثقيل عن صدره .

يذكرالمقريزى أن أهل مصر من أخلاقهم «الإنهماك فى الشهوات، والإمعان فى الملاذ ، وكثرة الإستهتار وعدم المبالاة...» .

ويستشهد على لك بقول ابن خلدون «كأنما فرغوامن الحساب» .

ولسنا هنا بصد مناقشة كلام ابن خلدون والمقريزى عن أهل مصر، وما فيه من مبالغة، ولكننا نناقش سوء الفهم الذى وقع فيه الباحث عندما حاول تفسير النص .

* * *

وبعد ، فإننا نكتفى بهذا القدر من النقد والتحليل لكتاب «مدن مصر وقراها فى القرن الثامن الهجرى» حتى لا يحجب هذا النقد صورة الجهد الذى بذله المؤلف - الدكتور عبد العال عبدالمنعم الشامى، وبذلك نحرمه من أجر كفله الشرع للمجتهد إذا أخطأ .

ومرة أخرى نقول إن الجغرافيا التاريخية علم له أهميتة ومكانته وخطورته، ولكننا نخذر الجغرافى من أن يوغل فى أعماق التاريـــخ

دون أن تكون لديه الخلفية التاريخية الكافية ، ودون أن يكون على علم بأركان منهج البحث التاريخى، ودون أن يكون ملماً بالأبعاد الحقيقية للعصر الذى استباح لنفسه أن يخوض فى احداثه ، على المستويين المحلى والعالمى. وفى المقابل فإننا نحذر المؤرخ من أن يحاول تفسير التاريخ قبل أن يتزود بقاعدة جغرافية راسخة توضح أمام عينية حقيقة خصائص المسرح الذى تدور عليه أحداث التاريخ وتتأثر به فى مسيرتها وتقلباتها .

فإذا حرص كل باحث على الإلتزام بحقل تخصصه ، وعدم التطلع إلى حقل آخر يرتبط بعلم له كيانه ومنهجه وخلفيته وركائزه التى لا يحيط بها إلا المتخصصين فى ذلك العلم ، فإن ذلك يؤدى فى النهاية إلى تحقيق هدفين كبيرين : أولها ازدهار النشاط العلمى فى إطار وحدة متكاملة من المعرفة ، وثانيها عدم إنزلاق بعضهم فى متاهات تؤدى إلى إنزال أبلغ الضرر بالعلم وبالدخلاء جميعا .

ولنضرب مثلا على ذلك : إقليم الشرقية عالجه بعض اساتذة الجغرافيا الفضلاء ، فبحثوا فى موقعة الجغرافى وأثره ، وبحثوا فى الصراع بين الزخف الصحراوى والنشاط العمرانى على ساحة ذلك الإقليم ، وبحثوا فى الموارد المائية وفروع النيل وترعه وقنواته وما أندثر منها وأسباب إندثاره وما بقى منها واسباب بقائه ، وما ارتبط بهذا وذاك من مراكز عمرانية تمثلت فى العديد من القرى والمدن ، بعضها لم يبق منه الآن إلا الاسم والبعض الآخر قدر له البقاء والإستمرار والإزدهار .. وهو فى ذلك يستعين بالمؤرخ والأثرى لتكتمل الصورة ، ولكن دون أن يغوص فى صميم علمى التاريخ والآثار ليوهم نفسه بأنه غدا مؤرخاً أو أثريا

ومن ناحية أخرى يدرس المؤرخ إقليم الشرقية بوصفه بوابة مصر الشرقية بل النافذة الأساسية التى أطلت منها مصر على العالم الخارجى فى شتى عصور التاريخ ، ففى عصور القوة كان الأقليم طريق الجيوش التى خرجت من مصر لغزو بلاد الشام وما حولها أو للتصدى للغزاه المعتدين ، وفى عصور الضعف كان هذا الإقليم أيضاً البوابة الشرقية التى دخلت عبرها جيوش الأعداء والغزاة، ويمضى رجال التاريخ ليستعرضوا غزوات الهكسوس وحملات الرعامسة وفتوح الإسكندر الأكبر والفتح العربى والغزوات الصليبية التى وفدت من الشرق عن طريق الصليبين الغربيين الذين استقروا بالشام، وفتوح المماليك ، والغزو العثمانى ، وحملة الفرنسيين على الشام، وحملة إبراهيم باشا... مع ربط كل ذلك بالتيارات التاريخية المعاصرة ، فى الشرق والغرب، فى أوربا وآسيا وافريقية، مما لايقوى على إستيعابه إلا المؤرخ الواسع الأفق الذى يتمتع بحاسة تاريخية ناضجة تمكنه من الربط بين القديم والجديد ، وبين القريب والبعيد . ولن يستغنى المؤرخ فى هذه الحالة عن الرجوع إلى الجغرافى للوقوف على الأبعاد الحقيقية للعوامل الجغرافية - وبخاصة الموقع - وأثرها فى صنع تاريخ ذلك الإقليم وتشكيله .

ومثل هذا يقال عن غير الشرقية من إقاليم مصر، كأسوان والفيوم والبحيرة ،وغيرها من الاقاليم التى أنجز فيها بعض أبنائها رسائل علمية ممتازة أسهمت فى خدمة العلم داخل دائرة تخصصهم ودون الإنزلاق فى بحر من التسيب يفقد العلم أهميته ويفقد الباحث كرامته وشخصيته .

إننا نفهم أنه فى نطاق الجغرافية التاريخية يتناول باحث ظاهرة جغرافية بالشرح ويتتبع أثرها فى مسيرة التاريخ فى عصر من العصور. حبذا لوكان الباحث قد عبر عن نشاطه فى حقل الجغرافية التاريخية . بعمل دراسة بعنوان «المسرح الجغرافى للحركة الصليبية فى الشرق الادنى وأثره فى توجيه تلك الحركة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد» . وفى مثل هذه الدراسة التى تحمل لواء التعاون العلمى المثمر بين الجغرافية والتاريخ يستطيع الباحث أن يعلل لكثير من أحداث الحروب الصليبية فى الفترة المشار إليها .

فإذا كان الباحث ممن لا يتجاوزون نطاق مصر فى دراساتهم ، حبذا لو تصدى لعلاج ظاهرة مثل تأكل شواطىء الدلتا وأثر ذلك فى تاريخ بعض المدن الكبرى - مثل الإسكندرية ودمياط - فى حقبة معينة من حقب التاريخ، وهذه دراسة تتطلب تعاون الباحث مع بعض أساتذة الجيولوجيا والتايخ ، مما يسمو بالنشاط العلمى إلى المستوى المنشود .

ومثل هذا يقال عن تطور الظروف المناخية فى النصف الشمالى لقارة افريقية وأثر ذلك فى التطور الحضارى والتاريخى ... وغير ذلك من الموضوعات العديدة التى تظهر فيها الملكة الجغرافية والتى تتخذ من علم الجغرافية ركيزة أساسية تتفق وتخصص الباحث ومدى أستيفائه لمناهج البحث فى العلوم الأخرى القريبة من دائرة نشاطه .

أما أن يفلس أحدهم فى حقل تخصصه فيتسلل ويقحم نفسه فى متاهات علم آخر لم يعد إعدادا كافيا لإستيعاب منهجه وخلفيته وأبعاده ومصادره وجذوره .. فإنه لن يفلح فى أن يكون عالما مبرزا

فى أحد العلمين. إن هروب أحد الجغرافيين إلى ساحة التاريخ للكلام عن الاسواق والمساجد والحارات مع التعرض للعديد من حوادث التاريخ ونظمه يوقعه فى أخطاء هو فى غنى عنها، دون أن يأتى بجديد أكثر مما ذكره بعض علماء التاريخ والآثار... وهذا أمر لا يرضى عنه المؤرخون ولا أساتذة الجغرافية ، وهم والحمد لله وفرة نعتز بهم ونفخر بدارساتهم الجغرافية التخصصية التى طالما أفدنا منها ورجعنا إليها ، فالعلوم وحدة متكاملة ، وعلم التاريخ لا غنى له عن علم الجغرافيا ، ولكن لكل شىء حدود وإذا تعلل بعضهم بأن الجغرافية التاريخية فرع جديد من فروع علم الجغرافية ولذا فإنه فى حاجة إلى شىء من التشجيع والدعم، فإن ذلك ينبغى أن يكون على أسس سليمة غير واهية مما يضمن له ويحقق له الإزدهار والنمو والإستمرار .

ورحم الله ابن قتيبة إذ يقول «من أراد أن يكون عالماً فليطلب فناً واحداً» . أما من يحاول أن يطلب فنين فى وقت واحد ، فينطبق عليه قول أحد مؤرخى القرن السادس الهجرى إذ يصبح «كالنعامة التى خرجت تطلب قرنين فعادت بلا أذنين» .